روائع من أدبه وفوائد من كتبه

ويليه

الفوائد الطنطاوية

فوائد لغوية من حواشي كتب الشيخ
علي الطنطاوي (رحمه الله)

اختارها وجمعها وأعدها
إبراهيم مضواح الألمعي

دار المنارة
للنشر والتوزيع

ويليه

الفوائد الطنطاوية

فوائد لغوية من حواشي كتب الشيخ
علي الطنطاوي (رحمه الله)

اختارها وجمعها وأعدها
إبراهيم مضواح الألمعي

دار المنارة
للنشر والتوزيع

مقاطع مختارة

من
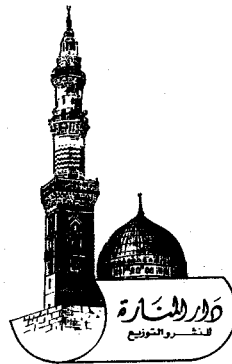
إسلامية - فكرية - تاريخية - أدبية - اجتماعية

إهداء

إلى صاحب القلم السيال...

إلى الذي ملكنا بسحره الحلال...

إلى روح الأديب العظيم...

فضيلة الشيخ : علي الطنطاوي رحمة الله عليه

أُهْـدي لـمـجـلِـسـهِ الـكـريـم ، وإنَّـمـا
أُهْـدي لـهُ مـا حـزتُ مـن نَـعـمَـائـهِ
كـالـبَـحْـرِ يـمـطـرُه الـسـحـابُ ومـا لـهُ
فَـضْـلٌ عـلـيـه لأنـه مـن مـائـهِ

بين يدي هذه المختارات

الحمد لله الذي علم الإنسانَ البيان، والصلاة والسلام على الرسول القائل: (إن من البيان لسحرا)[1]، وبعد:

فقد شهدت أمتنا العربية يقظة أدبية ثقافية، تبلورت في شكل أكثر وضوحاً مع مطلع قرن العشرين الميلادي، ونمت وترعرعت وسارت على إثر خطواته، وقد اختلفت مشارب رواد هذه الثقافة، ولكنها في غالبها شكلت حلقة وصل بين ماضيها الثقافي المجيد، وحاضرها التليد.

والمتتبع لرموز هذه الثقافة، يجد أنهم يعودون إلى ثلاثة منابع أصلية: هي الشام والعراق ومصر...

وخلال هذا القرن شهد العالم، حربين عُظميين، وخلاله أيضاً، ابتلي المسلمون بالاستعمار، الذي بقدر فعله في تفريق الصف، كان له أثر خفي في توحيده، باعتباره عدواً مشتركاً.

ولست بصدد التأريخ لثقافتنا العربية خلال هذا القرن، ولكن الذي جرَّ قلمي إلى هذا هو أني بصدد الإشارة إلى رجلٍ كان خلاصة لكل هذه الظروف، والتجارب، بل كان شاهداً على قرن العشرين بكل تحولاته: إنه

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، بابٌ في الخطبة، فتح الباري جـ ٩ / ص ١٠٩ الناشر دار الريان للتراث / القاهرة

فضيلة الشيخ علي الطنطاوي. الذي كان أمة وحده في الأدب، ولست أعرِّف بالشيخ، فقد عرفه الناس: أدباؤهم وعامتهم، من خلال كتبه وكتاباته، ونشاطه الإعلامي الذي كان قلة الناس، خاصة في المملكة العربية السعودية.

غير أن الدارس لأدب الطنطاوي يجد أنه ولج باب الأدب ناضج الفكرة، متسلحاً بأدوات الأدب العبقري، عن موهبة لا يملكها إلا أمثاله وما أقلهم..

فقد وقف قلمه ولسانه لمبادئ قال عنها: (.. لديَّ أشياء ما بدلتها قط، ولن أبدلها إن شاء الله، هي أني حاربت الاستعمار وأهله وأعوانه وعبيده دائماً، ومجّدت العربية وسلائقها وأمجادها وبيانها دائما، وكنت مع الإسلام وقواعده وأخلاقه وآدابه دائماً)[1].

وهو عالم بمنزلته في تواضع، والآخرون يعلمون منزلته في الأدب، فقد تربع على قنته، ومع ذلك فإني (أكاد لا أعرف قلماً معاصراً ظلمته الأقلام، وأديباً عقه الأدباء، ومحدثاً أغفله المحدثون، وقمة تجاهلها المتسلقون، كمثل الطنطاوي)[2].

وهو يقول عن الناس: (إنهم يعلمون أن في قميصي خطيباً ما يقوم له أحد في باب الارتجال والإثارة، وإيقاظ الهمم وصب الحمم، ولكن من الناس من يعقل الحسد ألسنتهم عن شهادة الحق. أستغفر الله! فما أحب الفخر، ولكني اضطررت فقلت، وهل أسكت إذا سكت الناس عن بيان حقي؟)[3].

وهو الرائد في الدعوة إلى فكرة الأدب الإسلامي، التي أصبحت الآن مدرسة مستقلة في الأدب.

---

(١) علي الطنطاوي/ من حديث النفس / ص ٧.
(٢) د. أحمد بسام ساعي / الواقعية الإسلامية في الأدب والنقد / ص ١٤٩.
(٣) علي الطنطاوي / من حديث النفس / ص٩.

ولن أوغل في سيرة الشيخ أو تعداد مناقبه فهي تنوء بمثل هذه المقدمة، ولكني أحيل القارئ الكريم إلى كتبه لتُعرِّفَ بكاتبها.

اقرأ إن شئت (فصول إسلامية) و (في سبيل الإصلاح) و(فتاوى الطنطاوي) لترى أي مفكر إسلامي يتصدى لقضايا المسلمين المعاصرة.

اقرأ (أبو بكر الصديق) و(أخبار عمر) و (قصة حياة عمر) و(رجال من التاريخ) و (أعلام الإسلام) لترى أي رجل عظيم يؤرخ لهؤلاء العظماء.

اقرأ (قصص من التاريخ) و (قصص من الحياة) و (وحكايات من التاريخ) لتعلم أي خيالٍ مبدع ينسج من الحدث العارض، أو العبارة التاريخية المقتضبة، قصة عبقرية.

اقرأ (من حديث النفس) و (مع الناس) و(بغداد) لتعلم أي نفسٍ هذه التي حملت أحاسيس كل نفس، أفراحاً وأحزاناً وآلاماً، وتأملات.

اقرأ (الذكريات) لترى رجلاً اعترته ظروف اليتم والفقر، واعترضت طريقه كل العوائق، فلم تحل بينه وبين ما يصبو إليه، حتى إذا أدرك المجد الأدبي والشهرة والعلم الواسع، أخذ يتساءل: ما المجد الأدبي؟ وما الشهرة؟ ثم يقنع بمطلب واحد (يقظة قلب أدرك بها حقائق الوجود، وغاية الحياة، واستعد بها لما بعد الموت)[1].

وبعد:

فقد كان من توفيق الله لي أن أرشدني سبحانه ـ دون مرشد من الناس ـ إلى الاطلاع على كتب هذا الأديب العظيم، فاكتشفت كنزاً لم يخطر لي من قبل على بال، فكان أقل شكر لله على توفيقه، أن أسعى إلى إرشاد من لم يوفق إلى قراءة كتب الطنطاوي. فاستأذنت فضيلته في أن أجمع بعضاً من متفرقات أدبه وفكره، المنثور في كتبه الكثيرة، فأذن لي، فاخترت من أدبه وفكره هذه المقاطع، ولو أمكن، وأنصفتُ لَحوتْ هذه المختارات كل كلمة خطها قلمه الذي قال ـ فضيلته ـ عنه:

---

(١) علي الطنطاوي / من حديث النفس / ص ٢٠٤.

(إن عمادي هذا القلم، وإنه لغصن من أغصان الجنة لمن يستحقها، وإنه لحطبة مشتعلة من حطب جهنم، لمن كان من أهل جهنم)[1].

وما هذه المختارات إلا قطرات من بحر الطنطاوي الزاخر بالمعرفة الموسوعية، فهو أستاذ للفقيه، والمؤرخ، واللغوي، والأديب، والمفكر، إنه أشبه ما يكون بجامعة، هو أستاذها وكتبه مقرراتها، وقراؤه طلابها. . .

وأملي في قارئ هذه المختارات أن يرجع إلى أصول الموضوعات في مصادرها المشار إليها في الحواشي، فما هذه المختارات إلا عناوين لتلك الموضوعات، فأكثرها من استطراداته التي أُبتلي بها على حد قوله: (لقد صار الاستطراد عادة لي، أعترف أنها سيئة)[2] ومع أنه يراها سيئة فإن قراءه يعدونها من نعم الله عليهم.

وقد جعلت لها عناوين مستقلة ـ وإن كان من أصعب الصعوبات أن توضع صفحة من كتابات الطنطاوي في إطار موضوع واحد، فهو بمعرفته الموسوعية يجنح إلى الإستطراد دائماً ـ متمنياً أن أكون قد وفقت في عملي هذا، سائلاً الله جل وعلا أن يُثقّل موازين كاتبها بكل كلمة قالها أو كتبها، إنه سميع مجيب، وألا يحرمنا أجر محبته الخالصة لوجه الله تعالى[3].

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

إبراهيم مضواح

محرم ١٤١٩هـ

---

(١) علي الطنطاوي / من حديث النفس / ص ٩٠.

(٢) ذكريات الشيخ علي الطنطاوي / جـ١ / ص ١٠.

(٣) كتبت هذه المقدمة قبل وفاة الشيخ الطنطاوي رحمة الله عليه بعام، عند تمام المختارات التي لم يُكتب لها أن ترى النور إلا بعد رحيله، إلى رحمة الله تعالى.

كلمة حق

(... أكاد لا أعرف قلماً معاصراً ظلمته الأقلام، وأديباً عقه الأدباء، ومحدثاً أغفله المحدّثون، وقمةً تجاهلها المتسلقون، كمثل الطنطاوي، وإن كنا على ثقة من أنَّه فوق أن يكترث بهذا الظلم أو ذلك العقوق، ما دام يدرك أية قمة تربع فوقها، وأي مكانة تسنَّمها في ريادة الحديث الإذاعي والواقعية الإسلامية، ثم لم يسمح لأحدٍ بأن يمسها أو يصل إليها..)

الدكتور
أحمد بسّام ساعي
الواقعية الإسلامية في الأدب والنقد
صفحة (١٤٩ / ١٥٠)

الفَصْلُ الأَوَّل

في واحة الإيمان

الإيمان سبيل الإطمئنان

لما كنت في رحلة المشرق، وامتدت بي تسعة أشهر تباعاً كنت أفكر في بناتي هل عرّاهنّ شيء؟ هل أصابتهنّ مصيبة؟ ثم أقول لنفسي: يا نفس ويحك، هل كنتِ تخافين لو كان معهنّ أخ يحنو عليهنّ أو جدٌّ يحفظهنّ، فكيف تخافين والحافظ هو الله، ولو كنت أنا معهنّ هل أملك لهنّ شيئاً إن قدّر الله الضرّ عليهنّ؟ فلا ألبث أن أشعر بالاطمئنان.

ودهمني مرة همّ مقيم مقعد، وجعلت أفكر في طريق الخلاص، وأضرب الأخماس بالأسداس، ولا أزال مع ذلك مشفقاً مما يأتي به الغد، ثم قلت: ما أجهلني إذ أحسب أني أنا المدبر لأمري وأحمل همّ غدي على ظهري، ومن كان يدبر أمري لـمّا كنت طفلاً رضيعاً ملقى على الأرض كالوسادة لا أعي ولا أنطق ولا أستطيع أن أحمي نفسي من العقرب إن دبّت إليّ، والنار إن شبّت إلى جنبي، أو البعوضة إن طنّت حولي؟ ومن رعاني قبل ذلك جنيناً، وبعد ذلك صبياً؟ أفيتخلّى الله الآن عنّي؟.

ورأيت كأن الهمّ ثقل كان على كتفي وألقي عني، ونمت مطمئناً.

وباب الاطمئنان، والطريق إلى بلوغ حلاوة الإيمان هو الدعاء، ادعُ الله دائماً، واسأله ما جلّ ودقّ من حاجاتك، فإن الدعاء في ذاته عبادة، وليس المدار فيه على اللفظ البليغ، والعبارات الجامعة، وما يدعو به الخطباء على المنابر، يريدون إعجاب الناس بحفظهم وبيانهم، أكثر مما يريدون الإجابة، فإن هؤلاء كمن يتكلم كلاماً طويلاً في الهاتف (التليفون)،

وشريط الهاتف مقطوع، **بل المدار على حضور القلب، واضطرار الداعي، وتحقق الإخلاص**، ورُبّ كلمة عامية خافتة مع الإخلاص والاضطرار أقرب إلى الإجابة من كل الأدعية المأثورة تُلقى من طرف اللسان.

فإن أنت أدمت صحبة الصالحين ومراقبة الله، ولازمت الدعاء وجدتَ ليلة القدر في كل يوم، ولو لم تفد من هذا السلوك إلا راحة النفس، ولذة الروح لكفى، فكيف وأنت واجد مع ذلك سعادة الأخرى، ورضا الله[١].

أثر الإيمان

. . .ملاك الأمر كله ورأسه الإيمان، الإيمان يُشبع الجائع، ويدفئ المقرور، ويغني الفقير، ويسلي المحزون، ويقوّي الضعيف، ويسخّي الشحيح، ويجعل للإنسان من وحشته أُنساً، ومن خيبته نجحاً. . .[٢]

الحقيقة الكبرى

ليس الموت فناء، ولكنه نُقلة إلى عالم أوسع وحياة أطول، كنُقلة الجنين بالولادة إلى هذه الدنيا، وإن بعد الموت لحياة فيها سعادة وفيها شقاء، ولها أفراح ولها مآس، والمجنون من يشك في الحياة الأخرى أو يماري فيها أو يقول ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

وإن حياتنا هذه لا تقوم على الأسس التي أسّسها العقل، ولا على القواعد التي وضعها الدين، إن فيها لظلماً وعدواناً وخروجاً عن سنن الفضيلة، الكذب فيها مَنجاة، والنفاق مَفازة، يُعاقب فيها البريء ويسلم المجرم، فإذا سلّمنا بأن الله عادل، ولايكون الإله إلا عادلاً (والعادل لا يقر في ملكه الظلم) لم يكن بدّ من حياة أخرى، يحق فيها الحق ويدفع فيها الظلم، وإذا قدّسنا العقل والفضيلة امتُنع علينا القول بأنه ليس إلا هذه الحياة

---

(١) فصول إسلامية / ص ١٥٦ ـ ١٥٨.

(٢) ـ صور وخواطر / ص ١٩.

التي يُكفر فيها بالعقل، وتنتهك الفضيلة؛ ومن قال بذلك كان مجنوناً ورذيلاً، إذ ما بعد العقل إلا الجنون، وما بعد الفضيلة إلا ضدها.

ولماذا ينكر الآخرة منكروها؟ ألأنهم ماشعروا بها وما عرفوها؟ ولم يروا إلا هذه الحياة التي تنتهي بالموت؟ إذن يحق للمرء أن ينكر طفولته واستجنانه في بطن أمه لأنه لم يدرك ذلك بعقله!

إن عقله وُلد بعده بعشر سنين فكيف يسلّم بأنه كان قبل أن يحس بنفسه ويعرفها وينكر أنه كائن بعد أن ينقطع هذا الحس؟

هذا إذا كان الحس ينقطع بالموت..

ألا إنما هذه الدنيا فترة من حياتنا الطويلة التي تمتد من وجودنا في أصلاب الآباء إلى ما بعد يوم الجزاء.

وكيف كانت الحياة لتحتمل من غير البوارق الروحية؟ كيف كنا نصبر عليها لولا الصداقة، لولا الحب؟.

هذه هي نعم الحياة، ولكنها تنفد إذا بلغت حدها، وليس في الدنيا إلا متعة واحدة ليس لها حد تقف عنده، هي نعمة الإيمان.

ولن تبقى حضارة تعنى بالمادة وحدها وتنسى الروح، ولن تثمر للناس سعادة، إنما السعيد في هذه الدنيا هو المؤمن، الذي عرف حقيقة الدنيا فلم يعطها من نفسه أكثر مما تستحق، وأدرك غايتها فسعى لها سعيها، فراقب الله وجرى على ما شرع له على ألسنة أنبيائه، فعاش صحيح الجسم سعيداً في بيته، هانئاً في نفسه، مخلصاً لأمّته، عاملاً لدنياه (من غير أن يرتكب محرماً) كأنه يعيش أبداً، عاملاً لآخرته كأنه يموت غداً، **عالماً أن العبادة ليست في المسجد وحده، بل الأرض كلها مسجد، والأعمال النافعة كلها عبادة**، ليس في ديننا الفرار من الحياة واعتزالها في بقعة من الأرض حولها جُدرٌ عالية وأسوار؛ وليس منا قوم لبسوا الصوف وأظهروا شارة الزهد ليأكلوا الدنيا بالدين، ولكن ما عرفنا عليه أسلافنا الأولين الذين زهدوا في الدنيا حقاً، وأهونوا أمرها

وحقروها، وهم سادتها وأساتذتها وفاتحوها[1].

لكي تكتمل الرواية...

الاعتقاد بوجود الحياة الآخرة نتيجة لازمة للاعتقاد بوجود الله، وبيان ذلك أن الإله لا يقر الظلم، ولا يدع الظالم بغير عقاب، ولا يترك المظلوم من غير إنصاف، ونحن نرى أن في هذه الحياة من يعيش ظالماً ويموت ظالماً لم يُعاقَب، ومن يعيش مظلوماً ويموت مظلوماً لم يُنصف، فما معنى هذا؟ وكيف يتم هذا ما دام الله موجوداً، وما دام الله لا يكون إلاّ عادلاً؟ معناه أنه لا بد من (حياة أخرى) يكافأ فيها المحسن ويُعاقَب المسيء، وأن (الرواية) لا تنتهي بانتهاء هذه الدنيا، ولو أنه عُرض (فيلم) في الرائي (التلفزيون)، فقُطع من وسطه وقيل (انتهى)، لما صدّق أحد من المشاهدين أنه انتهى، ولنادوا: ماذا جرى للبطل؟ وأين تتمّة القصة؟ ذلك لأنهم ينتظرون من المؤلف أن يتم القصة، ويسدد حساب أبطالها، هذا والمؤلّف بشر، فكيف يصدق عاقل أن (قصة) الحياة تنتهي بالموت؟ كيف؟، ولم يسدّد بعد الحساب، ولا اكتملت الرواية؟[2].

علم الغيب

قد يقول قائل: إن من أمور الغيب التي استأثر الله بها إنزال الغيث والعلم بما في الأرحام، فكيف تخبر النشرة الجوية عن جو الغد، أصحو أم ماطر؟ ويكشف العلم عما في بطن الحامل: هل هو ذكر أم أنثى؟.

والجواب:

١ ـ إن الذي أنزل القرآن هو الله، وإن الذي خلق الكون وما يقع فيه هو الله، فلا يمكن أن يأتي في القرآن نص صريح قاطع بإنكار أمر قائم مشاهَد ملموس، وإذا وجدنا نصاً يظهر أنه مخالف للواقع ندقّق النظر فيه،

---

(١) فصول إسلامية / ص ٦٦ ـ ٦٨.

(٢) تعريف عام بدين الإسلام / ص ٥٠ ـ ٥١.

فنرى أن المعنى المقصود منه غير ما بدا لنا[١].

٢ ـ النشرة الجوية إنما تخبر عن المطر بعد رؤية أسبابه، وتمام خلقه، وبيان ذلك أن المطر الذي ينزل في سواحل الشام مثلاً، تبيّن (من العلم بسنن الله في الكون) أن سببه الهواء الذي يجيء من البحر الأطلسي، فيمر بمضيق جبل طارق، فيصطدم بكتلة هوائية راكدة، فتشكل السحب من اختلاف درجة حراة الهواء القادم والهواء الراكد، فإذا رأوه علموا استناداً إلى معرفة سنن الله أنه سيتوجه إلى ساحل الشام بعد كذا.

فهو كمن شاهد موزع البريد من نافذته، وقدّر متى يصل إلى داره، فقال لأهله: سيأتي موزع البريد بعد خمس دقائق، وكمن يحمل منظاراً يضعه على عينيه، فيرى السيارة القادمة فيخبر بها قبل ظهورها للعيان، ما علم في الحقيقة الغيب، ولكن رأى الواقع قبل أن يراه غيره.

ومثله من يخبر عن نوع الجنين بعد تشكيله.

وأما إنشاء السحاب، وإنزال المطر في أرض كتب الله عليها الجفاف، ومنعه عن أرض أنزله الله عليها، ومعرفة جنس الجنين وهو لا يزال حويناً منوياً، أو حويناً صادف بويضة فهذا هو المراد من الآية، والله أعلم[٢].

كلنا نموت

هل رأى أحد منكم يوماً جنازة؟ هل تعرفون رجلاً كان إذا مشى رجَّ الأرض، وإن تكلّم ملأ الأسماع، وإن غضب راعَ القلوب، جاءت عليه

---

(١) وهذا، إذا كان النص آية من القرآن، وليس في القرآن آية تدل دلالة قطعية على نفي أمر حكم العقل بوجوده حكماً قطعياً، وأما إذا كان النص حديث آحاد (نقله واحد عن واحد) فإننا نجزم أن الرسول لم يقله، لأن الرسول ـ صلوات الله عليه ـ لا يقول ما يخالف القرآن ولا الواقع المحسوس.

(٢) تعريف عام بدين الإسلام / ١٤٣ ـ ١٤٤.

لحظة فإذا هو جسد بلا روح، وإذا هو لا يدفع عن نفسه ذبابة،ولا يمتنع من جرو كلب؟!!

هل سمعتم بفتاة كانت فتنة القلب وبهجة النظر، تفيض بالجمال والشباب، وتنثر السحر والفتون، تُبذل الأموال في قبلة من شفتيها المطبقتين كزر ورد أحمر، وتراق الكبرياء على ساقيها القائمتين كعمودين من المرمر، جاءت عليها لحظة فإذا هي قد آلت إلى النتن والبلى، ورتع الدود في هذا الجسد الذي كان قِبلةَ عُبّاد الجمال، وأكل ذلك الثغر الذي كانت القُبلة منه تُشترَى بِكنوز الأموال؟!!.

هل قرأتُم في كتب التاريخ عن جبّار كانت ترتجف من خوفه قلوب الأبطال، ويرتاع من هيبته فحول الرجال، لا يجسر أحِد على رفع النظر إليه، أو تأمّل بياض عينيه، قوله إن قال شرع، وأمره إن أمَر قضاء، صار جسده تراباً تطؤه الأقدام، وصار قبره ملعباً للأطفال، أو مثابة لـ (قضاء الحاجات)؟!!.

هل مررتُم على هذه الأماكن، التي فيها النباتات الصغيرة، تقوم عليها شواهد من الحجر، تلك التي يُقال لها المقابر؟!!.

فلماذا لا تصدّقون بعد هذا كله، أن في الدنيا موتاً؟!

لماذا تقرؤون المواعظ، وتسمعون النُّذُر فتظنون أنها لغيركم؟ وترون الجنائز وتمشون فيها فتتحدثون حديث الدنيا، وتفتحون سير الآمال والأماني.. كأنّكم لن تموتوا كما مات هؤلاء الذين تمشون في جنائزهم، وكأن هؤلاء الأموات ما كانوا يوماً أحياء مثلكم، في قلوبهم آمال أكبر من آمالكم، ومطامع أبعد من مطامعكم؟.

لماذا يطغى بسلطانه صاحب السلطان، ويتكبّر ويتجبّر يحسب أنها تدوم له؟ إنها لا تدوم الدنيا لأحد، ولو دامت لأحد قبله ما وصلت إليه. ولقد وطئ ظهر الأرض مَن هُم أشد بطشاً، وأقوى قوةً، وأعظم سلطاناً، فما هي.. حتى واراهُم بطنها، فنسي الناس أسماءهم!.

يغتر بغناه الغني، وبقوته القويّ، وبشبابه الشاب، وبصحته الصحيح، يظن أن ذلك يبقى له.. وهيهات..!

وهل في الوجود شيء لا يدركه الموت؟!.

البناء العظيم يأتي عليه يوم يتخرّب فيه، ويرجع تراباً، والدوحة الباسقة يأتي عليها يوم تيبس فيه، وتعود حطباً، والأسد الكاسر يأتي عليه يوم تأكل فيه من لحمهِ الكلاب، وسيأتي على الدنيا كلها يوم تغدو فيه الجبال هباءً، وتشقق السماء، وتنفجر الكواكب، ويفنى كل شيء إلاّ وجهه.

يوم ينادي المنادي: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾؟

فيجيب المجيب: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾.

❁ ❁ ❁

لقد أمر رسول الله - ﷺ - بالإكثار من ذكر الموت.

فاذكروا الموت لتستعينوا بذكره على مطامع نفوسكم، وقسوة قلوبكم، اذكروه لتكونوا أرقّ قلباً وأكرم يداً، وأقبَل للموعظة، وأدنى إلى الإيمان، اذكروه لتستعدوا له، فإن الدنيا كفندق نزلت فيه، أنت في كل لحظة مدعوّ للسفر، لا تدري متى تُدعى، فإن كنت مستعداً: حقائبك مغلقة وأشياؤك مربوطة لَبَّيْتَ وسِرتَ، وإن كانت ثيابك مفرّقة، وحقائبك مفتوحة، ذهبتَ بلا زاد ولا ثياب، فاستعدوا للموت بالتوبة التي تصفّي حسابكم مع الله، وأداء الحقوق، ودفع المظالم، لتصفّوا حسابكم مع الناس.

ولا تقل أنا شاب... ولا تقل أنا عظيم... ولا تقل أنا غنيّ.

فإن عزرائيل إن جاء بمهمّته لا يعرف شاباً ولا شيخاً، ولا عظيماً ولا حقيراً ولا غنياً ولا فقيراً..

ولا تدري متى يطرق بابك بمهمّته[1]!!.

حكمة القدر

روى ابن الجوزي أن رجلاً أُغمي عليه فحسبوه مات، ونصبوه على السرير، وجاؤوا بالمغسّل ليغسّله، فلما أحس برد الماء تيقّظ ونهض، فارتاع المغسّل وسقط ميتاً.

فلا تسأل ما السر، ولكن جاهِد في سبيل الله، وناضل عن الحق، ولا تخف الموت في جهادك ونضالِك لأن الأجل محدود، فقد تعيش مائة سنة ولو خُضتَ غمرات الموت، فاعمل لدنياك كأنّك تعيش أبداً، واعمل لأخراك كأنّك تموت غداً، فتكون قد ضمنت لنفسك الدنيا والآخرة، وهذه حكمة من حِكم القدر.

فالإيمان بالقدر حياة لأنه يفتح لك في كل ظلمة شعاع ضياء، وفي كل عسرة باب رجاء، ولولا الرجاء لمات المريض من وهمه قبل أن يميته المرض، ولقُتل الجندي في الحرب من خوفه قبل أن يقتله العدو، ولولا الرجاء ما كانت الحياة.

ولو تُركت الأمور لاحتمالات العقل وقوانين المادة لما استطعت أن تتنفس الهواء أو تشرب الماء خشية أن تكون فيه جرثومة داء، ولا ركبت سيارة لاحتمال أن تصطدم، ولا صعدتَ بناء لإمكان أن ينهدم، ولما استولدتَ ولداً لأنه قد يموت، ولا اتّخذتَ خليلاً لأنه قد يخون، ولما اطمأننت على مال لأنه قد يُسرق، ولا دار لأنها قد تُحرق.

والإيمان بالقدر راحة لأنه لو كان الفشل من عملِك وحدك، وكان النجاح من صنع يدك لقطعت نفسك أسفاً إن فشلْتَ، أو سُبِقت..

والإيمان بالقدر عزاء، لأنك إن قُدّر عليك بالمصاب بولد، فاحمد الله ففي الناس من أُصيب بولدين، وإن خسرت ألفاً ففيهم من خسر ألفين.

---

(١) مقالات في كلمات / ص٢٤٠ ـ ٢٤٢.

فهل عرفتم الآن ما حكمة القدَر؟

هي أن نجدّ ونعمل ونسعى، ونبذل الجهد ثم لا نحزن إن فشلنا، ولا نيأس إن لم نصل إلى ما نريد، وأن نكون مع القدر كمن يجتاز طريقاً في السيارات المزدحمات، فإن ذَكَر حوادثها وأخطارها وحدها لم يستطع أن يتقدم خطوة، وإن اعتقد من غروره أنه يستطيع أن يرد عنه السيارة المقبلة، ويدفع الخطر الآتي لم يسلم، ولكن إن انتبه وسار بحذر، فهذا هو العاقل، ثم إن نجا حمد الله أن قدَّر له النجاة، وإن أُصيب ذكر أنه لم يقصّر وإنما هو حكم القدَر[1].

المسجد

إذا كان العرف الدولي على أن بيوت سفراء الدول الأجنبية قِطَع من بلادهم ولو كانت في بلاد الناس، فإن بيوت الله رياض من رياض الجنة، وإن كانت في هذه الدنيا، فمن دخلها كان ضيف الله، وكان جاره، فهي أبواب السماء المفتّحة دائماً، إن سُدّت في وجه البائسين اليائسين أبواب الأرض، وهي منار الهدى إن ضل بالسالكين الطريق، وإن كان في الدنيا الخير والشر، فها هنا الخير الذي لا شرّ معه، وإن كان فيها الحق والباطل، فها هنا الحق الذي لا باطل فيه.

ومن هنا تخرج الكلمة من حلوق المؤذّنين، وأفواه الخطباء والمدرسين فتمشي في الفضاء، من فوق رؤوس الملوك والكبراء، والأغنياء والأقوياء، كلٌّ يخضع لها ويصغي إليها، لأنها كلمة الخالق وإن جاءت على ألسنة ناس من المخلوقين.

هذه قِلاع الإيمان في وجه الإلحاد.

هذه حصون الفضيلة أمام الرذائل والشهوات.

---

(١) صور وخواطر / ١٢٥ ـ ١٢٦.

والمسجد هو المعبد في الإسلام، وهو البرلمان، وهو المدرسة، وهو النادي، وهو المحكمة.

هو (المعبد): يدع المسلمون أحقادهم ومطامعهم وشرورهم وفسادهم على الباب، ويدخلون إليه بقلوب متفتّحة للإيمان، متطلّعة إلى السماء، متحلّية بالخشوع، ثم يقومون صفاً واحداً يستوي فيه الكبير والصغير، والأمير والحقير، والغني والفقير، أقدامهم متراصة، وأكتافهم متزاحمة وجباههم جميعاً على الأرض، يستوون في شرف العبودية، وفي شرعة العبادة.

وهو (البرلمان): ما دهى المسلمين أمر، ولا عرض لهم عارض إلا نوديَ (الصلاة جامعة) فاجتمع الشعب في المسجد، ففي المسجد يكون انتخاب الخليفة، وفيه تكون البيعة، وفيه تُبحث القوانين، تُستمَد من الشرع ثم تُعلن فيه على الناس.

وهو (النادي): إن قدم أمير بلداً، كان أول ما يدخله من البلد المسجد، على منبره يعلن سياسته ويذيع منهاجه، وإن كانت حرب، عُقِدت الرايات في المسجد، وليس في الإسلام حروب هجومية لمجرد الفتح والاستعمار والكسب، بل فيه الحرب الدفاعية فقط، حرب الدفاع عن العقيدة: أن يمنع أحد مسيرها، وعن أصحابها: أن يحول أحد بينهم وبين قيامهم بفرض الدعوة إليها، إنهم مكلّفون بحمل المصباح الذي أُضِيء من غار حراء لينوّروا به الدنيا، ويبدّدوا به الظلام عن أهلها فإذا انبرى لهم من يحاول إطفاء المصباح، ومن يريد منع نور الله أن يصل إلى عباده، حاربوه حتى يفيء ويرجع، فإن فاء ورجع إلى الحق كان واحداً منهم، له ما لهم وعليه ما عليهم، وإن أبى إلاّ عناداً فحارب فغُلب على أمره لم يُكرهوه على الإسلام، ولم يكلّفوه شططاً، ولم يحمّلوه إلاّ ضريبة محدودة، هي تكاليف الدفاع الذي يتولّونه هم وحدهم، ضريبة هي أشبه بـ (البدل العسكري) يدفعه المغلوبون من أموالهم، ويدفع المسلمون الغالبون ضريبة الجهاد من أرواحهم.

والمسجد هو (المدرسة): وفي المساجد وُضعت أسس الثقافة الإسلامية، وفيها ارتفعت ذُراها، وشُيّدت صروحها، وكان يُدرَّس في المسجد كل علم ينفع الناس: من علوم القرآن، وعلوم السُّنة، وعلوم الشريعة، وعلوم اللسان، وعلوم سُنن الله في الأكوان، وكل علم تحتاج إليه الأمة الإسلامية يكون تعلّمه فرض كفاية في نظر الإسلام، حتى الكيمياء والفيزياء والرياضيات، ونجد بعد ذلك من تبلغ به الجهالة أن يَصِف بالجمود ديناً يجعل تعلّم الكيمياء فرضاً كفروض العبادات.

والمسجد هو (المحكمة): وعلى بُسُط المساجد وأمام أعمدتها وأساطينها أُصدرت أعدل الأحكام وأجرؤها، وفيها سُطّرت أروع صفحات القضاء البشري، ولطالما أقام القضاة فيها الجمّال والحمّال مع أمير المؤمنين[١]، والأجير الفقير مع الأمير الكبير[٢]، ثم حكموا له عليه، لا يبالون مع الحق صغيراً ولا كبيراً[٣].

تفسير سورة الناس

... قد أراني الله معنى لسورة الناس، فيه رد على من يقر بوجود الله وبربوبيّته وملكه، ولكنه لا يوحّده توحيد الألوهية، معنى لم أجد من المفسرين من ذكَره وأرجو أن يكون صواباً.

يقول الله عز وجل: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾.

فلماذا كرّر لفظ الناس، وعمد إلى الإظهار بدلاً من الإضمار؟ فلم يقل مثلاً: رب الناس وملكهم وإلههم..؟، الذي ظهر لي: كأن ربنا ـ والله أعلم ـ يقول لهم: (هذه ثلاث قضايا متماثلة متكاملة، كل قضية مستقلة

---

(١) منها دعوى الجمّال على أمير المؤمنين المنصور أمام قاضي مكة.

(٢) ومنها دعوى المرأة على عيسى بن موسى أكبر أمراء البيت العباسي ووالي العراق أمام القاضي شريك.

(٣) الجامع الأموي / ص ٧ ـ ١٠.

نفسها، مع ارتباطها بأختها، فهو: «ربُّ النّاس» أي خالقهم وحافظهم، وهو: «مَلِك النَّاس» أي مالكهم المتصرّف فيهم، وهو: «إلٰه النَّاس» أي المستحق وحده لعبادتهم، ولا يجوز أن يكون له شريك فيها... ومقتضى ذلك أن تصدّقوا بالقضايا الثلاث، أو أن تنكروا القضايا الثلاث، فما بالكم: تصدقون بالأولى والثانية، وترفضون الثالثة؟ كيف تفرّقون بين المتماثلات؟ فتقبلون بعضها وتأبون بعضاً؟ والثلاث سواء في الثبوت، لا سبيل إلى التفريق بينها في الحكم[1].

سبيل الخلاص

إن الله لا يسألنا يوم القيامة عن شيء مما بنى عليه المتكلّمون جدالهم، وأقاموا عليه مختلف مذاهبهم، وملؤوا به كتبهم، ولو كان ذلك من شروط الإيمان لبحث فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فلنتركه كله، فإنه أثر من آثار الفلسفة اليونانية القديمة التي زالت دولتها، وبطلت أكثر نظرياتها ووهت أدلّتها، وحل محلها في مسائل (الميتافيزيك) ما وراء المادة، فلسفة جديدة، لا تقل عنها ضلالاً وتخبّطاً في مهامه الظنون، فلنجعل كتاب الله إمامنا، وليكن عليه اعتمادنا، وما كان فيه من ذكر لأمور مغيّبة لم يعرض إلا إلى جزء منها، آمنا بما ظهر فيه لنا، وفوّضنا ما خفي عنا إلى من أنزله علينا[2].

حدود الخيال

لقد كان في قريش عقلاء، وكان فيهم أولو نُهى، ولكن لما قال لهم رسول الله ﷺ: أنه ذهب إلى القدس ورجع من ليلته لم يستطع أكثرهم أن يصدق، وكاد يتزعزع إيمان بعض من قد آمن، ولو أنت قلت اليوم لأقل الناس علماً وأكثرهم جهلاً: لقد ذهبت أمس من جدة إلى عمان ورجعت،

---

(١) تعريف عام بدين الإسلام / ص ٦٢ ـ ٦٣.

(٢) تعريف عام بدين الإسلام / ص ٨١.

لما عجب ولما رأى في ذلك شيئاً يتعجب منه[١].

طريق الجنة وطريق النار

إذا كنت مسافراً وحدك فرأيت أمامك مفرق طريقين: طريقاً صعباً صاعداً في الجبل، وطريقاً سهلاً منحدراً إلى السهل، الأول فيه وعورة وحجارة منثورة، وأشواك وحفر، يصعب تسلّقه، ويتعسّر السير فيه، ولكن أمامه لوحة نصبتها الحكومة فيها: إن هذا الطريق على وعورة أوله وصعوبة سلوكه، هو الطريق الصحيح، الذي يوصل إلى المدينة الكبيرة والغاية المقصودة، والثاني معبّد تظلّله الأشجار ذوات الأزهار والثمار، وعلى جانبيه المقاهي[٢] والملاهي فيها كل ما يلذّ القلب، ويسر العين، ويشنّف[٣] الأذن، ولكن عليه لوحة فيها: إنه طريق خطر مهلك، آخره هوّة فيها الموت المحقق، والهلاك الأكيد.

فأي الطريقين تسلك؟.

لا شك أن النفس تميل إلى السهل دون الصعب، واللذيذ دون المؤلم، وتحب الانطلاق وتكره القيود، هذه فطرة فطرها الله عليها، ولو ترك الإنسان نفسه وهواها، وانقاد لها، سلك الطريق الثاني، ولكن العقل يتدخل، يوازن بين اللذة القصيرة الحاضرة يعقبها ألم طويل، والألم العارض المؤقت تكون بعده لذة باقية، فيؤثِر الأول. هذا هو مثال طريق الجنة وطريق النار[٤].

(١) في سبيل الإصلاح / ص ١٠.
(٢) أقهى : داوم على شرب القهوة.
(٣) الشنف : القرط (الحلق) والتعبير هنا على المجاز.
(٤) تعريف عام بدين الإسلام / ص ١٣ ـ ١٤.

الفَصْل الثّانِي

صفحات إسلامية

نحن المسلمين!

سلوا عنا ديار الشام ورياضها، والعراق وسوادها، والأندلس وأرباضها، سلوا مصر ووواديها، سلوا الجزيرة وفيافيها، سلوا الدنيا ومن فيها..

سلوا بطاح إفريقية، وربوع العجم، وسفوح القفقاس، سلوا حفافي الكنج، وضفاف اللوار، ووادي الدانوب، سلوا عنا كل أرض في «الأرض».

وكل حيّ تحت السماء..

إن عندهم جميعاً خبراً من بطولاتنا وتضحياتنا ومآثرنا ومفاخرنا وعلومنا وفنوننا.. نحن المسلمين!!.

❁ ❁ ❁

نحن المسلمين!

هل روى رياض المجد إلاّ دماؤنا؟ هل زانت جنات البطولة إلاّ أجساد شهدائنا؟ هل عرفت الدنيا أنبل منا أو أكرم، أو أرأف أو أرحم، أو أجَلّ أو أعظم، أو أرقى أو أعلم؟

نحن حملنا المنار الهادي والأرض تتيه في ليل الجهل، وقلنا لأهلها: هذا الطريق!.

نحن نصبنا موازين العدل يوم رَفعت كل أمّة عصا الطغيان.

نحن بنينا للعلم داراً يأوي إليها حين شرّده الناس عن داره.

نحن أعلنّا المساواة يوم كان البشر يعبدون ملوكهم ويؤلّهون ساداتهم.

نحن أحيينا القلوب بالإيمان، والعقول بالعلم، والناس كلهم بالحرية والحضارة.

نحن المسلمين!.

❁ ❁ ❁

نحن بنينا الكوفة، والبصرة، والقاهرة، وبغداد.

نحن أنشأنا حضارة الشام، والعراق، ومصر، والأندلس.

نحن شِدنا بيت الحكمة، والمدرسة النظامية، وجامعة قرطبة، والجامع الأزهر.

نحن عمرنا الأموي، وقبّة الصخرة، وسُرَّ مَن رأى، والزهراء، والحمراء، ومسجد السلطان أحمد، وتاج محل.

نحن علّمنا أهل الأرض، وكنا الأساتذة وكانوا التلاميذ.

نحن المسلمين!.

❁ ❁ ❁

منا أبو بكر، وعمر، ونور الدين، وصلاح الدين، وأورنك زيب.

منا خالد، وطارق، وقتيبة، وابن القاسم، والملك الظاهر.

منّا البخاري، والطبري، وابن تيمية، وابن القيم، وابن حزم، وابن خلدون.

منا الغزالي، وابن رشد، وابن سينا، والرازيّ.

منا الخليل، والجاحظ، وأبو حيّان... منّا أبو تمّام، والمتنبّي، والمعرّي..

منا معبد وإسحاق وزرياب.. منا كل خليفة كان الصورة الحيّة للمثُل البشرية العليا.

وكل قائد كان سيفاً من سيوف الله مسلولاً.. وكل عالِم كان من البشر كالعقل من الجسد.

منا مائة ألف عظيم وعظيم.

نحن المسلمين!.

❁ ❁ ❁

قوتنا بإيماننا، وعزنا بديننا، وثقتنا بربّنا..

قانوننا قرآننا، وإمامنا نبيّنا، وأميرنا خادمنا..

وضعيفنا المحقّ قويٌّ فينا، وقويّنا عون لضعيفنا.

وكلنا إخوان في الله، سواءٌ أمام الدين..

نحن المسلمين! .

نحن المسلمين!

ملَكْنا فعَدلْنَا، وبنينا فأعلينا، وفتحنا فأوغلنا، وكنا الأقوياء المنصفين، سَنَنَّا في الحرب شرائع الرأفة، وشرعنا في السلم سنن العدل، فكنا خير الحاكمين، وسادة الفاتحين..

أقمنا حضارة كانت خيراً كلها وبركات، حضارة روح وجسد، وفضيلة وسعادة، فعمّ نفعها الناس، وتفيّأ ظلالها أهل الأرض جميعاً، وسقيناها «نحن» من دمائنا، وشدناها على جماجم شهدائنا!.

وهل خلت الأرض من شهيد لنا قضى في سبيل الإسلام والسلام، والإيمان والأمان؟.

نحن المسلمين!

هل تحققت المثُل البشرية العليا إلاّ فينا؟.

هل عرف الكون مجمعاً بشرياً (إلا مجمعنا) قام على الأخلاق والصدق والإيثار؟.

هل اتفق واقع الحياة وأحلام الفلاسفة وآمال المصلحين، إلاّ في صدر الإسلام؟.

يوم كان الجريح المسلم يجود بروحه في المعركة يشتهي شربة من ماء فإذا أخذ الكأس رأى جريحاً آخر فآثره على نفسه ومات عطشان.

يوم كانت المرأة المسلمة يموت زوجها وأخوها وأبوها فإذا أُخبرت بهم سألت: ما فعل رسول الله؟ فإذا قيل لها: هو حيّ، قالت: كل مصيبة بعده هيّنة.

يوم كانت العجوز تردّ على عمر وهو على المنبر في الموقف الرسمي وعمر يحكم إحدى عشرة حكومة من حكومات اليوم.

يوم كان الواحد منا يحب لأخيه ما يحب لنفسه ويؤثره عليها ولو كان به خصاصة.

وكنا أطهاراً في أجسادنا وأرواحنا ومادتنا والمعنى.

وكنا لا نأتي أمراً ولا ندعه ولا نقوم ولا نقعد ولا نذهب ولا نجيء إلاّ لله.

قد أَمَتْنَا الشهوات من نفوسنا فكان هوانا تبعاً لما جاء به القرآن.

لقد كنا خلاصة البشر وصفوة الإنسانية.

وجعلنا حقاً واقعاً ما كان يراه الفلاسفة والمصلحون أملاً بعيداً.

نحن المسلمين!..

تنظم في مفاخرنا مائة ألياذة وألف شاهنامه.

ثم لا تنقضي أمجادنا ولا تفنى، لأنها لا تُعدّ ولا تُحصى.

من يعدّ معاركنا المظفّرة التي خضناها؟.. مَن يحصي مآثرنا في العلم والفن؟.

مَن يستقري نابغينا وأبطالنا؟.. إلاّ الذي يعدّ نجوم السماء، ويحصي حصى البطحاء.

اكتبوا (على هامش السيرة) ألف كتاب.. و (على هامش التاريخ) مثلها.

وأنشئوا مائة في سيرة كل عظيم، ثم تبقى السيرة ويبقى التاريخ كالأرض العذراء والمنجم المبكر.

نحن المسلمين!.

لسنا أمة كالأمم تربط بينها اللغة ففي كل أمّة خيّر وشرير.

ولسنا شعباً كالشعوب يؤلّف بينهم الدم ففي كل شعب صالح وطالح، ولكننا جمعية خيرية كبرى أعضاؤها كل فاضل من كل أمة، تقيّ نقيّ.. تجمع بيننا التقوى إن مصل الدم وتوحّد بيننا العقيدة إن اختلفت اللغات، وتُدنينا الكعبة إن تناءت بنا الديار..

أليس في توجّهنا كل يوم خمس مرات إلى هذه الكعبة، واجتماعنا كل عام مرة في عرفات رمزاً إلى أن الإسلام قومية جامعة، مركزها الحجاز العربية وإمامها النبي العربي وكتابها القرآن العربيّ؟.

❀ ❀ ❀

نحن المسلمين!

ديننا الفضيلة الظاهرة، والحق الأبلج.. لا حجب ولا أستار، ولا خفايا ولا أسرار.

هو واضح وضوح المئذنة، أفليس فيها ذلك المعنى؟.

هل في الدنيا جماعة أو نِحلة تكرر مبادئها وتُذاع عشر مرات كل يوم كما تُذاع مبادئ ديننا نحن المسلمين على ألسنة المؤذنين: أشهد ألاّ إله إلاّ الله وأشهد أن محمداً رسول الله.

* * *

نحن المسلمين!

لا نهن ولا نحزن ومعنا الله.. ونحن نسمع كل يوم ثلاثين مرة هذا النداء العلوي المقدس، هذا النشيد القويّ: الله أكبر..

البطولة سجيّة فينا، وحب التضحية يجري في عروقنا.. لا تنال من ذلك صروف الدهر، ولا تمحوه من نفوسنا أحداث الزمان..

لنا الجزيرة التي يشوى على رمالها كل طاغٍ يطأ ثراها ويعيش أهلها من جحيمها في جنات.

لنا الشام وغوطتها التي سُقيت بالدم، لنا فيها الجبل الأشمّ.. لنا العراق لنا (الرميثة) وسهول الفرات.. لنا فلسطين التي فيها جبل النار.

لنا مصر دار العلم والفن ومثابة الإسلام..

لنا المغرب كله، لنا (الريف) دار البطولات والتضحيات.

لنا القسطنطينية ذات المآذن والقِباب، لنا فارس والأفغان والهند وجاوة.

لنا كل أرض يُتلى فيها القرآن وتصدح مناراتها بالأذان.

لنا المستقبل.. المستقبل لنا إن عُدنا إلى ديننا[١].

نحن المسلمين!.

(١) ـ قصص من التاريخ / ص١٧ ـ ٢٣.

الإسلام أعجوبة الدهر الباقية

الإسلام أعجوبة الدهر الباقية... معجزة كل عصر، فيا أيها الأغبياء الذين يجرؤون على قياس الإسلام بنزوات هتلر وخيالات لينين، وحماقات كل متسلط على العقول أو البلدان، يحسب لجهله أنه يشرع ديناً ويضع شريعة، إنكم لفي ضلال مبين، أين دين الهتلرية؟ لقد ذهبت به هزيمة واحدة، وهزيمة مثلها تذهب بباقي الحماقات التي حسبتموها أدياناً!

أما الإسلام: فهو في ذاته قوة لا يحتاج إلى قوة أتباعه ليؤيدوه بها، بل هو الذي يؤيدهم بقوته فيُنصرون، ولقد تأخر المسلمون ورجع بهم الزمان القهقري، ولكن الإسلام نفذ من الحجب ولبث يتقدم، إن المبشرين ينفقون كل سنة القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، ثم لا يأخذون واحداً، حتى يأخذ الإسلام بغير مال ولا عمل تسعة وتسعين...

الإسلام ينتشر اليوم بنفسه في أرقى ممالك أوربة، وفي أحط بقاع أفريقيا، والمبشرون لم يستطيعوا أن يُدخِلوا في النصرانية (مسلماً) واحداً، إنهم يجمعون الجهلة من المغاربة الذين لا يعرفون ما الإسلام، فيطعمونهم ويطمّعونهم، ثم يلقون عليهم عجائب المسيح، فإذا وصلوا إلى موضع المعجزة، صاحوا كلهم بلسان واحد متعجّبين: الله أكبر، لا إله إلا الله!!

وينزل المبشر على القبيلة في أواسط إفريقية فيعطي ويرغب، ويبقى سنة كاملة فلا يستجيب له منها إلا النفر المعدودون، ثم يأتي التاجر المسلم الجاهل فينام عندهم ويأكل طعامهم، فلا يأتي الشهر حتى تكون القبيلة كلها قائمة وراءه تصلي على دين (محمد)... والمبشرون ينظرون!!

أفتشكّون بعد هذا أن الإسلام قوة هائلة للمسلمين؟

هل عرفتم الصواعق المنقضة؟ هل رأيتم الصخور المنحطة من أعالي الجبال؟ والسيول الجارفة، والبركان الهائج؟ و.... وكل ما في الكون من قوة؟ إنها لن تصد غضبة المسلم إذا كانت لله ولمحارمه ولدينه! هل فيها

أشد من الموت؟ فهل يخيف الموت رجلاً خرج يطلب الموت؟![1]

هكذا صنع الإسلام

إن البخار الذي من طبعه الانطلاق إلى العلاء لا يحصر في زجاجة، وإن حصرته وجد منفذاً أو مزّق الإناء، وكذلك صنع الإسلام[2].

الإسلام ليس كغيره من الأديان.

...نحن نقر بهذه المبادئ الغربية التي تقول بفصل الدين عن العلم، والدين عن السياسة، إنها صحيحة بلا شك، بشرط أن تفهم معناها عند من وضعوها.

إن الغربيّين الذين وضعوا هذه المبادئ يقصدون بالدين ما يحدد صلة الإنسان بالله، ومن هنا قالوا (الدين لله والوطن للجميع)، ونحن نقول مقالتهم ونفصل بين الصلاة والصيام، وبين السياسة والعلم، ولكن الإسلام ليس ديناً فقط يحدد صلة الإنسان بالله، بل هو دين وتشريع وقانون دولي، وهو يحدد صلة الأفراد بعضهم ببعض، وصلة الأفراد بالدولة، وصلة الدولة بالدول الأخرى، ويرسم طريق الأخلاق والسلوك، فالإسلام إذن ليس ديناً لتُطبق عليه هذه القواعد بل هو نظام كامل للحياة لا يشابهه في هذا دين من الأديان التي يتبعها البشر[3].

الإسلام الصحيح

حدّثني طبيب كبير، كان قديماً في الحجاز، أنه دُعي يوماً إلى إسعاف جريح ينزف دمه، وخبر بالهاتف أن الخطر قريب، والنزيف شديد، وأنه لا يدري أيلحقه حياً أم يسبقه الموت، فأعدّ عدته وأسرع إليه، وكان عليه أن يسلك الحرم اختصاراً للطريق واغتناماً للوقت، فلما كاد يخرج أذّن المؤذّن،

---

(١) ـ هتاف المجد / ص ٣٩ ـ ٤.
(٢) ـ رجال من التاريخ / ص ١٤ ـ ١٥.
(٣) ـ فصول إسلامية / ص ٢٦٢.

فاعترضه واحد من جهلة المتعبّدين، فقال له بلهجة منكرة: إلى أين تخرج وقد أذّن المؤذّن والخروج من المسجد بلا صلاة مكروه لِمَن سمع الأذان؟.

قال له: وما شأنك أنت؟.

فانضم إليه آخرون يقولون: أتقول لمن أمَرك بالمعروف (ما شأنك) ارجع فصلِّ.

فقال: يا ناس أنا طبيب ذاهب لإسعاف رجل مشرف على الموت ولعل هذه الدقائق تسبب موته.

قالوا: الخروج من المسجد بلا صلاة مكروه.

فلم يسمعوا منه وتكاثروا عليه، حتّى ردّوه إلى المسجد..

فجعلت أفكر في عمل هؤلاء الجاهلين، الذين يتكلّمون باسم الدين من غير علم ولا فهم، وبغير ذوق ولا لطف، وفي أمثالهم ممن يحاول الدعوة إلى الله بالغلظة والفظاظة، فأراهم علّة ما نشكو منه من انصراف الناس عن الدين، وجهلهم به، وأرى فيهم تحقيق كلمة الشيخ محمد عبده التي تكاد تكون من جوامع الكلم:

(الإسلام محجوب بأهله) يسترونه عن الناظرين إليه، ويمنعونهم أن يروا يسره ومرونته، وصلاحه لكل زمان وكل مكان.

.. وأكاد أعذر الشباب إن لم يعرفوا الدين، ما داموا لا يجدون كتاباً مختصراً سهلاً يعرّفهم بالإسلام السهل البسيط[1]، الذي كان الأعرابي يفد على الرسول ـ ﷺ ـ فيتعلّمه منه في أيام، ويعود إلى قومه مرشداً هادياً، ويصير فيهم إماماً، ولا يجدون من العلماء من يقترب منهم، ويقرب الإسلام إلى أذهانهم، ويعرفهم به بلسانهم، وما داموا يجدون من غلاظة بعض أدعياء العلم، وجهلهم مثل ما وجد هذا الطبيب، مع أن الإسلام يوجب إنقاذ رجل

---

(١) أفضل كتاب في هذا الباب «موعظة المؤمنين للقاسمي» وأفضل منه «مختصر منهاج القاصدين».

مشرف على الموت، ولو بترك الفريضة، كما يجوز إنقاذ الحياة بأكل الميتة، ودفع الغصّة بشرب الخمر، ولا يوجب على أحد أن يكره أحداً على الصلاة في أول الوقت إكراهاً، ما دام في الوقت فسحة..

وفي الذي ينكره الشباب من بعض المشايخ والمتمشيخين أشياء كثيرة ينسبونها إلى الإسلام، والإسلام لا يقرّها.

فلماذا يسكت العلماء حتى يتكلم هؤلاء الأدعياء، ولماذا لا يؤلفون الكتب للشباب ويلقون المحاضرات في مجامع الشباب، تعريفاً بالإسلام وتبياناً لحقائقه؟ وما لبعض الخطباء يتكلّمون كل جمعة في موضوعات ميتة بلهجة باردة، كلاماً يهرب منه المصلّون، فلا يأتون حتى تنتهي الخطبة، أو ينامون عند سماعه، مع أن خطبة الجمعة لو أحكم أمرها، وجاءت على وجهها لحققت انقلاباً في الأخلاق والعادات في ثلاثة أشهر، وما لبعض المدرسين يأخذون الرواتب من أموال الأمّة، ولا يدرسون، ولا يراهم أحد إلاّ عند قبض الراتب؟ وما لهم يسعون الآن سغي مَن لا يكلّ ولا يملّ، لتعديل ملاكهم وزيادة رواتبهم، ولا يفكرون أن يقوموا قبل ذلك بما يوجبه الشرع والقانون عليهم؟ وكيف يستحلّون أن يأخذوا راتباً بلا عمل؟ وما لدائرة الإفتاء ومديرية الأوقاف لا تلاحقانهم وتعاقبان المهمل منهم؟ إن هؤلاء المدرسين لو نظموا دروسهم وأحسنوا إلقاءها لا في المساجد العامة فقط، بل في النوادي والجماعات، بل وفي القهوات ـ ولِمَ لا يكون الوعظ في القهوات؟ وما دام الناس لا يلحقون الشيخ إلى الجامع، فيلحقهم هو إلى القهوة، لو فعلوا ذلك لأنشؤوا أمّةً جديدة في خلائقها وعاداتها في بضع سنين[١]..

المسلمون

نحن سلائل الفاتحين، في عروقنا دماؤهم، وفي صدورنا قلوبهم، ولنا عزّتهم، ولئن فقدنا السلاح فما فقدنا العقل الذي يصنعه، ولا اليد التي

---

(١) ـ مقالات في كلمات / ص ٢٣٨ ـ ٢٣٩.

تشحذُه[1]، على أنه إذا أعوزنا السلاح أخذناه من يد عدوّنا وجالدناهم به، وكذلك فعلنا[2].

تدبروا القرآن

لقد سمعت مرة قارئاً يتلو في قوله تعالى ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾﴾ هذا الكلام الذي ترتجف له القلوب من الخوف ومن شدة الوعيد، كان يقرأه القارىء بنغمة السيكا، وهي نغمة مرقصة وهم يتمايلون طرباً كأنهم لا يفكرون بمعنى ما يسمعون.

أفهؤلاء ممن يتدبر القرآن؟ هل فهم هؤلاء ما يقرأ القارئ ويسمعون؟ وإنك لتجد في رمضان في بيت الله الحرام خمسين ألف بأيديهم المصاحف يقرؤون القرآن، ولكنك لا تجد خمسين منهم يفهمون أو يفكرون في أن يفهموا معاني ما يقرؤون، فلو أن رجلاً أخذ الجريدة فقرأها من العنوان إلى آخر ما نُشر فيها من إعلان، ثم سألته عن الأخبار التي كُتبت بالعناوين الكبار، فقال لك: إني لا أدري؟

هل تراه قد قرأ؟ وهل القراءة أن نحرك الألسنة بالحروف أو أن نفهم المعاني التي تحملها الحروف؟.

على أني لا أنكر أن لقارئ القرآن أجراً على كل حال، له على كل حرف يقرؤه أجر، ولكن الله يقول: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾﴾ فمتى نكسر هذه الأقفال حتى نفهم ما يُقال[3]؟.

حالنا مع القرآن

. . .ودخل [الشيطان][4] علينا من باب صرفنا عن تدبر آياته، وتفهّم

---

(١) تشحذه : تسنّه وتحدّه، لا تشحده.

(٢) ـ هتاف المجد / ص ١٢٤.

(٣) ـ ذكريات الشيخ علي الطنطاوي / ص ١٩٦.

(٤) ما بين القوسين إضافة وضعتها لدلالة كلام الشيخ السابق لهذه الجملة [إبراهيم مضواح].

معانيه، والعمل بأوامره ونواهيه، إلى تصريف الصوت في تلاوته بالأنغام، وطرب الناس لسماع الصوت بدل الخشوع عند فهم المعاني، وكان معنى كلمة (القرّاء) حين نقرؤها في حروب الرّدّة مثلاً، وذكر من استشهد منهم في معركة ـ اليمامة ـ كان معناها الذي يقرأ القرآن متدبراً واعياً، عاملاً بما قرأ معلّماً إياه من لا يعلم، فصار معناها البصير بالألحان والمقامات، الخبير بالمحطات والتصرف بالنغمات، وصار السامعون يتصايحون من الطرب كأنهم يسمعون مغنّياً في ملهى، لا يزيد إيمانهم بتلاوة القرآن، كما خبّر الله عن أهل الإيمان، وصرنا نفتتح به ونختتم به الإذاعات والحفلات، ويكون بين تلاوة الافتتاح وتلاوة الختام ما لا يرضي الله من المخالفات والذنوب والآثام[١].

لا تفقدوا عزتكم

يا أيها القرّاء! إني ما جئت أصب في أعصابكم قوة ليست فيها، ولكن جئت أثير القوة التي نامت في أعصابكم.

وما جئت لأجعلكم خيراً مما أنتم عليه، ولكن جئت لأفهمكم أنكم خير مما أنتم عليه، جئت أضرم جمرة الحماسة التي غطاها في نفوسكم رماد الكسل، فأعينوني على أنفسكم باستعادة الثقة بها، وبسلائق العروبة التي ورثتها، وبعزة الإسلام التي كانت لها واعلموا أنكم إن فقدتم عزّتكم، وأضعتم سلائقكم لم تكونوا جديرين بمحمد ﷺ، ولم يكن لكم الحق في الاحتفال بمولد محمد ﷺ!.

يا سادة إن الأمم كالأفراد، ألا يكون الرجل منكم رائحاً من عمله، خائر الجسم وانِي العزم، كل أمانيه أن يصل إلى الدار فيلقي بنفسه على أول مقعد يلقاه، قبل أن يستنفد الجهد قواه، فيجد في الدار بشارة بأنه رُفِع درجة، أو نال جائزة، أو هبط عليه إرث ضخم من قريب منسي، فيحس

---

(١) ـ في سبيل الإصلاح / ص ١١ ـ ١٢.

أنه انتفض كما ينشط الجمل، أُطلق من عقال؟[١].

يا أيها العرب

يا أيها العرب جميعاً.. هل تدرون ما هو أعظم خطب يمكن أن ينزل بنا، وما هي أدهى مصيبة يُخشى أن تصيبنا؟ لا، ليست الاستعمار الأجنبي، فسنجاهد حتى لا يبقى في ديار العروبة ومنازل الإسلام غاصب أجنبي، وليست مشكلة إسرائيل، فسنحارب حتى نسلم (إسرائيل) إلى عزرائيل، ولكن المصيبة أن نكفر بأنفسنا، وأن نجهل أقدارنا، وأن لا نعرف فوق الأرض مكاننا وأن نحسب أننا خُلقنا لنكون أبداً أضعف من الغربيّين، وأجهل منهم، وأن ننسى أن أجدادنا لما خرجوا يفتحون الدنيا، ما كانوا أقوى منا على عدونا، وأنهم أقدموا بسيوف ملفوفة بالخرق على عدو كان أكثر عدداً وأقوى عُدداً وأضخم عمراناً، وأكثر علماً ومالاً، فظفروا به، وانتصروا عليه، وأن الأيام دُول، والدهر دولاب يهبط العالي ويعلو الذي هبط، ويذل العزيز، ويعز الذي ذل، وإن دار علينا الدهر حيناً فافترقنا وتباعدنا، ولفّنا بعد إشراق النهار ليل مظلم أغمضنا فيه عيوننا، وأغمدنا فيه سيوفنا فلم نبصر اللص يدخل علينا، ولم ننهض إليه لنردّه عنا، وحسبنا لطول الليل أن لا صباح له، فقد طلع الآن الصباح، وانقضى الليل، وهبَّ النائمون يمشون إلى الأمام...

❁ ❁ ❁

لسنا اليوم كما كنا من خمسين سنة، كنا نخاف أوربة لأننا نجهل ما عندها، وكنا نخشاها لأننا ما عرفناها، أما اليوم فقد هُتِك الستار، وكشفت الأسرار، وعرفنا أن هذه المدنية مدنية الظُّفر والناب وأنها حضارة الذئاب[٢].

---

(١) ـ هتاف المجد / ص ٨٦.

(٢) هتاف المجد / ص ٧٦ ـ ٧٧.

خطبة

يا من أمرهم دينهم بالجهاد حتى يفتحوا العالم، ويهدوا البشر إلى دينهم، فقعدوا حتى فتح العدو بلادهم، وفتنهم عن دينهم!.

يا من حكم أجدادهم بالحق أقطار الأرض، وحُكِموا هم بالباطل في ديارهم وأوطانهم!.

يا من باع أجدادُهم نفوسَهم من الله بأن لهم الجنة، وباعوا هم الجنة بأطماع نفوس صغيرة، ولذائذ حياة ذليلة!!.

يا أيها الناس!

ما لكم نسيتُم دينكم، وتركتُم عزّتكم، وقعدتُم عن نصر الله فلم ينصركم، وحسبتُم أن العزة للمشرك، وقد جعل الله العزة لله ولرسوله وللمؤمنين؟!.

يا ويحكم! أما يؤلمكم ويشجي نفوسكم مرأى عدو الله وعدوكم يخطر على أرضكم التي سقاها بالدماء آباؤكم، يذلّكم ويتعبّدكم، وأنتم كنتم سادة الدنيا؟!.

أما يهز قلوبكم، وينمي حماستكم، أن إخواناً لكم قد أحاط بهم العدو، وسامهم ألوان الخسف؟!.

أما في البلد عربيّ؟ أمَا في البلد مسلم؟ أما في البلد إنسان؟.

العربي ينصر العربي!، والمسلم يعين المسلم!، والإنسان يرحم الإنسان...

فمن لم يهبّ لنصرة فلسطين لا يكون عربياً ولا مسلماً ولا إنساناً!..

❁ ❁ ❁

أفتأكلون وتشربون وتنعمون، وإخوانكم هناك يتسربلون باللهب، ويخوضون النار، وينامون على الجمر؟.

يا أيها الناس، إنها قد دارت رحى الحرب، ونادى منادي الجهاد، وتفتحت أبواب السماء، فإن لم تكونوا من فرسان الحرب فافسحوا الطريق للنساء يدرن رحاها، واذهبوا فخذوا المجامر والمكاحل! يا نساء بعمائم ولحى!.[1].

يا للعار

[نُشِرت سنة ١٩٣٦م، وأنا أثبتها هنا للذكرى والاعتبار،
وهي واحدة من عشرات من المقالات،
نُشرت (لي ولغيري) في تلك الأيام].

أنتم أيها الناس! تأكلون وتشربون، وتنامون على الفُرش الوثيرة، وتُصغون إلى أصوات المذياع، وتتمدّدون على مقاعد المقاهي، وكراسي السينيمات، وإخوانكم هناك يخوضون في الدم؟

يا للعار!!

إني لأكتب هذه الكلمة وأنا أبكي!، ولقد مرّت عليَّ أيام شِداد، ومصائب جسام، فما بكيت ولا ترقرقت في مقلتي دمعة، ولكني (أقسم بالله العظيم) أبكي الآن من أعماق قلبي..

أتدرون لماذا؟

كنت قاعداً، أشرب شاييَ، وأشتغل بكتابي الذي أؤلّفه، فما سمعت إلاّ ضجة في الدار، وكلاماً لم أتبيّنه، ولهجة لم آلفها فسألت، فإذا في الدار امرأة من فلسطين شريفة غنية من أسرة كبيرة كشفت ملاءة عليها بالية، فإذا ليس تحتها شيء وإذا هي عارية ليس على جسمها إلاّ سراويل وإذا هي قد قصفها الجوع. وانطلقت تصف، ما جرى عليها، منذ قتلوا زوجها وأخاها وطفلها، إلى أن نجت بالباقين وهي عارية من المال والثياب، إلى أن وصلت إلى محطة الشام، فتركت أطفالها فيها تحت حرارة الشمس،

(١) ـ قصص من التاريخ / ص ١٩٩ـ ٢٠١.

ومشت على غير هدى حتى وجدت هذا الباب فولجته.... انطلقت تحكي، وأهل الدار يبكون حتى كادت تصير الدار كأنها مناحة، ثم وضعوا بين يديها كل ما يقدرون عليه.

ثم ذهبت!!

لا أدري إلى أين!؟.. ولا أدري ماذا تصنع غداً والذي بعده؟ ولا أعلم من معها وماذا جرى لغيرها؟ فهل في الناس من يعلم ويدري؟ هل في الناس من يحب أن يعلم؟.

هل في البلد مسلم؟ هل في البلد عربي؟ هل في البلد شريف؟ هل في البلد إنسان؟

المسلم لا يترك أخاه المسلم، والعربي لا يدع العربي، والشريف لا يمتنع عن المعروف، والإنسان يرحم الإنسان!

يا أيها الناس.. ماذا بالله؟ ألا تفهمون الكلام؟ أم لا تصدقون؟ أم لا تشعرون؟ أماتت من قلوبكم أخوة الدين، ورابطة اللغة، وصلة الجنس ورأفة الإنسانية؟

إن في المحطة ـ وفي غير المحطة وحيث لا أدري ـ نساء عاريات جائعات وأطفالاً عراة جياعاً، خرجوا من ديارهم وطُرِدوا من بيوتهم وأصبحوا متشردين ضائعين، يتوسّدون التراب، ويلتحفون السماء، وأنتم تنامون على القطن والصوف والريش، وتأكلون الحلو والحامض، وتضحكون وتطربون، وتدَّعُون أنكم عرب مسلمون؟.

يا للعار!!

أنسيتم أيام الثورة السورية، يوم كانت الأسرة التي تملك الألوف تخرج بين ليلة وضحاها، صفراً ليس معها شيء؟ ويذهب المال والمنزل والثياب؟

هذه كَتِلك!

يا أيها الناس، لا أقول لكم اذهبوا فحاربوا، ولا أقول لكم تظاهروا وصيّحوا وعطّلوا المفاوضات، ولكن أقول ساعدوا إخوانكم في الجنسية، في الدين، في الإنسانية! تداركوا الجياع قبل أن يموتوا جوعاً، إلحَقوا العراة قبل أن يهلكوا برداً...

لا يقل واحد منكم: أنا لا يعنيني! كل واحد منكم مسؤول، كل واحد بحسب طاقته، الشحاد يستطيع أن يساعد فلسطين بقرش في الشهر.

قرش في الشهر، (وفرنك) في الشهر، وورقة في الشهر، وخمس أوراق في الشهر تحيي فلسطين!

سيبكي بعض القرّاء وينتحب ثم ينام ولا يدفع شيئاً.

سيهزّ بعض الموظفين أكتافه ويقول: أنا لا أشتغل بالسياسة، ثم يذهب إلى السينما، أو البار، أو دار القمار.

سيفرك الشيخ كفه ويقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، ثم يذهب يعد قروشه على سبحته.

سيُلوِّح التاجر بيديه ويقول: التجارة واقفة، ماذا نصنع، ثم يذهب إلى السوق ليشتري بسبعين قرشاً طعام يوم واحد.

لا، يا سادة! لا البكاء ينفعنا ولا الحوقلة...

لا، إن هذه ليست سياسة، ولكنها واجب وطني ديني إنساني.

لا، إن أصغر تاجر يستطيع أن يساعد فلسطين.

يا أيها الناس! إن المئات من النساء يدُرْنَ في الطرقات، جائعات عاريات... في مدن فلسطين وفي أراضي الشام.

إن المرأة التي ذهبت الآن من دارنا مثال من هؤلاء النساء.

فمن يتطوّع للبحث عنهنّ ومساعدتهنَّ؟ من يتقدم فيستأجر لهنّ الدور، ويجمع من الناس فينفق عليهنَّ؟

أتذهب هذه الكلمة صيحة في وادٍ؟

ألم يبقَ في البلد مسلم؟ ألم يبقَ عربي؟ ألم يبقَ شريف؟ ألم يبقَ إنسان؟

أتُعاد مأساة أندلس جديدة، وأنتم تنظرون؟.

ألم يكفِ هذا الموقف المخجل الذي وقفه ملوك العرب؟ أتكون الشعوب العربية أيضاً مقصرة؟

مائة وعشرة أيام مرّت على فلسطين لا البائع باع فيها، ولا الصانع اشتغل، ولا الأجير أخذ أجرته، فمن أين يعيش فقراء فلسطين؟ من أين يجدون ثمن الخبز؟

ألم تفكّروا في هذا؟

ألم يخطر لكم على بال؟

أتأكلون وتشربون، وتلعبون وتطربون وأهل فلسطين يموتون؟

يا للعار!!

أما إنها والله ليست مسألة كلام يقال، ولا مقالة تُكتب، ولا خطبة تُخطب، ولكنها مسألة حياة أو موت، فتبّاً لمن ينظر أخاه يموت ولا يمد إليه يداً، وسُحقاً لمن يرى أخته تموت من الجوع ولا يقدم لها رغيفاً..

إن من يفعل هذا ليس مسلماً ولا عربياً ولا إنساناً!

لكن في دمشق بحمد الله مسلمين وفيها عرباً، وفيها ناساً، فلننظر ما يفعلون![1].

---

(١) ـ هتاف المجد / ص ١٦٣ ـ ١٦٦.

طريق التغيير

نحن نشكو أدواء في مجتمعاتنا، وأعداء تكالبَت علينا، ومظالم حاقت بنا، فلماذا نواجهها وحدنا ولا نطلب من الله أن يقف معنا؟ لماذا لا ننصره باتباع شرعه لينصرنا؟ إننا نريد أن يغير الله ما نحن فيه فما طريق التغيير؟ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ فهل غيّرنا ما بأنفسنا إلى ما هو أرضى لربنا وأقرب لديننا..

قضية فلسطين والمسجد الأقصى قضية المسلمين جميعاً، فلماذا لا ندعوهم ليقفوا فيها معنا؟ لماذا نعرض عنهم وهم يمدون أيديهم إلينا؟ لماذا نجعلها قضية فلسطينية أو عربية ولا نجعلها قضية إسلامية فيقف معنا الألف المليون مسلم[1].

من أين نبدأ؟

إن الجهاد إن لم يبدأ من البيت والمدرسة والجريدة، فلا يمكن أن ينتهي إلى الساحة الحمراء، فإذا أردتم أن تبلغوا نهاية الطريق فامشوا من أوله، إن شئتم أن تصلوا إلى أعلى السلّم فابدؤوا من أسفله، فإن من يمشي من آخر الطريق يرجع إلى الوراء، ومن ينزل من رأس السلم يصل إلى الأرض![2].

يا أيها الشباب

الشباب ـ يا سادتي ـ الواحة الفريدة في صحراء الحياة، وهو الربيع في سنة العمر، هو البسمة الوامضة على ثغر الزمان القاطب.

لست أعني هذا الشباب الغض الغريض، الحلو الناعم، الذي يجرح خديه لمس النسيم، ويدمي بنانه مس الحرير، والذي ترقُّ عنده الحياة حتى

---

(١) ـ ذكريات الشيخ : علي الطنطاوي (جـ٧) / ص ١٧٠.

(٢) ـ هتاف المجد / ص ١٩٨.

تسيل من العيون نظرات ساحرة مغرية، وتدق جلائل الأعمال فيها حتى يستحيل إلى فكرة، تطير في فراشة بين أزهار الجمال، في روضة الحب، أو نسمة معطرة تهب بين حواشي فتاة فتّانة، أو قُبلة فيها خمر وعسل، تجمع لذائذ الدنيا في رشفة مسكرة...

لست أعني هذا الشباب الفاتن المتأنّث الذي يعيش للهوى والأحلام ويبدأ تاريخ حياته بالحاء (ح) فلا يلبث أن ينتهي بالباء (ب)..

إنما أعني الشباب الحي العامل، القوي المتين، الذي وضع له غاية في العيش أبعد من العيش، ونظم نفسه حلقة في سلسلة شعبه، واتخذ له مطمحاً ومثلاً عالياً، ثم عمل على بلوغه، وسعى إليه باندفاع الصواعق المنقضة، وقوة العواصف العاتية، وثبات الطبيعة، وألقى في سفر حياته الراء بين الحاء والباء، وهل الحياة إلا حرب دائمة ونضال مستمر، وتنازع على البقاء، وتسابق إلى العلاء.

لا يبقى غير الصالح، ولا يصلح غير القوي... هذه هي الحقيقة الباهرة، هذا هو القانون المقدس الذي لا يلغيه برلمان، ولا يعبث به إنسان، ولا يخرج عليه إنس ولا جان ولا حيوان، لأنه من قوانين الله التي كتبها على صفحة الوجود يوم أخرجه من العدم وقال له: كن. فكان.

الجراد يأكل البعوض، والعصفور يفترس الجراد، والحيّة تصطاد العصافير، والقنفذ يقتل الحية، والثعلب يأكل القنفذ، والذئب يفترس الثعلب، والأسد يقتل الذئب، والإنسان يصطاد الأسد، والبعوض يميت الإنسان... هذه هي السلسلة الخالدة لا تبديل لها ولا تغيير.

إما أن تقتل الأسد، وإما أن يقتلك البعوض!!

فيا شباب! لا يغلبكم البعوض، ولكن اغلبوا الأسُود!![1].

---

(١) ـ فصول إسلامية / ص ٤١ ـ ٤٢.

إلى شباب الأزهر

أولئكم علماء الأزهر، وهل في الدنيا معهد علم له قِدم الأزهر وعظمة الأزهر، وأثر الأزهر في الفكر البشري وفي الحضارة الإنسانية؟ أي معهد يجر وراءه أمجاد ألف سنة؟ ما الجامعات؟ إنهنّ بنات اليوم والأمس، والأزهر لِدَةُ الدّهر، تكسّرت على جدرانه أمواج القرون وهو قائم، وارتدّت عن بابه هجمات الجهالة والضلال والشهوات والأوهام، غالب الفناء، وزاحم الزمان في طريق الخلود، وكان الأفق الذي أطلع شموساً وأقماراً وأخرج للدنيا نجوماً كانت هدىً للسالكين.

الجامع الأزهر لا تظلموه فتسمّوه جامعة، فلقد كان واللهِ الجامع، جمع شعوب الإسلام على الحق في أزمان تفرّقت فيها شعوب الإسلام، إنه الجامع، وفي الجامع العبادة والعلم، وفيه الروح والجسم، والعقل والقلب، والدنيا والآخرة، فأين منه الجامعات؟.

فيا شباب الأزهر افخروا بجامعكم فما له على ظهر الأرض قرين!

يا شباب الأزهر أنتم ورثة هذا المجد كله، أنتم خلفاء أولئك الجدود فصِلُوا طريفكم بتليدكم، وأتمّوا بفعالكم مجد أسلافكم، بالعلم، لا تسمو الأمم إلا بالعلم، والبيان، لا علم إلا ببيان، ولا فكر إلا بلسان، بالأخلاق أخلاق العلماء الذين أخلصوا الخضوع لله فخضع لهم جبابرة البشر، وألقوا كلمة السماء فرفعتهم فوق أهل الأرض.

وزهدوا بزخارف الدنيا، وأوهام الجاه، فانقادت لهم الدنيا وسعى إليهم الجاه، بالأخلاق فالأخلاق قبل العلم، ونحن لا نريد نسخاً من الكتاب، ولكن نريد رجالاً يكونون نماذج للمسلم الكامل، نريد دعاة إلى الله بالأفعال لا بالأقوال(١).

أحبوا ولكن..

العاطفة هي التي تدير دولاب حياتنا، وتسيّر أمورنا كلها، أما العقل

---

(١) ـ فصول إسلامية / ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦.

فلا يصنع وحده شيئاً، ومن يذكر منكم أنه مشى خطوة واحدة برأي العقل وحده؟

العقل يا سادتي فيلسوف أعمى، حكيم مقعد، ينادي بصوت خافت ضعيف... أما العاطفة فهي القوة، هي النشاط، هي الحياة.

أنا لا أقول اقتلوا العاطفة، لأن في موتها موتنا، ولكن أقول إن العاطفة تضيق حتى لا تشمل إلا شخصاً واحداً، وتنحط حتى تنزل من قلب هذا الشخص إلى ما تحت القلب، إلى ما تحت السُّرَة...!، وتسمو حتى تحيط بالمثل الإنسانية العالية، وتعم حتى تشمل الأمة كلها، بل الإنسانية جمعاء.

فاسموا بعواطفكم عن مواطن شهواتكم، واخرجوا بها من ذواتكم، وقفوها على أمتكم وبلادكم، أحبوا فإن الذي لا يحب لا يكون إنساناً، واذكروا واحلموا وتأملوا... ولكن افهموا الحب بمعناه الواسع الذي يشمل كل ما هو حق وخيّر وجميل... لا المعنى الضيق العقيم، الذي لا يتجاوز حدود جسم امرأة.

أحبّوا ولكن ابقوا مسلمين..

إن للمسلم قلباً، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾، ولكن المسلمين يغضّون عيونهم وقلوبهم وفروجهم ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾﴾.

أحبّوا ولكن ابقوا رجالاً.

إن الرجل إذا أحب لم يبكِ ويتذلّل ويأرق الليل ولم يلق شفتيه على قدمي المرأة كما كان يفعل لامارتين، ولكنه يقوم قائماً على مشط رجله، ثم يقول لها بعينيه النافذتين وعضلاته الحجرية، وإرادته الماضية ورجولته البادية: (تعالي)!.

أحبوا ولكن ابقوا أفراداً من هذه المجموعة البشرية التي هي الأمة، لا

يقطعكم الحب منها ويُعِدكم إلى الحياة الفردية الوحشية، فتنكروا كل شيء وتنسوا الدنيا، وتتجاهلوا الحياة إلا إذا أشرقت عليها نظرة المرأة، وأضاءت في أرجائها كلمة منها.

ولا تقيموا الدنيا وتقعدوها، وتغرقوا الأرض بالدموع لأن الحبيبة المحترمة لم تمنح قُبلة وُعدت بها، ولم تصل وقد لوّحت بالوصل، تنظمون الأشعار في هذه الكارثة وتنشؤون فيها الفصول، تبكون وتستبكون، ثم تنامون آمنين مطمئنين، والنار من حولكم تأكل البلاد والعباد.

الشعر شعور، فأي شعور وأي حس فيمن يرى أمة كريمة مجيدة بقضّها وقضيضها، ومفاخرها وتاريخها وحياتها وأمجادها تُطرد من ديارها وتُخرج من بيتها - وهي أمته، وأفرادها إخوته - لتعطىٰ مساكنها إلى أمة من أسقط الأمم، أمة ضُرِبت عليها الذلّة والمسكنة وباءت بغضب من الله، وغضب من الناس ومن الحق والفضيلة والتاريخ، ويرى صدورها مفتحة للرصاص، وشيوخها مساقين إلى حبال المشانق، وشبابها في شعاف الجبال وبطون الأودية يدفعون الظلم بالدم، وأطفالها ونساءها بين لصّين: لص ديار، ولص أعراض، لص يحارب بالذهب، ولص يقاتل بالبارود ثم لا يحس بهذا كله، ولا يدري به ولا يفكر فيه لماذا؟ لأن الشاعر المسكين مصاب متألّم!.

ما له؟ ما مُصابه؟ إن حبيبته لم تعطه خدّها ليقبّله.

إن العاطفة إذا بلغت هذا المبلغ كانت جريمة.. [١].

كلمة حق

... لا تقولوا، إنك تكتب في الدين وفي الفضيلة، وإنك تدعو إلى الخير، لأني عزمت على أن أقول الليلة الحق، ولو كان على نفسي.

---

(١) - فصول إسلامية / ص ٤٩ - ٥١.

الحق يا سادة، أن الدعاة اليوم إلى الله، لا أستثني واحداً ممن أعرف منهم، كلهم ممثلون، يلبسون في المجلة أو على المنبر ثياب المسرح، فيبدون بالجبّة والعمامة، فإذا انقضى(الفصل) خلعوها وعادوا إلى بيوتهم، فعكف عابد الدينار منهم على معبوده، ما له إلا جمع المال همّ، وعابد الشهوة عليها، وعابد الجاه، وعابد المنصب، تعددت الأصنام والشرك واحد!

إنهم ممثلون، وأنا أول الممثلين.

ولو كنت صادقاً لما ألّفت في سيرة أبي بكر وعمر، ثم عدلت عن سنّتهما، وسرت غير سيرتهما، ولو كنت صادقاً إذ أدعو إلى الإسلام لكنت في سرّي وجهري وفي لساني ويدي، واقفاً عند أمر الإسلام ونهيه، ولو كنت صادقاً لما انغمست في حمأة هذه الحياة التي سال علينا سيلها من الغرب، ولو كنت، وكان عشرة مثلي صادقين، لما بقي في الأرض فساد، ولقد طهر الأرض من أوضارها منبر واحد من الخشب ثلاث درجات ليس لها درابزين، ولا عليها قُبّة ولا لها باب، فلم لا تُطهِّر الأرض مائة ألف منبر مزخرفة منقوشة محلاّة لها أبواب جميلة وقباب؟ ألأنَّ الناس فسدت طبائعهم؟ ألأن الزمان قد دنا آخره؟.

لا، بل لأن القائمين عليها وُعَّاظ من خشب، يحملون سيوفاً من خشب!

❀ ❀ ❀

أما إن الحق الذي لا بد الليلة من الصدع به... إنه... لا هذه المواعظ، ولا هذه المقالات، هي التي توصل إلى الله، ولكن يوصل إليه أن يعود كلٌّ إلى نفسه، فيسأل من أين جاءت؟ وفيم خُلقت؟، وإلى أين المصير؟

وأن يعلم كلٌّ أن الطريق من (فوق)، فيرفع رأسه ليرى الطريق، ومن منا يرفع اليوم رأسه، ونحن كالنحلة لا نبصر إلا الأرض؟ بل إن منا من هو

كالفراشة تسعى إلى النار ـ تحسب أنها باب الانطلاق!

إن المسيحيّين يصلّون لربهم قبل الطعام على المائدة، وقبل الدرس في المدرسة، ويوم الأحد في الكنيسة، فتعلم أنهم مسيحيّون، فما يصنع كثير من المسلمين، وأي علامة تدل على أنهم مسلمون، من ساعة يصبحون إلى ساعة يمسون؟!

لا صلاة ولا ذكر، ولا تمييز لحلال من حرام، إن عملوا خيراً فباسم الأخلاق والفضيلة والصحة، لا باسم الإسلام.

فما الفرق بينهم وبين غيرهم؟

يقولون إن الدين المعاملة والصدق والقصد والاعتدال، وأن تعامل الناس كما تحب أن يعاملوك.

صحيح، ولكن هذا من الدين، وليس هو الدين!

وهذا شأن كل شريف، يستوي فيه الشرفاء جميعاً، فما معنى تفريقهم إلى مؤمنين وملحدين وعُبّاد أوثان؟

وهذا كله للحياة الدنيا، فما الذي نعمله للحياة الأخرى؟

لا، بل الدين أن تتصل بالعالم العلوي، وأن تراقب الله، وأن تعلم أنه مطّلع عليك أبداً، وأنه يرعاك بعينه فترعاه بقلبك وتطيعه بجوارحك.

هذه غاية الخلق، وهذا سر الوجود، ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ لا عبادة عادة، وصلاة رياضة، وصوم استشفاء، وحج سياحة، بل العبادة التي يحس بها القلب حلاوة الإيمان، ويذوق فيها لذة العبودية ويستشعر فيها القيام بين يدي الله، ولتغامر مع ذلك في ميدان الحياة، ولتقحم لجّها، ولتأخذ أوفر قسط من طيباتها، ومن علومها ومن فنونها، ولتكن قوياً، ولتكن غنياً[١].

---

(١) ـ من حديث النفس / ص ١٨٢ ـ ١٨٤.

✍ مصيبتنا نحن المسلمين

مصيبتنا ـ نحن المسلمين ـ في هذه الأيام أننا لا نعرف التوسط ولا الاعتدال، فمنا من ينطلق وراء عقله وحده لا يتقيد بوحي ولا كتاب، ومنا من يدع العقل والكتاب والسُّنّة ليفكر بعقول من مضى من فقهاء القرن التاسع والعاشر، أو يأخذ من الكتاب والسُّنة ولكنه يفهم بالحروف والألفاظ ويدع ما وراءها من المجاز والإشارة والحكمة والمصلحة[1].

لكي نسترد فلسطين

إن ضياع فلسطين جريمة ستحكم فيها محكمة التاريخ، حين تسقط قيود المنافع والمجاملات، وحجب الجهل والغفلة، وينكشف الخفيّ ويفتضح المزوّر، عندئذٍ يستطيع التاريخ أن يحقق في هذه الأحداث، وأن يكشف ملابساتها ويحدد المسؤول عنها، على أن المحكمة الكبرى هي التي تكون يوم الحساب، بين يدي رب الأرباب، يوم لا تخفى عليه خافية، يوم لا ينفع مال ولا بنون، ولا جند ولا أعوان.

إن النصر يكون بالعدد، وإن كانت كثرة العدد لا تجدي إن لم يكن معها العِدد الكافية، والعدد والسلاح لا ينفعان إن لم يكن معهما العلم، وهذا كله لا يأتي إلاّ بالمال.

فهل ينقصنا ـ نحن المسلمين ـ العدد؟ نحن ألف مليون، واليهود بضعة ملايين، لو أننا (وعفوكم عني إن جئت بمثال بشع) لو أن كل مسلم بصق بصقة لأغرق يهود العالم، ولو أنه نفخ نفخة وجُمعت هذه النفخات لأطارتهم، ولو ألقى عليهم كل واحد نعله القديم لماتوا ودُفنوا في قبر من النعال.

وإذا كان العدد لا ينقصنا، وإذا كان ما عند المسلمين من السلاح أكثر مما عند اليهود، وإذا كان مجموع العلماء من المسلمين، العلماء بالطبيعة

---

(١) ـ من نفحات الحرم / ص ٩٤.

وعلومها، أكثر مما عند اليهود، وإذا كنا معشر المسلمين جميعاً نملك من المال أكثر مما عند اليهود، فما الذي ينقصنا؟.

إذا كان لا ينقصنا العدد، ولا ينقصنا المال، ولا ينقصنا السلاح، ولا ينقصنا العلم، فما الذي ينقصنا؟

إن الذي ينقصنا هو الإيمان؛ أن نكون مع الله حتى يكون الله معنا، أن ندخل الإسلام في المعركة، فلا نجعلها معركة استرداد الأرض فقط، ولا نجعلها فلسطينية فقط، ولا عربية فقط، بل نجعلها معركة إسلامية، إنها قضية المسلمين جميعاً ليست قضية العرب وحدهم[١].

قضية فلسطين

إنه ليس في تاريخ الظلم والعدوان مثل قضية فلسطين، ولا في تاريخ التخاذل والانقسام وقلّة الاهتمام مثل موقفنا في قضية فلسطين، ولا في تاريخ التعاون على الإثم والعدوان مثل موقف الدول في غرب الأرض وفي شرقها من قضية فلسطين[٢].

وعد بلفور

... اسألوا قوم بلفور كم من حقٍ فلسطين سُلب؟ سلوا قوم بلفور كم من دمٍ أُريق؟ سلوهم كم من نفوسٍ أُزهقت؟ كم من أرواح ذهبت؟ كم من ولد أُصيب وهو على يد أمه؟ وكم من أم أُصيبت وفم صبيها على ثديها، فرضع منها مكان اللبن دماً؟

سلوا أدعياء الديمقراطية، أكانت فلسطين ملك بلفور، بالسجل العقاري قد شراها بماله، أو ورثها عن أبيه حتى يتصرف فيها هبةً ووعداً؟

---

(١) ـ ذكريات الشيخ : علي الطنطاوي (جـ٥) /ص ٧٥ ـ ٧٦.

(٢) ـ ذكريات الشيخ : علي الطنطاوي (جـ٢) / ص ٢٨٢.

ولكن لا، لا تسألوهم ولا تكلموهم، بل اعتمدوا على ربكم ثم على أنفسكم.

إن أبطال الرياضة يا سادة إذا لم يتدربوا، قبل أن يدخلوا المباريات المتعبة تذهب قوتهم، ونحن المسلمين أبطال البشر، وكلما بعد عهدنا بالتدريب كتب الله علينا دورة تدريبية جديدة، وكلما انقضت مباراة جاءت مباراة أشد منها. وهذه إحدى المباريات..[١].

اليهود

أنا لا أخشى قوة اليهود ولكن أخشى تخاذل المسلمين، إن اليهود ما أخذوا الذي أخذوه بقوتهم، ولكن بإهمالنا، إن إهمال القويّ هو الذي يقوي الضعيف.

وما أخذوا الذي أخذوه بأيديهم ولكن بأيدي من يدفعهم ويحميهم، بأيدي الدول الكبرى التي تتركهم يضربوننا غدراً ومكراً، فإذا أردنا أن نمد أيدينا لرد الضربة أمسكوا بأيدينا، كالولد المدلل الذي يمشي وراءه الخادم المسلّح، يضرب الشاب القوي الذي يستطيع أن يخنقه بيد واحدة، فإذا أراد الشاب أن يدفع عن نفسه لوّح له الخادم ببندقيته[٢].

دعوة الكمال

إن دعوتنا هي دعوة الكمال، فكلما تردد الإنسان بين طريقين دعونا إلى خير الطريقين.

إن تردد العقل بين حق وباطل، كانت دعوتنا هي دعوة الحق، وإن تردد الطبع بين فضيلة ورذيلة، كانت دعوتنا هي دعوة الفضيلة، وإن تردد المرء بين لذة وواجب كانت دعوتنا هي دعوة الواجب.

---

(١) ـ هتاف المجد / ص ٥٠ ـ ٥١.

(٢) ـ هتاف المجد / ٥٣.

ونحن نعترف أنها دعوة لأصعب الطريقين، وأشق الأمرين، ذلك لأن الانحدار مع الهوى سهل، ولكن الصعود إلى المثل الأعلى صعب، والماء ينزل وحده حتى يستقر في قرارة الوادي، ولكنه لا يصعد إلا بالمضخات[1].

أقوم طريق

أقسم الله بالعصر، ونحن إنما نقسم بالشيء الذي نبالغ في تعظيمه وتقديسه، لذلك لم يجز لنا القسم بغير اسم الله وصفاته، ولكن الله يقسم ببعض مخلوقاته، لا تعظيماً لها، بل تنبيهاً إلى بعض خصائصها ومزاياها لنستفيد منها.

أقسم بالضحى والليل إذا سجى، لما انقطع الوحي عن رسول الله ـ ﷺ ـ فثقل انقطاعه عليه، واستعجل عودته إليه، فأفهمه الله بهذا القسم أن الله جعل لكل شيء موعداً، فالليل لا يأتي مع الضحى، بل لا بد من انتظار موعد الليل.

وأقسم بالتين والزيتون، لا اللذين نأكلهما كما قال بعض المفسرين، فما شأن التين والزيتون اللذين نأكلهما بجبل الطور، وهما ثمرتان وهذا جبل، ولكن الله أقسم بهما رداً على الكفار الذين عجبوا أن يبعث الله محمداً في مكة، ولم يعجبوا أن يبعث موسى وعيسى في الشام وفلسطين، وهما بلد التين والزيتون، ولا أن يكلم الله موسى عند جبل الطور، فأفهمهم أن بلد التين والزيتون، وأن طور سينين، كمكة البلد الأمين، فما يجوز أن يكون في تلك يجوز أن يكون في مكة، والعصر هنا كما أفهمه مطلق الزمان، فالإنسان الذي قدر له أن يعيش تسعين سنة إنما تكون تسعين يوم مولده كعطلة الشهر للموظف لا تكون شهراً إلاّ حين بدايتها، فكلما مر الزمان عليها نقص شيء منها، والمليون إن كنت تحسب منه واحداً بعد واحد جاء وقت فرأيت أن المليون صفر، وهنالك الخُسر.

---

(١) ـ فصول إسلامية / ص ٩ ـ ١٠.

تذهب الحياة بذهاب العمر، ويذهب معها ما فيها من المال والبنين والذهب والفضة، والجاه والسلطان، ويحوزه كله هذا القبر الضيق، ثم يُهال عليه التراب، ثم يلفه النسيان فكأنه ما كان.

فما الذي يبقى إذن؟ يبقى الإيمان والعمل الصالح ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ثم لخّص بأربع كلمات: المنهج الكامل للواحد وللجماعة.

ـ الكلمة الأولى: هي (الحق) فالمناهج والمذاهب والنحل والمبادئ منها الحق ومنها الباطل، فالمؤمن يختار ما كان منها حقاً، ولكنه قد لا يقوى على تنفيذه، وقد يشق عليه، فلا بد من (الصبر) على هذه المشقة.

فالحق هو اختيار الطريق الصحيح، والصبر هو سلوك هذا الطريق وتجنب الخروج عليه، هذا كله للفرد فأين شموله للجماعة؟ إنه بكلمة ﴿وَتَوَاصَوْا۟﴾ كلمة واحدة حوّلته منهجاً عاماً يوصي به كل مسلم أخاه، وأخوه يوصيه به، وهذا هو التواصي، وهذا هو التعاون والاجتماع، على اختيار الصحيح من المناهج، وعلى تطبيقه التطبيق الكامل.

فما الذي تركته هذه السورة التي هي أقصر سور القرآن ولم تذكره؟، وهل إيجاز بعد هذا الإيجاز؟ وهل إعجاز بعد هذا الإعجاز؟ وهل طريق أقوم من هذا الطريق؟[١]!!.

ادع إلى سبيل ربك بالحكمة

وما لأكثر من عرفنا منهم [الوعاظ والخطباء [٢]] لا يعرفون إلا أسلوب العنف الذي يبعد الناس عن الدين، ويغلظ قلوبهم عليه، وينفّرهم منه، فلا يرون في مجالسهم شاباً من تلاميذ المدارس ـ مثلاً ـ إلا جعلوا

---

(١) ذكريات الشيخ : علي الطنطاوي (جـ٨) / ص ٢١٦ ـ ٢١٧.

(٢) ما بين القوسين أضفته لتعلق الضمير بكلام الشيخ الذي سبق هذه الجملة. [إبراهيم مضواح].

الموضوع في تفسيق من يحلق لحيته ومن يتشبّه بالنساء وأمثال ذلك، حتى تأكل هذا الشاب الأنظار، فيغرق في عرقه خجلاً، ثم لا يعود إلى المسجد أبداً؛ ولو أنهم حاسنوه وجاملوه لكان من المتّقين.

حضر درس الشيخ (بدر الدين) ـ رحمه الله تعالى ـ شاب حليق حاسر من شُبان (الموضة)، وكان الشيخ (على عادته) مطرقاً، فقال له أحد الثقلاء من الحاضرين: (سيدي ماحكم الشبان الذين يتشبهون بالنساء ويتزيّنون بزيّ الكفار)، فأدرك الشيخ بذكائه النادر أن في المجلس غريباً، فرفع رأسه فلمح الشاب، فدعاه فأجلسه بجواره وأكرمه، وقال للسائل مؤنّباً بأسلوبه الناعم (يابا!... هذا يُتبارك به!).

يعني أن شاباً مثله يطلب العلم ويؤمُّ مجالسَه، ويستهدي الطريق إلى الله، أهل لأن يَتَبرَّكَ به أمثال ذلك الثقيل، الذين (قطعوا الطريق) إلى الله بغلظتهم وغباوة قلوبهم[١].

منهج للدعوة

إذا كان شياطين اليهود قد وضعوا مخططات لإفساد بني الإنسان، تستمر على زعمهم أكثر من مائة عام، فلِمَ لا يجتمع حكماء المسلمين من أهل الإصلاح فيضعون مخططات للدعوة يدعونها: (مخططات حكماء حراء)، ليقوم لأهل الحق مقام (مخططات حكماء صهيون) لأهل الباطل[٢].

هذا العلم دين

إن هذا العلم دين، فعلينا أن ننظر عمّن نأخذ ديننا، وألاّ نأخذ العلم إلا عن رجل نثق بدينه كما نثق بعلمه، ونطمئن إلى إيمانه كما نطمئن إلى

(١) ـ فصول إسلامية / ص ١٣٩ ـ ١٤٠.

(٢) ـ في سبيل الإصلاح / ص ١٣.

منطقه، فإن لم يكن إلا العلم والمنطق لم ينفعاه عند الله شيئاً[1].

دفاع عن الفضيلة

... ما هذه الحرية التي طبّلتم لها وزوّرتم، وهوّلتم وعظّمتم، وجعلتم الاعتداء عليها كفراً بدين الحضارة والديمقراطية، أهي حرية المرأة التي تكشف ما تريد من جسمها متى أرادت وأين شاءت؟! أهي حرية ناظر المدرسة في أن يحوّل مدرسته إلى مرقص؟ أهي حرية الفسوق والعصيان؟! أهذه هي الحرية المقدسة؟!.

إنكم - أيها السادة - بين أمرين: إما أنكم تقولون ما لا تفهمون، وإما أنكم تسترون بهذه الأسماء الحلوة أغراض نفوسكم ورغبات أجسامكم، وإلاّ فخبّروني أي أمة في الدنيا تصنع هذا الصنيع؟.

العرب؟ إن العرب أغير الناس على الأعراض، وإن كلمة العرض في لسانهم لا يقابلها كلمة في ألسنة الأمم تترجَم بها!.

المسلمون؟ إن الإسلام أمر بغض البصر وستر العورة، ولعن الناظر إليها والمنظور!.

الفرنسيون؟ إن الفرنسيين يكشفون أفخاد الشباب في الملعب فعلامَ تكشفونها أنتم في سوق الحميدية وهو للبيع والشراء، وفيه الرجال والنساء وهو كالموسكي في مصر والشورجة في بغداد، ما كان قط ملعباً ولا ميدان كرة؟ وإن الفرنسيين ينشؤون بيوتاً للّهو واللذة، وبيوتاً للعلم، وأنتم جعلتم بيوت العلم بيوت لذة ولهو، وإن الفرنسيين كانوا يسترون سيقان الجند، فلما استلمتم أنتم أمرهم كشفتم عن أفخاذهم[2].

الرّوس؟ إن الروس فصلوا بين الجنسين في المدارس لما رأوا بالتجربة أن الاختلاط لا يأتي بخير، وأنتم تسعون الآن بكل طريق لجمع الجنسين في المدارس.

---

(١) - في سبيل الإصلاح / ص ٢٦.

(٢) وما أستحسِن عمل الفرنسيين، ولكن أقيم الحجة على المخالفين.

العفاريت؟ الجن؟ فمن إذن؟ أنكون نحن بدعاً في الأمم نأخذ من كل واحدة شر ما عندها، ونريد أن نبدأ حياتنا الاستقلالية بهذا الخليط من الشرور مركّباً تركيباً مزجياً كحضرموت... إنه والله طريق الموت الحاضر لا طريق الحياة!![1].

كلمة للملاحدة

هذه كلمة موجزة أحب أن أخاطب بها عقول هذه الفئة الملحدة منا، على علمي بهوان العقل عليها وخفته في ميزان هواها، وما علّمتنيه الأيام من أن هؤلاء الملحدين يقولون (العقل) و (العقل يقضي) ولا معنى لذلك عندهم إلا أن الذي (يقضي ويقول) إنما هي الكتب التي قرؤوها مترجمة أو بلسان أهلها. وأن الحق ليس الذي يقابل الباطل، ولكن الحق عندهم ما جاءهم من حيث تغرب الشمس، وما كان سنده خلواً من كل اسم شرقي.

وإلا فخبّرني في أي عقل يستقيم للملحد المنكر الخالق، أن ينكره باللسان الذي منحه إيّاه ذلك الخالق؟.

إنها ثلاثة لا رابع لها: إما أن تكون قد خلقت نفسك وهذا أوهن (الفروض) وأهونها!

وإما أن يكون قد خلقك ما ترى حولك من المخلوقات فيعطيك العقل جبل لا عقل له أو بحر أو نجم!

أو أن تُقرَّ أن للوجود موجداً أسمى وأقدر، وأنه الخير كله والجمال المطلق، والكمال الكامل؛ وذلك هو الله، فتكون مؤمناً بالله[2].

---

(١) ـ في سبيل الإصلاح / ص ٩١ ـ ٩٢.

(٢) ـ فصول إسلامية / ص ١٦٥ ـ ١٦٦.

ضريبة الحضارة

. . .لنأخذ الاختراعات النافعة: لنأخذ المواصلات مثلاً. . لا شك أن العلم سهّلها وهوّنها، فقرّب البعيد وأراح المسافر، ووفّر عليه صحته ووقته، ولكن هل أسعد ذلك البشرية؟

أحيلك في الجواب على (شبنكر) لترى أن البشرية قد خسرت من جرّائها أكثر من الذي ربحته، كان المسافر من بغداد إلى القاهرة، أو الحاج إلى بيت الله، ينفق شهرين من عمره أو ثلاثة في الطريق، ويحمل آلاماً وتعرض له مخاوف، ولكنه يحس بمئات من العواطف، وتنطبع في نفسه ألوف من الصور، ويتغلغل في أعماق الحياة، ثم يعود إلى بلده، فيلبث طول حياته يروي حديثها، فتكون له مادة لا تفنى، ويأخذ منها دروساً لا تُنسى.

أما الآن فليس يحتاج المسافر (إن كان غنياً) إلا إلى الصعود على درجة الطيارة، والنزول منها حيث شاء بعد ساعات قد قطعها جالساً يدخن دخينة، أو ينظر في صحيفة فهو قد ربح الوقت، ولكنه خسر الشعور، فما نفعتنا المواصلات إلا في شيء واحد، هو أننا صرنا نقطع طريقنا إلى القبر عدواً، ونحن مغمّضون عيوننا. . . لم نرَ من لجة الحياة إلا سطحها الساكن البراق!

ولنأخذ الطب. . . وليس من شك أن الطب قد ارتقى وتقدم، وتغلّب على كثير من الأمراض، ولكن ذلك لا يُعد مزيّة لأنه هو الذي جاء بهذه الأمراض، جاءت بها الحضارة، فإذا سرق اللص مائة إنسان، ثم ردّ على تسعين منهم بعض أموالهم أيعدّ محسناً كريماً، أم لا يزال مطالباً بالمال المسروق من العشرة؟[1].

قضاء المدنية

إن قضية فلسطين لم يجرِ مثلها ولا في أيام نيرون، ولو قرأناها في

(١) ـ فكر ومباحث / ص ٢٣.

أخبار الأولين لما صدّقنا أنه يسوغ في إنسانية البشر، وعقل العقلاء، أن تقول لرجل: اخرج من دارك ليأوى إليها هذا المشرّد المسكين، ونم أنت في الزقاق، أو اضطجع على المزبلة، أو مُت حيث شئت، هذا قضاء المدنيّة!.. وهذا حكم الديمقراطية!..

وإن حوادث المغرب لم يقع مثلها ولا على عهد محاكم التفتيش، أن يُذبح عشرات الألوف من الأبرياء لأنهم قالوا لمن دخل عليهم بلدهم، واغتصب أرضهم، وأكل خبزهم: أطعمنا معك من خيرات أرضنا، وارفق بنا في عدوانك علينا..[١]

ما نأخذ وما ندع من الحضارة المعاصرة

إن الحضارة المعاصرة، كما سماها من دعاني لهذه المحاضرة، قد خالطتنا وغلبت علينا، شئنا أم أبينا، وقد فاجأتنا مفاجأة أزاغت أبصارنا، وأفقدتنا ملكة الحكم عليها فترة من الزمن، انقضت الآن، وصرنا نستطيع أن نحاكمها وأن نفرق بين خيرها وشرها، فلا نردّ خيراً لأنه جاء من عند غيرنا، ولا نقبل شراً لأن أصحابه أكثر حضارة منا.

فما يفسد العقيدة، أو يخالفها، وما يطلق الشهوات، ويكشف العورات، ويدعو إلى ارتكاب المحرمات وضياع العفاف وهتك العرض وتقليل النسل، فهذا يجب وجوباً لا تساهل فيه أن نرفضه، وإن كان قد وصل إلينا وداخلنا فعلينا أن نتخلص منه وننأى عنه، وأن نفكر تفكيراً جماعياً شورياً بأسلوب هذا الرفض، وفي طريق هذا الخلاص المنشود. وما كان من العلم بقوانين الطبيعة وسنن الله في هذا الكون، فعلينا أن نُقبل عليه وأن نجدَّ فيه، وألاّ نكتفي منه بالعلم النظري، بل نجمع معه التطبيق العملي[٢].

---

(١) ـ هتاف المجد / ص ١٩٦.

(٢) ـ فصول إسلامية / ص ١٠.

الرجعية

لقد قصّر النساء الملاءة أصبعاً أصبعاً حتى خرجنَ سافرات، بالأكمام اليابانية، وحتى اختلط في الجامعات الفتيات المسلمات، بنات الصالحين، بالشباب الأجانب، فلنرجع إلى الصلاح خطوة وأصبعاً أصبعاً.

ولا تلقوا بالاً لمن يقول إنها (رجعية)، فإن هذا التكشف هو الرجعية لأن الناس وُلدوا متكشّفين، وكانوا كذلك في فجر البشرية ثم تحضّروا فاستتروا، فالذي يدعو إلى التكشف هو الرجعي؛ وكل حمير الدنيا مباح (في عرفهنّ الحمّاري) العري والاختلاط، وإنما يمتاز البشر بالتصوّن والتستّر والعفاف[1].

المساواة الممكنة

أنا لا أدعو إلى المساواة المطلقة بين الناس، فذلك ما لا يكون ولا يزال في الناس غني وفقير ما دام فيهم عامل وخامل، وذكي وبليد، لن يكونوا أبداً سواء في أرزاقهم ومعايشهم إلا إذا استوى الجنسان وتحقق حلم المدافعين عن (حقوق) المرأة فانقلبت رجلاً، ونبت لها شاربان.. ولحية!!.

ولكن أدعو إلى تقريب المسافة بين طبقات الناس، عاليها ودانيها، وأن تضمن الحكومة لكل إنسان حقه الطبيعي في الطعام واللباس والمسكن، وألاّ تقر في موازنتها راتباً لموظف مهما نزلت درجته، لا يكفل هذا الحق له ولأسرته ولو كان كنّاس الطريق، أو ناطور المراحيض، وأن تسوّي بين الناس (المساواة الممكنة) التي حققها الإسلام في أول الدهر في عهد الشيخين، والشيوعية في ذَنَب الزمان في أيام ستالين، وإن اختلف نوعهما فكانت تلك مساواة في السعادة... وهذه المساواة في الشقاء!..[2].

---

(١) ـ فصول إسلامية / ٢٠.

(٢) ـ في سبيل الإصلاح / ص ٥٩.

ضبط المواعيد

كل مشروع من المشروعات الكبرى في بلاد هذا الشرق كلها إما أن ينام على فراش التخدير (بمورفين) التسويف والتأجيل، وإما أن يجيء مرتجلاً مشوهاً كجنين وُلد قبل الأوان.

إنا لا نؤدي واجباً في موعده، حتى صارت كلمة الوعد الشرقي رمزاً مع الأسف للوعد الذي لا يوثق به، ولا يُطمأن إليه، وكلما أوغلت في الشرق رأيت ذلك أظهر وأوضح، فلا تقام في باكستان حفلة في موعدها، ولا يأتي ضيف إلا متأخراً ساعة، مع أنه لو جاز لكل أمة في الدنيا أن تهمل المواعيد وتتراخى فيها، لما جاز للمسلمين لأن دينهم يقوم على مواعيد مضبوطة ضبط الدقائق والثواني، فالذي يصلي قبل موعد الصلاة بخمس دقائق لا تصح صلاته، والذي يفطر قبل أذان المغرب بخمس دقائق لا يصح صومه، والذي يصِل عرفة بعد طلوع فجر يوم النحر بخمس دقائق لا يصح حجه.

وكل ذلك لتعليمنا ضبط المواعيد، وإلاّ فماذا يضر الصائم في الصيف (عقلاً لا شرعاً) إن صام أربعة عشر ساعة إلاّ خمس دقائق؟ ألاَ يصوم في الشتاء اثنتي عشرة ساعة؟.

المراد أن نتعود النظام والضبط في أعمالنا كلها، وألاّ نصاب بطاعون التأجيل والتسويف وإخلاف المواعيد[1].

الوعد الشرقي

وعد شرقي!.. أليس عجيباً أن صار اسم (الوعد الشرقي) علَماً على الوعود الكاذبة؟ واسم (الوعد الغربي) علَماً على الوعد الصادق؟.

من علّم الغربيّين هذه الفضائل إلاّ نحن؟ من أين قبسوا هذه الأنوار التي سطعت بها حضارتهم؟ ألم يأخذوها منا؟.

---

(١) ـ مع الناس / ص ٤٩ ـ ٥٠.

من هنا أيام الحروب الصليبية، ومن هناك، من الأندلس بعد ذلك، وهل في الدنيا دين إلاّ هذا الدين يجعل للعبادات موعداً لا تصح العبادة إلا فيه، وإن أخلفه المتعبّد دقيقة واحدة بطلت العبادة؟، إن الصوم شرِع لتقوية البدن، وإذاقة الغني مرارة الجوع حتى يشفق على الفقير الجائع، وكل ذلك يتحقق في صوم اثنتي عشرة ساعة، واثنتي عشرة ساعة إلا خمس دقائق، فلماذا يبطل الصوم إذا أفطر الصائم قبل المغرب بخمس دقائق، أليس (والله أعلم) لتعليمه الدقّة والضبط والوفاء بالوعد؟ ولماذا تبطل الصلاة إن صُلِّيت قبل الوقت بخمس دقائق؟.

والحج!... لماذا يبطل الحج إن وصل الحاج إلى عرفات بعد فجر يوم النحر بخمس دقائق؟ أليس لأن الحاج قد أخلف الموعد؟.

أولم يجعل الإسلام إخلاف الوعد من علامات النفاق؟ وجعل المُخلف ثلث منافق؟ فكيف نرى بعد هذا كله كثيراً من المسلمين لا يكادون يفون بموعد، ولا يبالون بمن يخلف لهم وعداً، أو يتأخر عنه، حتى صار التقيد بالوعد والتدقيق فيه والحرص عليه، نادرة يتحدث بها الناس، ويعجبون بصاحبها ويعجبون منه... وحتى صارت وعودنا مضطربة مترددة لا تعرف الضبط ولا التحديد.

يقول لك الرجل (الموعد صباحاً)، صباحاً؟... في أي ساعة من الصباح؟.. في السادسة؟.. في السابعة؟.. في الثامنة؟ إنك مضطر إلى الانتظار هذه الساعات كلها. (الوعد بين الصلاتين) وبين الصلاتين أكثر من ساعتين. (الوعد بعد العشاء).. أهذه مواعيد؟! هذه مهازل وسخريات، لقوم لا عمل لهم ولا قيمة لأوقاتهم، ولا مبالاة لهم بكرامتهم![1].

الأمة الخاملة

إن الأمة الخاملة صف من الأصفار... ما قيمة صف من

(١) - مع الناس / ص ٧٢ - ٧٣.

الأصفار؟... ولكن إن بعث الله لها (واحداً) مؤمناً صادق الإيمان، داعياً إلى الله، خبيراً بأساليب هذه الدعوة، صار صف الأصفار مع الواحد مائة مليون، والتاريخ مليء بالشواهد على ما أقول[١].

أخلاقنا

... من هذه الأخلاق التي يجب أن نتخلص منها، أننا لا نعرف التعاون ولا نقدر أن نعمل مجتمعين، فالفرد منا عامل منتج، ولكن الجماعة عاجزة عقيمة، ومن نظر إلى انتشار الشركات في الغرب على اختلاف أنواعها، والجمعيات على تنوع غاياتها، والأحزاب والنوادي، ورأى ما عندنا من ذلك رأى أنه ليس إلى المفاضلة من سبيل... وعلّة ذلك (الأنانية) المفرطة، والأثرة الجامحة، وحب الذات الطاغي، فالرجل منا يريد أن يكون هو كل شيء في الجمعية أو الشركة، رئيسها إن كان لها رئيس، أو ناموسها (سكرتيرها) إن لم يكن رئيس، وعضو الإدارة إن كان مجلس إدارة، وأن يكون له الرأي إن أُخِذت الآراء... بل إنا نرى كلاً منا يعطل أعمال الآخرين ويبطلها ويعمل على هدمها، بينما نراه مؤمناً بلزومها، معتقداً بالحاجة إليها، ساعياً إلى القيام بمثلها، فهو يعرف الحاجة إلى نادٍ أدبي ولكنه يحارب النادي لأنك أنشأته أنت، وهو يعلم الحاجة إلى مدرسة دينية ويدعو إليها، ولكنه إذا رآها قد فُتحت ونالت قسطاً من النجاح أصلاها حرباً حامية، وجعل أكبر همه هدمها وتخريبها، ذلك أن دعوته الأولى لم تكن عن إخلاص ولم يكن يريد بها وجه الله والمصلحة، ولكنه يريد الفخر والشهرة والنفع واللذة، فلما رآك أنت السابق إليها والذاهب بفخرها، خان المصلحة وعصى الله ليرضي أثرته ويستجيب لأنانيته... وهو شاعر بالحاجة إلى جمعية خيرية يسعى إلى تأليفها بحماسة وجد ودأب، قد ملأت فكرتها نفسه وحياته فهو لا يتحدث إلا بحديثها، ولا يشتغل إلا لتأسيسها، فإذا تم له الفلاح بعد التعب والكفاح، وقامت الجمعية، ولم يكن هو

---

(١) - ذكريات الشيخ: علي الطنطاوي (جـ٦) / ص ٧٢.

الرئيس، أو هو الناموس، انفصل عنها وحاربها حرباً لا هوادة فيها وسعى إلى هدم ما بناه بيده...

هذا داء من أشد أدوائنا الخلُقية، إن لم نعالجه فشت جرثومته في جسم الأمة فشلّت أعضاءها وعطّلت أعمالها[1].

أوقاتنا

... ومن هذه الأخلاق أننا لا نعرف قيمة الوقت، وأنا نضيع أوقاتنا سدى، ونُذهب أعمارنا عبثاً لا نعرف لها قيمة وهي أثمن ما نملك، وإذا كان فينا من يحسن الاستفادة من وقته، وينفقه في علم أو أدب أو شيء مما ينفع الناس، لم يعدم من الثقلاء من يضيع عليه وقته، ويسرق عمره ولا يتوهم أنه أساء، وما أظن أن في القرّاء من لا يذكر حادثة في هذا الباب... كنت ذاهباً إلى المدرسة ذات مرة، وكان عليَّ محاضرة لم يبقَ دون موعدها إلا مسافة الطريق، وكنت مسرعاً لا أكاد أبصر طريقي فاعترضني رجل كبير كان ناظر المدرسة الثانوية التي كنت فيها وله في البلد حرمة ومقام، فأقبلت عليه أحيّيه وأفهمته برفق أن عليَّ محاضرة قد حان موعدها فقال: طيب.. لحظة. وانطلق يتكلم، فلا والله ما سكت إلا بعد ما مضت نصف ساعة ألقى هو فيها المحاضرة عليَّ وأنا أتململ وأتحرك ويربدّ وجهي وأحس النار تشتعل في عروقي، فلما انتهى قال:

ـ أظنّ أننا وقفناك... عدم المؤاخذة!![2].

الشهوات

اخطبوا أيها المدرسون ما وسعكم الجهد، واهرؤوا ما انفسح لكم سبيل الهراء، وقولوا للشباب كُن صيّناً عفيفاً، إنها لن تجدي عليه خطبكم ولا يستقر في نفسه هراؤكم، إنه يخرج فيسمع إبليس يخطب بلغة الطبيعة

---

(١) في سبيل الإصلاح / ص ١٠٩.

(٢) ـ في سبيل الإصلاح / ص ١١٠.

الثائرة في السوق على لسان حال المرأة المتبرّجة، وفي الساحل على لسان الأجساد العارية المغرية، وفي السينما على لسان المناظر المتهتّكة المثيرة، وفي المكتبة على لسان الجرائد المصورة والروايات الخليعة الماجنة، وفي المدرسة على لسان أصحابه الفساق المستهترين.. ولسان المدرسين حين يدرّسون شعر أبي نواس المقرر رسمياً في المنهج!!.

إن الشاب تتعبده الشهوة فيخضع لها، لأن سهامها تنصب عليه من كل جانب فلا يطيق أن يتّقيها فيصورها له خياله عالماً مسحوراً عجيباً، وجنّة فينانة غريبة فيتمنّى دخولها، فلا يجد من دونها حجاباً، بل يجد من يسوقه إليها ويحفزه عليها، فلا يخرج منها أبداً، ولا عليه إن ماتت الأمةَ أو عاشت، فهل فكر أحد من أطباء الأخلاق في هذا الداء؟!

بناء الأخلاق ينهار، وسوق الزواج يبور، ونسل الأمة ينقطع، والمخازي والرذائل تعم وتنتشر، والقادة والمصلحون وأرباب الأمر يرون ذلك كله، فلا يبالونه ولا يفكرون فيه، ولا يفتشون له عن علاج... مع أن العلاج هيّن ميسور والعقاقير دانية قريبة، لا ينقصها إلا يد تمتد إليها فتأخذها لتجرعها المريض... وأين تلك اليد؟

❀ ❀ ❀

إن الله الذي وضع الشهوة في النفوس جعل دواءها الزواج، فإذا تعذر الزواج فهناك طرق للوقاية من الفاحشة، وهناك السدود من دونها والحجب.

هناك الدِّين فإذا علمتم الشاب دينه، وعرفتموه بربه، ونشأتموه على التوحيد الخالص، والإيمان الصحيح حتى يعلم أن الله مطلع عليه، لاستحيى من الله أن يأتي الفاحشة بسمعه وبصره، كما يستحيي أن يأتيها على مشهد من أبيه الذي يجله، أو أستاذه الذي يحترمه، ويعلم أن من حق الله عليه، وقد أعطاه الله هذه الأعضاء وأنعم بها عليه ألا يستعملها إلا في طاعته ... هذا أول سلاح تُدرأ به المعصية، وهذا معنى قوله ﷺ عليه وسلم: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»، أي لا يستطيع أن يزني وهو

مؤمن أن الله مطلع عليه، ناظر إليه، ولمنعه الحياء من الله إن لم يمنعه الخوف من العقاب.

وهناك الشرف، فإذا ربيتم الشاب عليه، وجعلتموه يحس به ويقدره قدره وأفهمتموه معنى المروءة وقيمة العرض، لمنعه من الفاحشة ما كان يمنع الجاهلي الشريف من أن ينظر إلى جارته حتى يواري جارته مأواها.

وهنالك الصحة، فلو عودتموه الرياضة وعرفتموه قيمتها وأنبأتموه أن الله جعل مع العفاف الصحة والسلامة، ومع الفاحشة الضعف والمرض والمصائب السود؛ لاقتصد في اتباع الشهوة، إن لم يكف عنها، ولم ينظر إليها إلا من سبيلها، وسبيلها الزواج.

وهنالك طيب السمعة، وحسن الذكر في الناس، وهنالك الكثير من الأسلحة والحجب[1].

غار حراء

من هذه الصخرة الصماء، سال الماء الذي روّى فيافي الجزيرة، فأخرجت للناس جنات الشام، وبغداد، والقاهرة، وقرطبة، ودهلي.

من هذه القفرة الموحشة استمدت دنيا الحضارة خصبها وفنّها ونماءها.

من هنا، في ظلمة الليالي السود التي كانت تغمر دنيا الناس، قبسنا الشعلة، من هنا أخذنا المنار الهادي فحملناه شرقاً، وحملناه غرباً، فضوّأنا للمدنيّة الخيّرة طريقها خلال القرون.

لقد كان محمد ـ ﷺ ـ يصعد في هذه الجبال، يبتغي فيها الخلوة بالله، ويد الله توجّهه حتى بلغ هذا الغار، فاتّسع على ضيقه لمحمد حتى شمل الدنيا، وندِيَ صخره حتى أنبت الزهر، وكان منه عرش ملك، لا لمحمد، فما كان محمد ـ ﷺ ـ ملكاً، ولا كان طالب ملك، ولكن لأمة محمد.

---

(١) ـ في سبيل الإصلاح / ص ١٠٣ ـ ١٠٥.

لقد ملكنا الدنيا يوماً، بالسلاح الذي حملناه من حراء، وسنبقى ملوكها ما بقي في أيدينا هذا السلاح.

كان محمد - ﷺ - يقضي الليالي وحيداً على فراش الصخر، في الغار الموحش على حين كان ملوك الأرض ينامون على الحرير والريش، في القصور العامرة، وحولهم الخدم والأعوان، ولكن محمداً كان أعزّ في الغار وأكرم، لأنه كان يتطلع إلى السماء وهم ينظرون إلى الأرض فلما اتصل بالسماء ابتلع الغار القصور.

ترك لقريش دنياها حين أوى إلى الغار، لم يأخذ منها إلا مقدار ما يسند جنبه ويمسك صلبه، فأعطاه الله فيه الدنيا والآخرة.

ما انزوى في سرداب في باطن الأرض، ولا في زاوية من زوايا البلد، ولكن اختار أمنع مرقب في أرفع ذروة ليطل على الدنيا من فوق، فيراها صغيرة فيزهد فيها، ويتطلع إلى رحب السموات، وليعلّم أمّته أن الإسلام شرعة السمو، وأنه دين المعالي، وأن السعادة لا تُنال إلا بالمشقة والجهد[١].

خطبة الجمعة

. . . لو كان عُشر هذه المنابر في أيدي جماعة من الجماعات العاملة المنظمة، لصنعت بها العجائب، فما بالنا وهي في أيدينا لا نصنع بها شيئاً؟.

وما أذهب في الاستدلال إلى عرض أوجه الاحتمال، وعندي الواقع الذي ليس فيه جدال، هو منبر رسول الله - ﷺ - وهذه المنابر.

كان للرسول - صلوات الله عليه - منبر واحد: درجات من الخشب، ليس فيها براعة النقش، ولا فيها روعة الفن، وليس عليها قُبّة، ولا لها باب، دعا منه فلبّت الدنيا واستجاب العالم، وترك بها على الأرض أعظم أثر عرفه تاريخ الأرض.

---

(١) - من نفحات الحرم / ص ٢٥ - ٢٦.

وعندنا اليوم مائة ألف منبر مبثوثة ما بين آخر أندونيسيا وآخر المغرب، كلها مزخرف منقوش، استنفد جهد أهل العمارة، وعبقرية أهل الفن، وفيها المكبرات والإذاعات تحمل الصوت منها إلى آفاق الأرض، فيُسمِع خطباؤها الملايين، ولا نرى لها مع ذلك أثراً في إصلاح، ولا عملاً في نهضة.

فما هو السر في تلك القوة، وفي هذا الضعف؟.

تعالوا نفكر في ذلك جميعاً.

نعرض أحوال هذه الخطب ونفتش عن حالها، ولا يغضب مني أحد فما أريد الفضيحة ولا التشهير، إن أريد إلا الإصلاح، وأنا بعدُ واحد من الخطباء لست غريباً عنهم ولا مبرّأ من عيوبهم، وما يُقال فيهم يُقال مثله فيَّ أنا، ومن أجراك مجرى نفسه ماظلمك.

ولو سألت من شئت من المصلّين عن هذه الخطب لسمعت منه طرفاً من عيوبها.

فمن عيوبها: هذا التطويل، وهذا الإسهاب، حتى لَتزيد الخطبة الواحدة أحياناً على نصف ساعة، مع أن السنّة تقصير الخطبة وتطويل الصلاة، وألاّ تزيد الخطبة على سورة من أوساط المفصّل، أي على صفحتين اثنتين فقط.

وهذه خطب الرسول المأثورة، وخطب الصحابة، منها ما هو صفحة واحدة أو أقل من ذلك.

ويا ليت دائرة الإفتاء، أو الأوقاف، تلزم الخطباء بألاّ تزيد أطول خطبة يلقونها عن ربع ساعة.

وأنا أخطب في مسجد جامعة دمشق فلا تمر ثلث ساعة أو خمس وعشرون دقيقة على أذان الظهر، حتى تكون قد انتهت الخطبة والصلاة[1].

---

(١) ـ فصول إسلامية / ص١٢٣ ـ ١٢٤.

من عيوب الخطبة في أيامنا

...ومن أعظم عيوب الخطبة في أيامنا أن الخطيب ينسى أن يقوم مقام رسول الله، ويتكلم بلسان الشرع، وأن عليه أن يبيّن حكم الله فقط لا آراءه هو، وخطرات ذهنه، ويحرص على رضا الله وحده، لا على رضا الناس، فلا يتزلف إلى أحد، ولا يجعل الخطبة وسيلة إلى الدنيا وسبباً للقبول عند أهلها[1].

يا ليت..

يا ليت خطيب كل مسجد يعد لخطب الشهر برنامجاً، يعلقه على باب المسجد، أو يبيّن للناس على الأقل أن خطبة الجمعة القادمة موضوعها كذا، ومدتها كذا، ليكون المصلي على بيّنة من أمره، ويجعل الخطبة الثانية مطلقة، يتكلم فيها عما يجد بعد إعلان موضوع الخطبة الأولى، أو يجعلها موعظة عملية[2].

الشبهات والشهوات

إن أعداء الإسلام دخلوا علينا من بابين: باب الشبهات، وباب الشهوات، والشبهات أخطر بنتائجها لأنها تؤدي إلى الكفر، ولكن الشهوات أشد بطبيعتها إذ أن الشبان لا يستجيب منهم للشبهة إلا قليل، أما ما يثير الغرائز ويحرك الرغبات فيلقى الاستجابة عند الجميع، وإن كان منهم من يصبر ويقاوم، ويطوي جوانحه على مثل النار الآكلة، ابتغاء ثواب الله وخوفاً من عقابه.

الأولى كالمرض الذي يقتل ولكن عدواه بطيئة، والوقاية منه ممكنة، والثانية كالمرض الذي يضني وإن كان لا يفني، ويضعف وإن كان لا يُميت، ولكن عدواه سريعة، والتوقّي منه أصعب.

---

(١) ـ فصول إسلامية / ص ١٢٧.

(٢) ـ فصول إسلامية : ص ١٢٨.

اجمع مائة شاب واجلب لهم عشرة من أقدر الوعّاظ، ليلقنوهم العفاف والصيانة سنة، ثم اجلب لهم راقصة تتعرّى أمامهم، تهدم هذه الراقصة في ربع ساعة ما بناه أولئك كلهم في سنة.

ذلك لأن النفوس مجبولة على هذه الشهوة، إنها غريزة غرزها الله فيها[1].

العربية والإسلامية

الخلاصة أن العربية والإسلامية كدائرتين: صغيرة وكبيرة، إحداهما وسط الأخرى إلا هلالاً دقيقاً، هو موضع الاختلاف بينهما أي أن بينهما باصطلاح أهل المنطق عموماً وخصوصاً عاماً إلا من وجه واحد، هو مسألة المليونين من العرب غير المسلمين، والخمسمائة مليون من المسلمين غير العرب، أيهما أحق بأن نتولاّه؟

وكل ما يقول به دعاة العربية (فيما عدا إنكار الوحي وقطع الأخوة في الإسلام) يقول به دعاة الإسلامية، بل نحن أحق به وأولى، نحن أعلم بالعربية وبتاريخها وأمجادها، ونحن نعمل أكثر منهم على تمجيدها بالإسلام وإعلاء شأنها، ونحن أصدق منهم إن قلنا عن أمة محمد (أمة واحدة ذات رسالة خالدة).

والعجيب أن يظن أحد أننا تخلينا عن القيام بالدعوة إلى العربية، لا. . . ما تخلينا عنها ولكن ندعو إليها تحت راية القرآن التي عز بها العرب وشرفوا وصار لهم في التاريخ ذكر، وفي الدنيا مقام.

إننا نحب العرب لأنهم قوم محمد، واللسان العربي لأنه لسان القرآن، وموطن العروبة لأن فيه مشاعر الحج والقبلة التي يتوجه إليها المسلمون من أقطار الأرض ويدعون إلى الصلاة بلسان العرب الذين نزل بلسانهم القرآن: (حَيَّ على الصلاة، حيَّ على الفلاح)، ولكنا لا ندعو إلى عصبية، ولا نعدل بأخوّة الإسلام أخوة.

---

(١) ـ فصول إسلامية / ص ٩٥ ـ ٩٦.

ونحن ندعو إلى الوحدة العربية، لكن على أن تكون طريقاً إلى الوحدة الإسلامية، ولا ننكر إخواننا في الوطن واللسان من النصارى، لكنا نسألهم ألاّ يطلبوا منا وهم مليونان أن نقطع لأجلهم روابط أخوتنا بخمسمائة مليون مسلم غير عربي، يحبوننا ونحبهم، ويشاركوننا عقائدنا وعباداتنا[٢].

شكل يوضح فكرة الشيخ الطنطاوي حول العربية والإسلامية
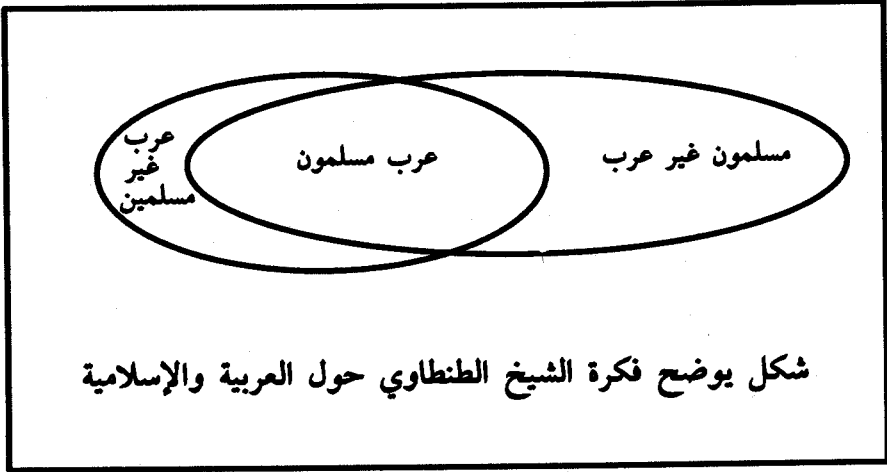
آداب الإحسان

رأيت (البنت) البارحة، قد أخذت شيئاً من الفاصوليا وشيئاً من الرز، وضعتهما في طبق كبير من النحاس، ووضعت عليهما قليلاً من الباذنجان، ورمَت في الطبق (خيارة) وحبات من المشمش... وذهبت به، فقلت: لمن هذا يا بنت؟ قالت: للحارس، أمرتني ستّي أن أدفعه إليه.

ـ قلت: ارجعي يا قليلة الذوق هاتي صينية، وأربعة صحون صغار، وملعقة وسكيناً وكأس ماء، وضعي كل جنس من الطعام في صحن نظيف، فوضعت ذلك كله في الصينية، مع الملعقة والسكين والكأس.

(١) ـ في سبيل الإصلاح / ص ١٣٢ ـ ١٣٣.

ـ وقلت: الآن اذهبي به إليه.

فذهبت وهي ساخطة تبربر وتقول كلاماً لا يُفهم.

ـ فقلت: ويحكِ هل خسرتِ شيئاً؟ إن هذا الترتيب أفضل من الطعام، لأن الطعام صدقة بالمال، وهذه صدقة بالعاطفة، وذلك يملأ البطن، وهذا يملأ القلب، وذلك يذلّ الحارس، ويشعره أنه شحّاذ مُنَّ عليه ببقايا الطعام، وهذا يشعره أنه صديق عزيز، أو ضيف كريم.

وتلك (يا أيها القرّاء) الصدقة بالمادة، وهذه هي الصدقة بالروح، وهذه أعظم عند الله، وأكبر عند الفقير، لأن الفرنك تعطيه السائل، وأنت مبتسم له، أندى على قلبه من نصف الليرة تدفعها إليه، متنكّراً له متكبراً عليه، والكلمة الحلوة تباسط فيها الخادم أبرد على كبده من العطيّة الجزيلة مع النظرة القاسية، وأن تستقبل ـ يا أيها الموظف الكبير ـ رفيقك في المدرسة مرحّباً مؤنساً طارحاً الكلفة مظهراً الألفة، ثم تقضي له بعض حاجته أبرّ به وأسرّ إلى نفسه من أن تقضي له حاجته كلها وأنت متجهّم له، مترفّع عنه، تعامله كما يعامل الموظف الكبير (المراجع) لا يعرفه..

فيا أيّها المحسنون: أَعطوا من نفوسكم كما تعطون من أموالكم، وأشعروا الفقراء أنكم إخوانهم، وأنكم مثلهم، وانزلوا إلى مكانتهم لتدفعوا إليهم الصدقة يداً بيد، لا تلقوها عليهم من فوق، فإن صرّة الذهب إن وُضعت في يد الفقير أغنته، وإن أُلقيَت على رأسه من الطبقة السادسة قتلتْهُ[1]!!.

بشرى

هل يريد أحد منكم أن يتخرّب بيته؟ ستقولون: وما هذا السؤال السخيف؟ لا، طبعاً!

ولكن إذا صدر قانون جاء فيه أن من تخرّب بيته بالسيل أو بالرياح أو

(١) ـ مقالات في كلمات / ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣.

بأي آفة من الآفات التي لا عمل فيها للإنسان، تمنحه الدولة بدلاً عنه قصراً ضخماً في شارع بغداد، ألا تتمنّون حينئذ أن يتخرّب البيت؟

ستقولون الآن: نعم.

لأنكم واثقون من أن الدولة إذا وعدت وعداً بقانون فإنها تفي به، والله عز وجل وهو أصدق من الدولة قولاً وأوثق عهداً، تعهّد للمؤمن بأن يعطيه بكل مصيبة تناله، صغيرة كانت أو كبيرة، من الشوكة التي تشك يده إلى موت الولد وذهاب المال، أجراً ينسى معه المصيبة، ويتمنى لو أنها كانت أكبر، ليكون عليها الأجر أكبر.

روى البخاري ومسلم في الصحيحين أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب، ولا همّ ولا حزن، ولا أذىً ولا غمّ، حتى الشوكة يشاكها إلا كفّر الله بها من خطاياه».

أي أنه إذا جاء يوم القيامة ووضع الميزان ووُزنت الحسنات والسيّئات فقلّت حسناته وكثرت سيئاته رأى المصائب التي كانت أصابته فصبر عليها ورضي بقضاء الله فيها، وقد وُضعت مع الحسنات، فرجحت بالسيئات.

وروى مسلم: «عجباً لأمر المؤمن، إن أمر المؤمن كله خير له، إن أصابته سرّاء (نعمة) شكر (الله عليها) فكان خيراً له (أي كانت حسنة من حسناته) وإن أصابته ضرّاء (مصيبة) صبر عليها فكان خيراً له».

بل إن المصائب من علامات رضا الله عن العبد، لأنها كفارة للخطايا ودفع لعذاب الآخرة.

وروى البخاري عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال:

«من يرد الله به خيراً يُصبْ منه».

وروى أيضاً أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال (في الحديث القدسي):

«ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضتُ صفيّه من أهل الدنيا (أي

مات من هو عزيز عليه) ثم احتسبه (أي صبر ورضي بالقضاء) إلاّ الجنة.

فيا أيّها المصابون المتألّمون، هذه بشارة من رسول الله لكم، فاصبروا حسبةً لتكون لكم الجنّة قبل أن تصبروا سُلُوّاً ونسياناً.

وأي مصيبة لم تُنسَ؟ وأي كبيرة لم تصغر؟ وقد قال رسول الله ﷺ: «الصبر عند الصدمة الأولى»[1].

إرث المرأة

... أما قضية إرث المرأة التي اعترضت بها هذه المحاضرة على الإسلام، فمثلها مثل موظفين اثنين، أعطيت أحدهما ألف ريال ولم تكلّفه شيئاً، وأعطيت الثاني ألفين وكلّفتَه تقديم أشياء ثمنها ألف وخمسمئة، أيهما يكون قد أُعطيَ أكثر؟

فلو مات رجل له ولد وبنت، ويملك ثلاثمائة ألف، فأعطينا الولد مائتين والبنت مائة، يكون الولد هو المفضل في الظاهر، ويكون في هذه القسمة جور وعنصرية، وظلم للمرأة عند من كان قصير النظر، أما من كان نظره سليماً، يرى ما هو بعيد عنه كما يرى ما هو قريب منه، فإنه يدرك أن الولد يتزوّج فيدفع خمسين ألفاً مهراً، والبنت تتزوّج فتأخذ مهراً خمسين ألفاً، فينقص مما أخذ الولد خمسون، ويزيد ما أخذته البنت خمسين، ثم ينفق هو على زوجته فينقص ما معه وينفق عليها هي زوجها فيبقى مالها معها، فلا تمر مدة حتى تصير هي التي تملك الأكثر وهو الذي يملك الأقل[2].

الرضاع

عندي أسئلة تتعلق بالرضاع، فضّلت جمعها والجواب عليها جملة بدلاً

---

(١) ـ فصول إسلامية / ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥.

(٢) ـ فتاوى الشيخ علي الطنطاوي / ص ٦٣.

من أن أُجيب على كل جزئية وحدها، ولا أنقل باب الرضاع من كتاب الفقه، فهو موجود يستطيع مَن طلبَه الوصول إليه، لكن أُجمِل جواب الأسئلة إجمالاً مفهوماً إن شاء الله.

١ ـ (يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب) هذا ما شرعه لنا رسول الله ﷺ، مبيّناً به قول الله تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ﴾ فالله سمّاهنّ أمهات، لأنهنّ مرضعات ﴿وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ سمّاهنّ أَخَوات.

٢ ـ استنبط العلماء من نصوص الشريعة أن التحريم من الرضاع ليس كالتحريم من النسب دائماً، بل إن هناك حالات تحرّم فيها القريبة على قريبها من النسب ولا تحرّم من الرضاع، وسيأتي بيانها.

٣ ـ الطفل الذي لم يتجاوز السنتين من عمره (وذلك هو سن الرضاع) إذا رضع من امرأة صارت أمه من الرضاع، وأولادها كلهم من زوجها الحالي أو زوجٍ لها غيره، قبله أو بعده، صاروا إخوة لهذا الولد من الرضاع، وزوجها الحالي صار أباً له من الرضاع، وأولاده كلهم ولو من زوجةٍ غيرها صاروا إخوة له من الرضاع، وإخوته صاروا أعمام الولد من الرضاع.

٤ ـ أم المرأة التي أرضعت الولد صارت جدته من الرضاع، وأخوها صار خاله، وأختها خالته.

٥ ـ هل تكفي نقطة واحدة من اللبن للتحريم، أم لا بد من خمس رضعات؟ المسألة خلافية، فالحنفية والمالكية قالوا بأن نقطة واحدة تكفي، والشافعية والحنابلة قالوا لا يحرم إلا خمس رضعات.

الأولون أخذوا بعموم الآية، والآخرون أخذوا بالحديث الصحيح، والقولان مرويّان عن بعض الصحابة.

٦ ـ وكان الحكم في المحاكم الشرعية في الدولة العثمانية على

المذهب الحنفي واستمر كذلك في البلاد التي انفصلت عنها، ومنها سورية، فلما وُضع قانون الأحوال الشخصية سنة ١٩٥٣ (وقد وضعت أنا مشروعه كما هو مذكور في مذكرته الإيضاحية) أخذنا فيه بالمذهب الشافعي والحنبلي، أي بالخمس رضعات.

٧ ـ والرضعة المعتبرة هي التي يضع فيها الطفل ثدي المرأة ويرفع فمه عنه بإرادته، طالت المدة أم قصرت.

٨ ـ إذا كان للولد الذي رضع إخوة أو أخوات فإن هذا الرضاع لا يؤثر فيهم، فيجوز لأحد أولاد المرضعة أن يتزوج أخت الولد الذي رضع منها، أي أنه يجوز للرجل أن يتزوج أخت أخيه من الرضاع وأُم هذا الأخ إن لم يرضع هو منها، وأم أخته من الرضاع، وأخت ابنه من الرضاع، واخت بنته من الرضاع.. إلخ، فالذي يرضع من امرأة يدخل هو وحده في أسرتها، لا أخوه ولا أبوه ولا أخته ولا أمّه، ويبقى كل منهم على وضعه الذي كان عليه قبل أن يرضع الولد من هذه المرأة.

٩ ـ الحرمة بالرضاعة لا يُقاس عليها نقل الدم، فإذا نُقل دمُ شخص إلى عروق شخص آخر، كما يكون في حالات المرض ـ لم يترتب عليه حرمة ولا قرابة، ولو كان الدم المنقول إلى عروق المرأة من رجل أجنبي عنها لم تَصِر أختاً له قياساً على الرضاع، ولم تُحرم عليه، ولو نُقل دم امرأة إلى الطفل لم تَصر أماً له قياساً على الرضاع.

١٠ ـ من قال بأن نقطة واحدة من لبن المرأة تكفي لتكون أمه، لم يفرّقوا بين أن يرضع من ثديها أو يشرب لبنها بالملعقة أو الفنجان، أو أن يدخل إلى فمه عن طريق الأنف، المطلوب هو التحقق من وصوله إلى جوفه.

١١ ـ رضاع الكبير لا يؤثر ولا تترتب عليه الحرمة، فلو رضع الزوج من ثدي زوجته لم تحرم عليه.

١٢ ـ امرأة ليس لها زوج أعطت ثديها طفلاً فدرّ عليه اللبن منه

صارت أمّاً له عند أكثر الفقهاء[١].

أمر الطفل بالصلاة

سؤال عن حديث «مُرُوا أولادكم بالصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر» السؤال من الأردن من سلمى السبع (طالبة جامعية).

ـ والجواب: ابن عشر سنين ليس مكلّفاً، المكلّف هو العاقل البالغ ذكراً كان أم أنثى، لكن إذا أطاع الصغير يُثاب ويدّخر الله له الثواب حتى يكبر ويستكمل أهلية التكليف فيضم إلى حسناته، كما يُثاب أبواه، لا لأنه صلى، بل لأنهما أمراه بالصلاة وعوّداه عليها وهذا من الطاعات التي يكافئ الله عليها، ويثاب كذلك معلّمه وكل من شارك في تربيته، وفضل الله يسع الجميع إذا عملوا ذلك لله، وطلبوا به ثوابَ الله، وفي حديث «مروا أولادكم بالصلاة لسبع» حكمة ظاهرة لأن العادات الخيّرة والشرّيرة تغرس بذورها في نفس الولد في هذه السن بل من قبل هذه السن، فإذا تعوّد على الصلاة وهو ابن سبع سنين فسيحافظ عليها، أما قوله: «واضربوهم عليها لعشر» لماذا نضربهم؟ هذا ما تسأل عنه الطالبة الفاضلة، وأنا أقول لها لو أنتِ مستعجلة تريدين الذهاب إلى المدرسة فقلتِ لأخيكِ الصغير: ناولني الحقيبة فلم يفعل فأعدتِ الأمر عليه مرة أخرى فلم يفعل وخمس مرات وهو لا يفعل، أمَا تضربينه؟

فكيف إذا قال الأب لولده الذي بلغ سبع سنين: صلِّ الفجر، فلم يُصلِّ، وكرّر ذلك الظهر فلم يصلّ وبقية الأوقات الخمسة فلم يصل وأعاد ذلك في اليوم الثاني والثالث إلى أن بلغ عشر سنين، أي أنه بقي ثلاث سنين في كل سنة اثنا عشر شهراً في كل شهر ثلاثون يوماً، في كل يوم خمس صلوات، أي أنه أُمر بالصلاة خمسة آلاف وأربعمائة مرة فلم يصلّ. ألا يستحق أن يُضرَب؟

فضربه إذن عقوبة تربوية وليس حدّاً شرعياً[٢].

---

(١) ـ فتاوى الشيخ علي الطنطاوي / ١٧٧ ـ ١٧٩.

(٢) ـ فتاوى الشيخ علي الطنطاوي / ص ٢١٦ ـ ٢١٧.

التصفيق للخطيب

القارئان سالم الزهراني وعبد الهادي دهلوي يسألان عن التصفيق للخطيب في الحفلات هل هو حرام؟

ـ أعمال الدنيا الأصل فيها الإباحة إلا إن ورد نص بتحريمها، أو كانت مقيسة على محرّم بالنص، لوجود علة التحريم فيها، أو كانت تدخل تحت أصل عام من أصول التحريم كالضرر بأنواعه كلها والغش والخديعة وأمثال ذلك.

ومن يدّعي تحريم شيء هو الذي يُطالب بالدليل، وقد ورد في ذم التصفيق أن صلاة بعض الكفار عند البيت كانت مكاءً وتصدية، أي تصفيقاً وتصفيراً، فمن فعله عبادة كان متشبهاً بهم وكان فعله حراماً، وورد أن قوم لوط كانوا يصفّقون للحث على فعل محرّم أو التنبيه إليه، فمن فعله لمثل ذلك كان متشبهاً بهم وكان فعله حراماً، وورد أن من رابه في صلاته شيء وأراد أن ينبّه الإمام: يسبّح الرجل وتصفق المرأة، فالتصفيق لهذا المقصد المشروع جائز ومطلوب في الصلاة، فتبيّن من ذلك أن التصفيق في ذاته ليس محرماً، ولكنه يحرم إن جُعِل عبادة أو وسيلة إلى ارتكاب محرم، وليس في التصفيق للخطيب شيء من ذلك.

أما أن نستبدل به التكبير، فالتكبير أفضل بلا شك لكنه لا يكون في كل موضع يصفق الناس فيه، هل نقول (الله أكبر) للمغنّي إن حط في الأغنية الغزلية محطّاً حرّك أعصابنا وأطربنا؟

هل نقول (الله أكبر) لممثل هزلي أو صاحب نكتة لا تخلو من بعض المجون؟!!

ومن ادّعى التحريم المطلق يُطالب بالدليل[1].

(١) ـ فتاوى الشيخ علي الطنطاوي / ص ٣١٣.

الفَصْلُ الثَّالِثُ

تأملات تاريخية
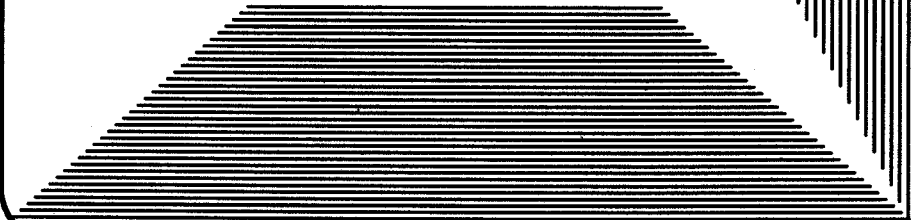
عظمة محمد صلى الله عليه وسلم

... إن من الظلم لمحمد، وإن من الظلم للحقيقة، أن نقيسه بواحد من هؤلاء الآلاف من العظماء الذين لمعت أسماؤهم من دياجي التاريخ، من يوم وُجد التاريخ، فإن من العظماء من كان عظيم العقل ولكنه فقير في العاطفة وفي البيان، ومن كان بليغ القول وثّاب الخيال ولكنه عادي الفكر، ومن برع في الإدارة أو القيادة ولكن سيرته وأخلاقه كانت أخلاق السوقة الفجار[1].

ومحمد - ﷺ - هو وحده الذي جمع العظمة من أطرافها، وما من أحد من هؤلاء إلا كانت له نواحٍ يحرص على سترها وكتمان أمرها، ويخشى أن يطّلع الناس على خَبرها، نواحٍ تتصل بشهوته، أو ترتبط بأسرته، أو تدل على ضعفه وشذوذه، ومحمدٌ هو وحده الذي كشف حياته للناس جميعاً، فكانت كتاباً مفتوحاً، ليس فيه صفحة مطبّقة، ولا سطر مطموس، يقرأ فيه من شاء ما شاء.

وهو وحده الذي أذن لأصحابه أن يذيعوا عنه كل ما يكون منه ويبلّغوه، فرَوَوْا كل ما رأوا من أحواله في ساعات الصفاء، وفي ساعات الضعف البشري، وهي ساعات الغضب، والرغبة، والانفعال.

---

(١) ومن تصفّح سير أدباء الإفرنج رآها كلها كذلك : اسكندر دوماس، وبودلير، وبيرون، وسير قوّادهم كذلك : من نابليون بونابرت إلى أصغر قائد عندهم.

وروى نساؤه كل ما كان بينه وبينهنّ، هاكُم السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ تعلن في حياته وبإذنه أوضاعه في بيته، وأحواله مع أهله، لأن فعله كله دين وشريعة، ولولا أن في القرّاء الشبّان والنساء لسردتُ عليكم طرفاً منها، وكُتب الحديث والسير والفقه ممتلئة بها.

لقد رَوَوْا عنه في كل شيء حتى ما يكون في حالات الضرورة البشرية، فعرفنا كيف يأكل، وكيف يلبس، وكيف ينام، وكيف يقضي حاجته، وكيف يتنظّف من آثارها.

فأروني عظيماً آخر جَرُؤَ أن يغامر فيقول للناس: هاكم سيرتي كلها، وأفعالي جميعاً، فاطّلِعوا عليها، وارووها للصديق والعدو، وليجد من شاء مطعناً عليها؟

أروني عظيماً آخر دُوِّنَت سيرته بهذا التفصيل، وعُرِفت وقائعها وخفاياها بعد ألف وأربعمائة سنة، مثل معرفتنا بسيرة نبيّنا؟.

والعظمة إما أن تكون بالطباع والأخلاق والمزايا والصفات الشخصية، وإما أن تكون بالأعمال الجليلة التي عملها العظيم، وإما أن تكون بالآثار التي أبقاها في تاريخ أمته وفي تاريخ العالم. ولكل عظيم جانب من هذه المقاييس تُقاس بها عظمته، أما عظمة محمد فتقاس بها جميعاً، لأنه جمع أسباب العظمة، فكان عظيم المزايا، عظيم الأعمال، عظيم الآثار.

والعظماء إما أن يكونوا عظماء في أقوامهم فقط، نفعوها بقدر ما ضروا غيرها، كعظمة الأبطال المحاربين والقواد الفاتحين. وإما أن تكون عظمته عالمية، ولكن في جانب محدود، في كشف قانون من القوانين التي وضعها الله في هذه الطبيعة وأخفاها حتى نُعمل العقل في الوصول إليها، أو معرفة دواء من أدوية المرض، أو وضع نظرية من نظريات الفلسفة، أو صَوْغ آية من آيات البيان، قصة عبقرية، أو ديوان شعر بليغ.

أما محمد فكانت عظمته عالمية في مداها، وكانت شاملة في موضوعاتها[1].

خبر من السيرة

في سيرة رسول الله ـ ﷺ ـ خبرٌ قرأتُه ألف مرة، ولكنّي ما انتبهتُ له إلاّ اليوم، هو أنه لما أراد الهجرة إلى المدينة خلّف عليّ بن أبي طالب ليردّ الودائع التي كانت عنده إلى أصحابها!!.

الودائع. . .؟!

كيف كان رجال قريش يستودعونه أموالهم وتحفهم، مع ما كان بينه وبينهم؟.

لقد كان بين محمد وبين قريش لون من ألوان العداء، قلَّ أن يكون له في شدته مثيل، هو يسفّه دينهم، ويسبّ آلهتهم، ويدعوهم إلى ترك ما ألِفُوه، وما كان عليه آباؤهم، وهم يؤذونه في جسده وفي أهله وأصحابه، شرّدوهم إلى الحبشة أولاً، وإلى يثرب ثانياً، وقاطعوهم مقاطعة شاملة، وحبسوهم في الشِّعب ثلاث سنين. . .

فكيف كانوا مع هذا كله يستودعونه أموالهم؟!.

وكيف كان يحفظها لهم؟!.

هل يمكن أن يستودع حزب الشعب مثلاً أمواله رجلاً من الحزب الوطني؟ هل يأتمن الحزب الديمقراطي في أميركا مثلاً عضواً في الحزب الجمهوري على وثائقه؟!.

هل في الدنيا حزبان متنافران متناحران يُودِع أحدهما الآخر ما يخاف عليه من الضياع؟!.

---

(١) تعريف عام بدين الإسلام / ص١٦٩.

هل في تواريخ الأمم كلها رجل واحد كانت له مثل هذه المنقبة؟ رجل يبقى شريفاً أميناً في سِلمه وفي حربه، وفي بغضه وفي حبّه، ويكون مع أعداء حزبه مثله في شيعته وصحبه؟ وتكون الأمانة عنده فوق العواطف والمنافع والأغراض، وتكون الثقة به حقيقة ثابتة، يؤمن بها القريب والبعيد، والعدوّ والصديق؟!.

إنها حادثة غريبة جداً! تدل على أن محمداً ـ ﷺ ـ كان في أخلاقه الشخصية طبقةً وحدهُ في تاريخ الجنس البشري، وأنه لو لم يكن بالوحي أعظم الأنبياء، لكان بهذه الأخلاق أعظم العظماء[1].

سر الهجرة

سيقول قائل: ما لِعُمر يعلن هجرته ويمشي على رؤوس الأشهاد من صناديد قريش، والنبي ـ ﷺ ـ وصاحبه أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ يهاجران مستخفيين؟ أيكون عمر أشجع من النبي ومن أبي بكر؟.

لا والله، ما هو بأشجع منهما، ولقد وقف عمر بين يدي النبيّ ـ ﷺ ـ وهو بعدُ لم يُسلِم، ولم يجيء إلاّ ليقتله، فلما أمسك بتلابيبه ونتره سقط على الأرض، على قدم النبي ـ ﷺ ـ وهو يرتعد من هيبته ﷺ، وكانت الصحابة ـ وفيهم عمر ـ إذا جدّ الجد وحميَ الوطيس ودارت رحى الحرب استتروا بالنبي ـ ﷺ ـ واحتموا به، ولما كانت الرِّدَّة ورمت العرب عن قوس واحدة، وخاف الصحابة وخاف عمر، وأرادوا المسالمة والملاينة، قام أبو بكر وحده في وجه العالم وصارعه حتى صرعه، فكان عمر يعرفها له أبداً.. فعلامَ إذن هاجر عمر جهاراً نهاراً، وهاجرا مستخفيين؟ إن في الأمر لسرّاً، هو غير الشجاعة والجبن، ذلك أن القائد العام عندما ينتقل من جبهة من جبهات الحرب إلى جبهة أخرى لا يقف في الطريق على عدوّ، ولا يلقى حرباً، وإذا رأى نفراً من الأعداء يستتر منهم وينأى عنهم، لأنه إذا سلك سبيل الشجاعة الساذجة، وأقبل عليهم يقاتلهم ضيّع الجيش الذي

(١) مقالات في كلمات / ص ٩١ ـ ٩٢.

ينتظره ولا يعمل إلا به، وخسر المعركة الكبرى لينتصر على نفر من الأعداء في معركة على الهامش، ثم إن فراره لا يُعدّ جبناً ولا عجزاً، وإقدامه لا يُعد شجاعة ولا استبسالاً.

ولقد كان النبي - ﷺ - القائد الأكبر، لا في حرب قريش أو هوازن - فما قريش؟ وما هوازن؟ - ولكن في حرب الشرك والجهل والظلم، في الحروب التي تمتد أبداً بين الحق والباطل، فلا يدافع عن الحق قوم إلاّ كانوا تحت راية محمد ﷺ، فهل يدع مهمته الكبرى لينتصر على نفر من قريش؟.

ذلك هو سرُّ الهجرة[1].

الرسول - ﷺ - والأعمى

... قد فكرت في موقف الرسول - ﷺ - يوم جاءه الأعمى، وقلت لنفسي: لو لم ينزل الله هذه الآيات من ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾، وعرض موقفه على عقلاء الدنيا وساستها وعلمائها، هل كان فيهم أحد يقول بأن في موقف الرسول - ﷺ - ما يُنتقد؟ أم يقرر الجميع أن الذي فعله هو عين الصواب؟.

رجال من كبار القوم يتألفهم ويحاول أن يكسبهم لنصرة الدعوة، فيأتي واحد من أتباعه يسأله عن مسألة ليست مستعجلة ولا ينشأ عن تأخيرها ضرر، وهو يستطيع أن يسأل عنها في كل وقت، فيرجئ جوابه حتى ينتهي مما هو فيه، هل يفعل أحد من الناس غير هذا؟ هل في الدنيا من لا يقول بأن عمل الرسول هو الذي يرونه الصواب؟.

إنه هو الصواب في مقياس المنطق البشري، ولكن لما نزل الوحي بمقياس آخر، تبيّن أن ميزان الله أقوم من موازين الناس، وأن حكم من

(١) قصة حياة عمر / ص ٣٣ - ٣٤.

خَلَق العقل أصح من حكم العقل، بل هو الحكم القويم، وحكم العقل هنا هو المعوجّ المنحرف[1].

مكة

هذه القرية التي كانت متمدّدة وراء الرمال، نائمة في ظلمات الجهل والفقر والجدب فوق ظلمات، لا تدري بها المدن الكبار، ولم يسمع بها التاريخ، هزها بيمينه سيد العبقريّين، وأعظم العظماء، من كان في الأرض سفير السماء وكان إمام الرسل وأفضل الأنبياء: محمد ﷺ.

هزّها، فإذا هذه الرمال المحرقة التي لا تعيش فيها الحياة، تنبت السهول الخصاب، والرياض والجنّات! وإذا هذه القرية الضائعة تلد المدن العظام: الكوفة والبصرة وبغداد والقاهرة والقيروان، وإذا هذه القبائل المتفرقة تُخرج الجيش الذي فتح الشرق والغرب، وملك ثلثي العالَم المتمدّن في ثلث قرن! وإذا هذه الأمة الجاهلية تنجب الأساتذة الذين علّموا الدنيا، وأرشدوا أهلها، أقاموا أعظم حضارة عرفها البشر، حضارة خير وحق وجمال[2].

تاريخنا

إن تاريخنا أعظم تاريخ، ولكننا أمة تجهل تاريخها، هذا التاريخ الذي ليس لأمة مثله، هذا التاريخ الذي يفيض بالحب والنبل والتضحية والبطولة والإيمان[3].

إلى متى..؟

... ربّ عالم كان أبلغ أثراً في عصره من خليفة العصر، وكان أولى

(١) تعريف عام بدين الإسلام / ص١٥٩ ـ ١٦٠.
(٢) هتاف المجد / ص٨٨.
(٣) رجال من التاريخ / ص٩.

أن يُعرف العصر به، ويُنسب إليه، فتقول عصر أبي حنيفة مثلاً، وعصر ابن أبي دؤاد، وعصر أحمد، وعصر الغزالي، وعصر ابن تيمية وابن القيم..

ولست أدري إلى متى يبقى تاريخنا عبداً واقفاً على أبواب الملوك، لا ينظر إلاّ إليهم، ولا يهتم إلاّ بهم، ولماذا لايصير حرّاً، يخالط الشعب ويسجّل مناقبه ويصف أخلاقه[1].

سيرة خالد بن الوليد

سيرة (الجندي) الذي كان منزوياً وراء الرمال، نائماً في وهج الشمس، لا يعرف المجد إلا في الحب والحرب، في كأس خمر أو قصيدة شعر، أو غزوة سلب ونهب، فلما هذّبته مدرسة محمد صيّرته الجندي الأكمل في تاريخ الحروب، لم يعرف التاريخ جندياً أخلص منه لفكرته، ولا أقدم منه إلى غايته، ولا يعرف نفساً أطهر من نفسه، ولا سيفاً أمضى من سيفه، الجندي الذي مشى في كل وادٍ، وصعد كل جبل، خاض البحار، وعبر الأنهار، وجاب الأرض كلها، حتى نصب للإسلام على كل رابية راية، وأبقى للإسلام في كل أرض وطناً لا تقوى على استلابه من أهله مردة الشياطين[2].

سبب عزل خالد بن الوليد

هذا ما خاضت فيه ألسنة تنطق بغير المنطق، وتهرف بما لا تعرف، وتحرّكَت فيه أقلام تتبع الهوى، وتخبط في ظلمات الجهل..

لا.. لم يعزله عن مَوجدة ولا خيانة، ولا بغض ولا انتقام، ولقد كان عمر يحب خالداً ويكرمه، وكان عارفاً بمنزلته، وعالماً بمقدرته، وإنما ضحّى به في سبيل الإسلام، ولقد يبدو هذا القول غريباً ولكنه الصواب، إن الإسلام يقوم على مبدأ التوحيد، على اعتقاد أن الله هو النافع الضار، وأن

---

(١) - قصص من التاريخ / ص ١٢ - ١٣.

(٢) رجال من التاريخ / ص ٤٥.

كل شيء بيده، وأنه لا يعطي غيره ولا يمنع سواه، فخاف أن يتّكل المسلمون على خالد، أو يعتقدوا أنهم يُنصرون به، فيُفتَنوا ويضلوا، وإذا غاب عنهم غُلِبوا وذلّوا، فعزله.

ولقد صرّح عمر نفسه بهذا في مرسوم بعث به إلى الأمصار حين قال:

«إني لم أعزل خالداً عن سخطة ولا عن خيانة، ولكن فُتِنوا به، فخشيت أن يوكلوا إليه ويُبتَلوا به، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع، وأن لا يكونوا بعُرض فتنة».

ومن استعظم عزل خالد، وعدّه كسراً لخاطره، وجحوداً لفضله وعقوقاً، ورآه شرّ جزاء له على أعماله، فإنما رأى ذلك لجهله بأخلاق المسلمين الأولين، وظنّه أن خالداً كان يقاتل من أجل الإمارة، فإذا تركته الإمارة ترك القتال، أو أنه يقاتل من أجل الخليفة رغبةً بوسام يناله ورتبة يحظى بها، فإذا عزله الخليفة انصرف عن الحرب، أو ثار وعارض كما قد فعل القوّاد من غير المسلمين، لم يدرِ أن خالداً كان يقاتل لله ورغبةً بثوابه، فكان سواء لديه أكان جندياً صغيراً أو قائداً عاماً، ولم يبلغ هذا الناقد قول خالد حين وصل إليه العزل: واللهِ لو ولّى عليّ عمر امرأة لسمعتُ وأطعتُ!!.

الله أكبر!! ماهذه النفوس؟!.

أما إنه لا عجب إذا لم نفهمها، ولم ندرك كنهها، فلقد كانت تحلّق في سماء لا تبلغها نفوسنا ولا بالخيال، ولا غرو إن لم نستطع أن نفهم كيف آثر عمر المصلحة العامة فعزل خالداً وهو يُقسم أنه يحبه، وهو صادق في قسمه، وكيف رضي خالد بالعزل وقاتل جندياً كما كان يقاتل قائداً، ولا غرابةَ إن لم يفهم مؤرّخو الغرب والمستشرقون سرّ هذه المسألة، فإنها مسألة رجال هم من طراز لا يعيش في أوربا[1].

---

(١) قصة حياة عمر / ص ٥٧ ـ ٥٩.

لماذا اشتهر هارون الرشيد؟!

الرشيد، الذي كان يحكم وحده حكماً استبدادياً مطلقاً عشرين حكومة من حكومات اليوم.

الرشيد، الذي قال للسحابة أمطري حيث شئتِ فسيأتيني خراجُكِ.

الرشيد، الذي كان يدخل خزانته الخاصة (٤١١) مليون دينار من الذهب كل سنة.

الرشيد، الذي كان صورة من عصره، صورة من بغداد التي فيها كل شيء.

هذا هو الرشيد، الذي جعله الحظ أشهر ملوك الإسلام، انظروا إلى عمل الحظوظ! الحظ هو الذي جعله أكبر ملوك الإسلام اسماً، وأوسعهم ذكراً، وأعظمهم ملكاً، وما كان له دهاء معاوية، ولا مضاء عبد الملك، ولا صلاح عمر بن عبد العزيز، ولا إصلاح الوليد، ولا أعصاب المنصور، لا، ولم يكن في مواهبه وعِظم شخصه، من الوزن الراجح، ولقد كان مروان الثاني، وكان الخلفاء الذين جاءوا قبيل انهيار الدولة العباسية أرجح منه وزناً، وأقوى شخصية كما يقولون، ولكنهم جاءوا والزمان مدبر، وجاء هو في إقبال الزمان[1].

صلاح الدين الأيوبي

هذا الذي أخذ الدنيا بسيف الظفر، ثم جاد بها بيد الكرم، هذا الذي روّع أوروبا مرتين: مرة حين قهر جيوشها بسيفه، ومرة حين شَدَهَ نفوسَها بنبله، هذا الذي كان النموذج الأتم للقائد المنصور، وكان المثل الأعلى للحاكم المسلم، وكان الصورة الكاملة للفارس النبيل والمسلم الصادق، وكان المحرر الأعظم، حرر هذه البلاد، الشام وفلسطين من استعمار الأوروبيّين بعدما استمر نحواً من مائة سنة.

---

(١) رجال من التاريخ / ص١١٩.

هذا الذي انتزع من أصدقائه ومن أعدائه أعظم الإعجاب، وأصدق الحب، وترك في تواريخ الشرق والغرب أكبر الأمجاد، وأعطر السجايا، وكان اسمه من أضخم الأسماء التي رنّت في سمع الزمان، ودوّت في أرجاء التاريخ وخُلّدت على وجه الدهر: «صلاح الدين الأيوبي»[1].

الشجاعة والكرم

كان أجمل صفتين عند العرب يتّصف بهما الرجل: الشجاعة والكرم، أما الشجاعة فلأنهم كانوا يعيشون في بادية، لا حكومة يحتكمون إليها، ولا شرطة يحتمون بها، ومن لم يكن شجاعاً وقوياً أودى به وبماله الأقوياء، ومن لم يكن ذئباً أكلته الذئاب، وأما الكرم فلأنه لم يكن فيهم فندق، ولا في ديارهم مطعم، فمن نزل بقوم فلم يطعموه مات جوعاً، فكانوا يطعمون الغريب ليطعَمُوا وهم غرباء، ومن هنا رسخت هاتان الصفتان في نفوسهم حتى صارتا شعار العربي وأمارته، وعليهما دار فخر شعراء الحماسة، ومدح شعراء المدح، وبقيتا فينا إلى اليوم، فلا تجد خُلُقاً أجل في عيوننا من الشجاعة، ولا حقاً أكبر عندنا من حق الضيف، ولو جاء يشغلك بحديثه الفارغ عن موعد لك لا تستطيع خلافه، أو عمل لا تملك تركه، حتى أن العدو إذا وطيء بساطك محا هذا الوطء ما كان منه من رزايا وأسواء[2].

طه حسين

...أعرف أن طه حسين مولع بالخلاف، مذ كان طالباً في الأزهر، فاستطال عليه طريق التحصيل، فتركه وقفز من فوق السطوح كي يبلغ الغاية بلا كدّ ولا تعب، إلى أن صار (شيئاً) كبيراً يشار إليه بالبنان، ويعجب به الأغرار والشبّان، وأنه ما نال ما نال من ذيوع الاسم وعلوّ المنصب إلا

---

(١) رجال من التاريخ / ص١٩١.

(٢) رجال من التاريخ / ص٣٥٣.

بهذا، لا ببلاغة أسلوب، فأسلوبه أبعد الأساليب عن البيان المشرق، والمعنى البكر، والمجاز العبقري، ولا بتصرف في فنون القول، فليس له إلا ثوب واحد، للشتاء والصيف، والبيت والمدرسة، يخرج فيه إلى الشارع ويدخل به في الفراش، أسلوب واحد للقصة (وما نجح في قصة قط) وللبحث وللوصف (وليس بالوصاف) وللمقالة السياسية، ولا بأثر خالد فكل آثاره من الأدب الوسط، ليس فيها أشباه (الأجنحة المتكسرة) على ضعف أسلوبها، ولا في (المرآة) على تكلف فيها، ليس له صناعة الزيات، ولا استعارة الرافعي، ولا سلاسة المازني، ولا طبع أحمد أمين، ولا فكر العقاد، ولا فتنة الجمال في أسلوب زكي مبارك، ومتى ارتفعت عن عيون الشباب غشاوة التقليد رأوا أن هذا الذي أقول، هو محض حق.

ما عنده إلا المخالفة، إن ذهب الناس يميناً ذهب شمالاً، وإن أقبلوا على شيء أدبر عنه، وإن أدبروا عنه أقبل عليه؛ إن قالوا: إن القرآن حق وصدق، قال هو في الشعر الجاهلي: إن للقرآن أن يحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل ولكن ليس علينا أن نصدق ما يقول القرآن، لأن القرآن ليس كتاب تاريخ! وإن قالوا: امرؤ القيس ومجنون ليلى قال: ما كان قط امرؤ القيس ولا مجنون ليلى، وإن رأوا الأزهر مفخرة مصر وشرفها وعزها قال: اغلقوا الأزهر وأريحونا منه! ولا يريد بذلك كله إلا أن يُتحدث عنه، ولو باللعن، كما يُتحدث عن إبليس، كلما سكت عنه الناس طلع بحماقة جديدة من حماقاته فتكلّموا فيه، والدليل على أن هذا مراده، وأنه لا يعتقد شيئاً وأنه ليس مؤمناً ولا كافراً، ولا محافظاً ولا مجدداً وإنما هو طالب (شهرة)[1].

إنه يرجع آخراً فيكذب نفسه في كل ما قاله، أولاً: كذّب القرآن ثم رجع يصدق القرآن، وأنكر الشعر الجاهلي ثم عاد يشرح الشعر الجاهلي، وسينسى غداً ما قاله في إغلاق الأزهر، ويكون من خطباء الاحتفال الكبير

(١) أصل الشهرة في اللغة: الفضيحة. وفي الحديث: «من لبس ثوب شهرة ألبسه الله ثوب مذلّة».

بانتصار الأزهر على هذه الحملة الجديدة، كما انتصر من قبل على حملات لا تُعد هذه إن قيست بها شيئاً...»[1].

عِبرة

يا من يفتّش في الكتب عن العِبر! يا من يبحث في خرائب التاريخ، تعالوا؛ فإن هاهنا عبرة ما في التاريخ أجلّ منها، وما في الكتب مثلها، تعالوا فشاهدوا واعجبوا واعتبروا..

هذا الذي تكبّر وانتفخ حتى ما تسعه ثيابه، وما يحتويه جلده... هذا الذي تطاول وتعالى حتى ما يجد محلاً يرتقي إليه... ولا علا فوق علوّه.. هذا الذي طغى وبغى حتى استلب فراش هيلاّ سلاسي من تحته، وطرده من بيته، هذا الذي تجبّر وتنمرد حتى ألقى الشيخ المجاهد الصالح عمر المختار من الطيارة فتلقّته الأرض، أرضه وأرض قومه، أشلاءً ومزقاً، هذا الذي جن من الكبر، وحمَّ حتى صار يهذي في حُمّاه، ويثرثر في جنونه، يقول: أنا حامي الإسلام!

تعالوا انظروا إليه أسيراً ذليلاً يُقاد إلى الموت، بأيدي قومه، قد طار هواء الكبر من جوفه، فانحنى واستخذى وهبط من بعد علاه إلى الحضيض، ونزل من يفاعه إلى القاع، فمن كان يظن أن موسوليني سيكون أسيراً في بلاده يُساق إلى المشنقة؟

ألا لا يأمننَّ بعد اليوم ظالم، ولو مدّ الله له ومنحه قوة وأعطاه مالاً، ولا ييأسنَّ مظلوم ولو ابتلاه الله فقدر عليه الضعف وكتب عليه الفقر، ولا يفتحنَّ فمه ملحد فاجر، فإن لهذا الكون إلهاً منتقماً جباراً عادلاً، يُمهل ولا يهمل، ويمد للظالم ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر[2].

---

(١) فصول إسلامية / ص٢٥٧.

(٢) هتاف المجد / ص ١٤٨ ـ ١٤٩.

حقيقة المدنية

إن الإنجليزي أو الفرنسي، لا يتأخر عن شكرك إن ناولته المملحة على المائدة، ولا يقصّر في الاعتذار إليك إن داس على رجلك خطأً في الطريق، وإن رأى كلباً مريضاً تألّم عليه وحمله إلى الطبيب، وهو أنيق نظيف مهذّب اللفظ لا يستهين بذرّة من هذه الآداب، ولكنه لا يجد مانعاً يمنع رئيس وزرائه أن يأمر فيصب النار الحامية على البلد الآمِن، فيقتل الشيوخ والنساء والأطفال، ويدمر ويخرب ويذبح الأبرياء، ويفعل ما لا تفعله الذئاب ذوات الظفر والناب، ويدّعي أنه هو المتمدّن؟!

أهذه هي المدنية؟ إن كانت هذه المدنية وهؤلاء هم المتمدّنين فلعنة الله على المدنيّة وعلى أهلها[1].

(١) هتاف المجد / ص ١٠٧ ـ ١٠٨.

الفَصْل الرّابِع

مواقف وذكريات

أول خطب نزل بي

... كرّت بي الذكرى إلى سنة ١٩١٤م إلى أول خطب من خُطوب الدهر نزل بي، لا أعني الحرب العامة فلم تكن تلك الحرب قد أُعلنت، وما كنت يومئذ لأفقه معنى الحرب أو أبالي بها، ولكن أعني ما هو أشد وأفظع! أشد عليّ أنا! ذلك هو أول دخولي المدرسة! لقد كان يوماً أسود لا تمحى من نفسي ذكراه، ولا أزال إلى اليوم كلما ذكرته أتصوّر روعه وشدته، لقد كرّه إليّ المدرسة وترك في نفسي من بغضها ذخيرة لا تنفد، ولقد صرت من بعد معلّماً في الابتدائية ومدرساً في الثانوية، وأستاذاً في الجامعة، وعلّمت الكبار والصغار، والبنين والبنات، وما ذهب من نفسي الضيق بالمدرسة والفرح بالخلاص منها، والأنس بيوم الخميس واستثقال يوم السبت، وما ذهبت إلى المدرسة مرة إلاّ تمنّيت أن أجدها مغلقة أو أجد فيها إضراباً يعطل الدروس.

لقد أخذني جدي معه ذلك اليوم إلى جامع التوبة، فصلى الصبح ولبث حيناً، ثم أدخلني باباً يقابل الجامع، وكنت في ضياء الصباح، وسنا الشمس، فلبثت في ذلك المكان دقائق وأنا لا أبصر ما فيه ولكن أنفي لمس رائحته العفنة المنتنة، ونشق هواءه الآسن، ثم أبصرت المكان، فإذا هو غرفة فسيحة فيها عشرات من الأولاد قاعدون على الأرض يهتزون ويتمايلون، يحملون في أيديهم كتباً ينظرون فيها، ويصوتون أصواتاً متنافرة كأنها دوي النحل منقولاً من مكبر للصوت، وتحتهم دكة واطية من الخشب تنتهي قريباً من الباب وأمامها أرض مكشوفة موحلة، قد صُفّت إلى جوانبها

القباقيب، وإلى اليسار عجوز مخيف على كرسي عالٍ، بيده عصا طويلة يضرب بها الأولاد ينال بها من كان في آخر المكان...

هنالك تركني جدي، فما أغلق الباب وراءه وذهب حتى أحسست كأن قلبي قد ذهب معه، وكأن قد أُغلق عليّ قبر، وعراني من الوحشة والفزع ما لا أزال أرتجف إلى الآن كلما ذكرته، هذه هي المدرسة التي كانت في أيامنا.

كان على التلاميذ أن يكونوا فيها بُعيْد مطلع الشمس، وأن يبقوا فيها إلى قبيل الغروب، قاعدين لا يتحركون ولا يتكلمون، ولا يكفون عن القراءة والتمايل، يحملون أكلهم معهم فيأكلون وهم قاعدون، وإذا عطشوا قاموا إلى البركة فوضعوا أفواههم في مائها الملوث وعبّوا مثل الجمال، وإذا كانت لهم حاجة ذهبوا إلى مراحيض المسجد، والمكان مغلق دائماً، لا يُفتح له باب ولا نافذة ولا يُجدَّد له هواء، ولا يمضي على الولد فيه يوم لاتصيبه فيه من الشيخ بليّة، خفقة بالعصا على رأسه من بعيد، أو ضربات على رجليه بالفلقة من قريب، أو (مونولوج) كامل من أبدع الهجاء يقرع أذنيه...

ولقد كان من المناظر المألوفة كل صباح، منظر الولد (العصيان) وأهله يجرّونه والمارّة وأولاد الطريق يعاونونهم عليه، وهو يتمسّك بكل شيء يجده، ويلتبط بالأرض، ويتمرّغ بالوحل وبكاؤه يقرّح عينيه، وصياحه يجرّح حنجرته والضربات تنزل على رأسه، يساق كأنه مجرم عاتٍ، يرى نفسه مظلوماً، ويرى الناس كلهم عليه حتى أبويه، فتصوروا أثر ذلك في نفسه، وعمله في مستقبل حياته![(١)].

جواب على كتاب

يحمل إليّ البريد كل أسبوع نحواً من ثلاثين رسالة، يبعث بها إليّ

---

(١) من حديث النفس / ص ٣٦ ـ ٣٧.

سامعوا أحاديثي في الإذاعة، وقُرّاء مقالاتي في الصحف، ولكني لم أجد فيها كلها مثل الرسالة التي تلقّيتها أمس، رسالة من أم، جاءتني في (يوم الأم) ليس فيها من فصاحة اللفظ شيء ولكنها في البلاغة آية من الآيات، وهل البلاغة إلا أن تقول ما يصل بك إلى الغاية ويبلغ بك القصد؟

تقول هذه الأم أنها سمعت بعيد الأم، ولكنها لم تره، وعرفت شقاء الأم بالولد، ولكنها لم تعرف بر الولد بالوالدة، وهي لا تشكو عقوق ولديها، فهما صغيران ما بلغا سن العقوق، ولكنها تشكو ضيق ذات اليد وفقد المسعد والمعين، وأنها تصبر النفس حيناً ويتصرّم أحياناً صبرها، وتسألني أتطلق الولدين من أسار المدرسة وتبعث بهما يتكسبان دريهمات تعينها على العيش؟ وتسأل ماذا تجني منهما إن درسا وهي لا تملك ثمن كساء المدرسة ولا نفقاتها؟ فكيف يستطيعان أن يكملا الدرس ويتما التحصيل وهما بالثوب البالي والجيب الخالي.

وما تمنّيت أن أكون غنياً إلا اليوم، لأستطيع أن أواسيها باليد والمال، لا بالقلم واللسان، ولكني أديب، والأديب لا يملك إلا قلبه ولسانه، وهاتان كلمتان من القلب كلمة لها هي، وكلمة للقرّاء.

أما الكلمة التي هي لكِ فأحسب أنها تبدو للناس غريبة لأن الأدباء ما تعوّدوا أن يقولوا مثلها، لأنهم لا يجرؤون أن يعرضوا على الناس حقائق صورهم ليراهم الناس كما هم، بل يعرضون صوراً محررة مزوّقة قد بدّلها (رتوش) المصور وفنه، وقد تكون أحلى وأجمل ولكنها ليست صورهم، إنهم لا يكشفون للقراء قلوبهم ولكن يعرضون عقولهم، وإن كان هذا الذي أقوله اليوم؛ سنة عند أدباء الإفرنج من سنن الأدب المسلوكة لا بدعة من البدع المتروكة..

إنها قصة، ولكن لم يخترعها خيال كاتب، ولم يؤلفها قلم أديب بل ألفت فصولها الحياة، وجئت أرويها كما كانت...

أرويها لتعلمي وتعلم كل أم بائسة، وكل ولد نشأ في الفقر أن المجد والعلاء رهن بأمرين:

بتوفيق الله أولاً، والله يوفق كل عامل مخلص. وبالعلم والجد ثانياً.

واسمعي الآن القصة:

كان في دمشق من نحو أربعين سنة عالِم جليل القدر، كريم اليد، موفور الرزق، داره مفتوحة للأقرباء والضيوف وطلبة العلم، وموائده ممدودة، لما أضاق الناس في الحرب العالمية الأولى وسّع الله بفضله عليه فلم يعرف الضيق، وكان من ذوي المناصب الكبار والمكانة في الناس.

ونشأ أولاده في هذا البيت، لا يعرفون ذل الحاجة ولا لذعة الفقر، ولكنهم أصبحوا يوماً - من أيام سنة ١٩٢٥م - الولد الكبير البالغ من عمره ست عشرة سنة وإخوة له تتراوح أعمارهم بين عشر وبين شهر، فإذا بالوالد قد توفي!

وارتفع الستر، فإذا بالتركة ديون للناس، فباعوا أثاث الدار كله ليوفوا الدين، ثم تركوا الدار الفسيحة في الصالحية، ونزلوا تحت الرصاص - وكانت أيام الثورة - يفتشون عن دار يستأجرونها، فوجدوا داراً... أعني كوخاً... زريبة بهائم، مخزن تبن في حارة الديمجية، هل سمعتِ بها؟ في آخر العقيبة، قرب المكان الذي يسميه الناس من التوائه وضيقه (محل ما ضيّع القرد ابنه) هذا هو اسمه، صدّقيني.

في غرفتين من اللّبِن والطين، في ظل دار عالية لأحد موسري الحارة، تحجب عن الغرفتين الشمس والضياء، فلا تراهما قط الشمس، ولا يستطيع أن يدخلهما الضوء، ليس فيهما ماء إلا ماء ساقية وسخة عرضها شبران وعمقها أصبعان، تمشي مكشوفة، من (تورا) في الصالحية إلى هذه الحارة، تتلقى في هذا الطريق الطويل كل ما يلقى فيها من الخيرات الحسان... وليس فيها نور إلا نور مصباح كاز، نمرة ثلاثة... يضيء تارة (ويشحر) تارات.. والسقف من خشب عليه طين، إن مشت عليه هرة ارتجّ واضطرب، وإن نزلت عليه قطرة مطر وكف و (سرب).

هنالك على أربعة فرش مبسوطات على الأرض متجاورات، ما تحتهنّ سرير تغطيهن البسط والجلود، كان ينام هؤلاء الأولاد، الذين رُبوا في

النعيم، وغُذوا بلبان الدلال، تسهر عليهم أم مثلكِ، حملت ما لم تحمله أم، تدرأ عنهم سيل البق الذي يغطي الجدران، وأسراب البعوض التي تملأ الغرفة، والماء الذي ينزل من السقف، تظل الليل كله ساهرة تطفيء بدمع القلب حرق القلب، تذكر ما كانت فيه وما صارت إليه، والأقرباء الموسرين الذين لم يكونوا يخرجون من دار الوالد، كيف تخلّوا عن الأولاد، وأنكروهم حتى جاؤوا يوماً يزورون جار الدار الموسر يهنئونه بالعيد، ولم يطرقوا واللهِ عليهم الباب، لم يعِنها أحد ولم يسعدها إلاّ أخ لها في مصر[1] أمدها بجنيهات مصرية قليلة لم يكن يطيق أكثر منها.

في هذا الجو يا سيدتي... وماذا تظنّين هذا الجو؟ فيه أقبل الولد وإخوته على الدرس والتحصيل.. وكانت أطراف البلد للثوار، ليس للفرنسيّين إلا وسط المدينة، فكانوا يمرون على الموت في طريقهم إلى المدرسة كل يوم، يخترقون جبهة الحرب ـ الاستحكامات ـ القائمة أمام جامع التوبة، وصبروا ووثقوا بالله ووفّقهم حتى صاروا... ماذا تقدّرين أنهم صاروا الآن؟

صار الولد الثاني قاضياً، وصار أديباً وشاعراً مصنفاً، والثالث استاذاً كبيراً في الجامعة وأول من حمل لقب دكتور في الرياضيات في سورية، والرابع مدرساً موفقاً وداعية وأديباً، أما الولد الأكبر فلا أقول عنه شيئاً لأن شهادتي فيه مردودة، فهو صديقي الذي لا أفارقه أبداً، والذي أكون معه ليلي ونهاري وأراه كلما نظرت في المرآة، وهو فوق ذلك يحمل اسماً مثل اسمي.

وما قصصت هذه القصة إلا تسلية لكِ وتهويناً عليكِ، ولتوقني أنه ربما كان ينتظر ولديكِ هذين اللذين لا يجدان الغذاء والكساء، ينتظرهما مستقبل يحسدهما عليه أبناء الأغنياء.

فقولي لولديكِ ألاّ يخجلا إن لم يجدا الثوب الأنيق، ، أو الكتاب

(١) هو الأستاذ محب الدين الخطيب الكاتب الكبير المعروف.

الجديد، أو المال الفائض، فإن أكثر النابغين كانوا من أبناء الفقراء... وكاتب هذه السطور ـ وإن لم يكن من النابغين الذين تُضرب بهم الأمثال ـ كان يجيء إلى المدرسة الثانوية بالبذلة التي فصلتها له أمه من جبّة أبيه، وقد عجز عن أداء رسم شهادة الحقوق فساعده عليه بعض المحسنين.

وأنا أعرف واللهِ في أعلام البلد اليوم من نشؤوا في أشد الفقر، ثم نالوا بالعلم أوسع الغنى وأعلى المناصب، ولو كنت أعلم الرضا منهم بذكر أسمائهم لسمّيت لكِ خمسة أسماء، كلها على طرف لساني الآن، وأنا أعرف محكمة صار ابن آذنها قاضيها، وابن رئيسها (شيئاً) كالآذن فيها.

أما الكلمة التي هي للقرّاء، الذين كانوا الليلة البارحة ـ عندما أرعدت السماء وأبرقت ونزلت على الأرض ـ كانوا على المقاعد المريحة في الغرف الدافئة، فلم يعرفوا ما حال الفقراء في تلك الليلة.

إني أقول لهم:

إن في البلد، في حيّكم، بين جيرانكم كثيرات من أمثال السيدة التي كتبت إليّ... وإن في البلد من يرتجف هذه الليلة من البرد، في البيوت التي ثلجها الشتاء، لا يلقى جمرة مشتعلة، وإن هناك تلميذات وتلاميذ يقرؤون بعيون تزيغ من الجوع والقرّ، ويكتبون بأصابع محمرّة من البرد، وإن في هؤلاء من لو أُمِدَّ بالطعام واللباس، وأُعِين على الدراسة، لكان عبقرياً تعتز به الأوطان، وتسمو الأمم، واذكروا أن بين أجراء الخبازين وصبية المحامين من خُلق ليكون من كبار العلماء وأفراد النابغين، ولكن الفقر عطّل مواهبه وسد أمامه طريق النبوغ، فلم يجد ذكاؤه مسرباً يسرب منه إلا الإجرام.

إن أكثر المجرمين الذين يسكنون السجون كانوا صبية أذكياء، ولكن المجتمع قال لهم حرام عليكم الدرس والتحصيل لتكونوا من أفذاذ المثقفين، فكونوا إذن من أذكياء المجرمين.

إن الذي ينفقه الأغنياء على الترف والسرف يكفي لتعليم كل ولد في البلدة، وإطعام كل جائع وإسعاف كل فقير.

إن عرساً واحداً من أعراس الموسرين الكبار تكفي نفقاته لإطعام عشر

عائلات شهراً كاملاً، وما يُنفق على أكاليل الزهر في الجنائز، وباقات الورد في الأفراح يفتح كل سنة مستشفى مجانياً للفقراء، وأثمان علب الملبّس في الموالد، تنشىء كل سنة مدرسة تتسع لخمسمائة تلميذ، وما تشترى به هذه الثريات الفخمة، وهذه التماثيل، وما يُنفق في الولائم والحفلات، وما يُصرف في الملاهي والموبقات يكفي لسد حاجة كل محتاج.

وأنا لا أقول دعوا هذا كله فإنكم لن تفعلوا، ولكن اجعلوا من أموالكم نصيباً لهؤلاء المعذبين في الأرض.. زكّوا عن أموالكم فإنكم لا تدرون هل تدوم لكم، أو تذهب عنكم.

وهل أخذ أحد على الدهر عهداً أن لا تحول عنه الحال، وأن لا يذهب من يده المال؟ ومن الذي جعل لولد الغني الحق في أن يبقى أبداً سيداً، يعطَى ما يطلب، وينال ما يريد، وكتب على ولد الفقير الفقر والشقاء أبداً؟

ومن يثق بأن ولده لن يحتاج غداً إلى ولد الفقير، يسأله ويرجو رفده؟. وإذا وثقتم ببقاء المال فهل تثقون ببقاء الصحة؟ أتأمنون الأمراض والنوازل والنكبات؟.

فاستنزلوا رحمة الله بالبذل، وادفعوا عنكم المصائب بالصدقات.

وأنا لا أخاطب أرباب الآلاف المؤلفة فقط، بل أخاطب القراء جميعاً، إن الناس درجات، أما تفرح إن أعطاك صاحب الملايين ألف ليرة؟ فاعطِ أنت المعدمَ عشر ليرات، إنَّ اللّيرات العَشر له كالألف لك، والألف عند (المليونير) كالعشر عندك، والثوب القديم الذي تطرحه قد يكون ثوب العيد عند ناس آخرين، فلماذا لا تسرهم بشيء لا يضرك ولا تحس بفقده؟ ولو أن كل امرئ يعطي من هو أفقر منه لما بقِى في الدنيا محتاج.

فيا أيها القراء أسألكم بالله لا تدعوا كلمتي تذهب في الهواء، فإني واللهِ ما أردتُ إلاّ الخير لكم، ويا أيتها الأم التي كتبت إليَّ ثقي بالله؛ فإن الله لا يضيع أحداً أبداً[1].

---

(١) من حديث النفس / ص ٢٢ ـ ٢٦.

سطور من حياتي

لقد فقدت أبي وأنا في مطلع الشباب، واضطررت إلى أن أكتسب قبل سن الاكتساب، وتعلمت ودرست على ضيق الحال وقلة الأسباب، وأكرمني الله فعلمني وكفاني، فما أحوجني أن أمد يدي يوماً إلى أحد ممن خلق الله.

ودخلت سوق الأدب قبل أن تزدحم بالقصّاد، فكنت فيها من الروّاد، وسار اسمي في الناس وأنا لم أخلع بعد رداء الشباب، وأغدق الله نعمه عليّ بلا حساب، فيا ربِّ لك الحمد.

وكنت أرجو كما يرجو كل شاب أن يتزوج، ولكن ليس في يدي ما أتزوج به من المال، فحملني الله إلى بغداد حيث جمعت منها ماقدرت به على الزواج، ورزقني النسل، ولكنه صنّفني في الصنف الأول ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۝٤٩ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ﴾ فسُررت بالبنات، ورأيتهنَّ من أجمل الهبات، وما أعدل ـ صدقوني ـ بواحدة منهن اثنين من الذكور، لو رزقني الله ذكوراً، ولقد استأثر الله بإحداهنّ فأكرمها بالشهادة فصبرت ورضيت، وأرجو أن يرزقني الله ثواب الصبر وأن يديمه عليَّ، وجعلهنّ جميعاً ـ وله الحمد ـ صالحات متعلّمات، داعيات إلى ما يرضي الله.

وتزوّجنَ، ورُزِقن بنين وبنات، صالحين وصالحات، وتزوج أبناؤهنّ وبناتهنّ ورُزقن ذرية أفضل الله علينا فجعلها صالحة، فصارت بناتي جدّات، وصِرنَ يقلنَ لحماتي التي توفاها الله من شهرين اثنين، المرأة الصالحة بنت مَن كان يُدعى في الشام المحدّث الأكبر، وكان كبير العلماء الشيخ بدر الدين، حتى صارت حفيدتي تقول لها كما جاء في المثل: (يا ستّي كلّمي ستّك) أي: (يا جدتي اذهبي إلى جدّتك).

وضاق بنا بلدنا، البلد الذي أحببته حباً قلّ أن يحب مثله أحدٌ بلده، وكتبت عنه ما لم يكتب مثله ابن بلد عن بلده، ثم قضى الله أن أحرم منه وأن أبعد عنه، فنزلت بلداً أشرف منه شرفاً، وأعلى عند الله مقاماً، نزلت

أحب بلاد الله إلى الله: مكة أم القرى، مشرق النور ومنبع الإسلام[1].

أول مقالة نشرتها

... أقول: إني أحسست بعد قراءة ما ذكرت من الكتب بشيء تجيش به نفسي، فنفّست عنها بمحاولة الكتابة فاستوى لي مقال، نسيت اليوم موضوعه، قرأته على رفيقي أنور العطار وكان يومئذ يجرب قول الشعر، فأشار عليَّ أن أنشره فاستكبرت ذلك، فما فتئ يزينه لي حتى لنت له، وغدوت على (إدارة) المقتبس، وكانت في شارع السنجقدار العظيم الذي صار خرائب وأطلالاً، فسلّمت على أبي بسام الأستاذ أحمد كرد علي ـ رحمه الله ورحم جريدته ـ ودفعت إليه المقال، ولم يكن من إخواننا من يعرف طريق صحيفة أو يجرؤ على النشر فيها، وكنا يومئذ متلبسين بجريمة الحياء التي أقلع عنها شباب اليوم، والحمد لله الذي لا يُحمد على المكروه سواه،، فنظر في المقال فرأى كلاماً مكتهلاً ناضجاً، ونظر في وجهي فرأى فتىً فطيراً، فعجب أن يكون ذاك من هذا، وكأنه لم يصدقه فاحتال عليَّ حتى امتحنني بشيء أكتبه له زعم أن المطبعة تحتاج إليه فليس يصح تأخيره، فأنشأته له إنشاء من يسابق قلمه فكره، فازداد عجبه مني، ووعدني بنشر المقال غداة الغد، فخرجت من حضرته وأنا أتلمّس جانبي أنظر هل نبتت لي أجنحة أطير بها لفرط ما استخفني السرور، ولو أني بويعت بإمارة المؤمنين ما فرحت بأكثر من فرحي بهذا الوعد، وسرت بين الناس وكأني أمشي فوق رؤوسهم تعالياً وزهواً، وما أحسبني نمت تلك الليلة ساعة، بل لبثت أتقلب على الفراش أتصور أي جنة من جنات عدن سوف أدخل في غداة الغد... أي كنز سأجد، وجعلت أترقب الصباح ولا ترقُّب عاشق متيّم ينتظر وصلاً بعد طول الهجران، حتى إذا انبثق الصبح وأضحى النهار أخذت الجريدة فإذا فيها المقال وبين يديه كلمة ثناء لو قيلت للجاحظ لرآها كبيرة عليه...[2]

---

(١) ذكريات الشيخ : علي الطنطاوي (جـ٨) / ص٢٦ ـ ٢٧.

(٢) من حديث النفس / ص ١٤٩ ـ ١٥٠.

وطني

وُلِدتُ في دمشق، وأصلي من مصر، وقلبي متوجّه دوماً إلى مكة كلما قمتُ بين يدي ربّي، وانتسابي إلى كل بلد مسلم، وحبي لكل قطر عربي، ووطني حيث يُتلى القرآن، ويصدح بالأذان، وتقوم صفوف المؤمنين بين أيدي الرحيم الرحمن[1].

دمشق

(دمشق!) وهل توصف دمشق؟ هل تصور الجنة لمن لم يرها؟ من يصفها وهي دنيا من أحلام الحب وأمجاد البطولة وروائع الخلود؟ من يكتب عنها - وهي من جنات الخلد باقية - بقلم من أقلام الأرض فانٍ؟

دمشق التي يحضنها الجبل الأشم الرابض بين الصخر والشجر، المترفّع عن الأرض ترفُّع البطولة العبقرية، الخاضع أمام السماء خضوع الإيمان الصادق.

دمشق التي تعانقها الغوطة، الأم الرؤوم الساهرة أبداً تصغي إلى مناجاة السواقي الهائمة في مرابع الفتنة، وقهقهة الجداول المنتشية من رحيق بردى، الراكضة دائماً نحو مطلع الشمس[2]، تخوض الليل إليها لتسبقها في طلوعها؛ وهمس الزيتون الشيخ الذي شيبته أحداث الدهر فطفق يفكر فيما رأى في حياته الطويلة وما سمع، ويتلو على نفسه آيات حكمته؛ وأغاني الحور الطروب الذي ألهاه عبث الشباب ولهو الفتوة عن التأمّل والتبصر، فقضى العمر ساحباً ذيل المجون مائساً عجباً وتيهاً، خاطراً على أكتاف السواقي، وعلى جنبات المسارب، يغازل الغيد الحسان، من بنات المشمش والرمان، ويميل عليها ليقطف في الربيع وردة من خدها، أو ثمرة من قلائد نحرها، ثم يرتد عنها يخاف أن تلمحه عيون الجوز الشواخص، والجوز ملك الغوطة جالس هناك بجلاله وكبريائه، جلال ملك تحت تاجه، وعاهل فوق عرشه.

---

(١) ذكريات الشيخ : علي الطنطاوي (جـ٥) / ص ١٧٣.

(٢) يجري بردى من الغرب إلى دمشق.

دمشق التي تحرسها (الربوة) ذات (الشاذروان) وهي خاشعة في محرابها الصخري، تسبح الله وتحمده على أن أعطاها نصف الجمال حين قسّم في بقاع الأرض كلها النصف الثاني[1].

أقدم مدن الأرض

وما الربوة إلا حلم ممتع غامض يغمر قلب رائيه بأجمل العواطف التي عرفها قلب بشري، فيذكّر كل إنسان بليالي حبه، وساعات سعادته، ثم يتصرّم الحلم ويستحيل إلى ذكرى حلوة لا تمحوها الأحداث، ولا تطغى عليها سيول الذكريات، الربوة لحن من ألحان السماء ألقته مرة واحدة في أذن الأرض، الربوة هي الربوة لمن يعرفها وكفى!

دمشق أقدم مدن الأرض قدماً، وأكبرها سناً، وأرسخها في الحضارة قدماً، كانت مدينة عامرة قبل أن تولد بغداد والقاهرة وپاريس ولندن، وقبل أن تنشأ الأهرام ويُنحت من الصخر وجه أبي الهول، وبقيت مدينة عامرة بعدما مات أترابها واندثرت منهنَّ الآثار، وفيها تراكم تراث الأعصار، وإلى أهلها اليوم انتقلت مزايا كل من سكنها في سالف الدهر، ففي نفوسهم من السجايا مثل ما في أرضها من آثار التمدّن وبقايا الماضي طبقات بعضها فوق بعض، فالحضارة تجري في عروقهم مع الدماء، وهم ورثتها وحاملو رايتها، وهي فيهم طبع وسجية، ولقد تكون في غيرهم تطبّعاً وتكلّفاً، فأي مدينة جمع الله لها من جمال الفتوة، وجلال الشيخوخة، كالذي جمع لدمشق[2].

العيد في الأموي

دخلت فوجدت في المسجد متعة لم أجد مثلها في لهو كنت أتخذه، أو متعة كنت أُسَرّ بها، وجدت ـ ولم أكن أدري ـ متعة الدين والدنيا إذا

---

(١) كتاب دمشق / ص٧.

(٢) كتاب دمشق / ص ٨.

اجتمعا - الكثرة والألفة، والثياب البراقة والنظافة والنظام، والتقى والإخلاص، والغني السمح الشاكر والفقير المتجمّل الصابر، والمعاونة على الخير، والمواساة والإيثار.

وكان في المسجد نساء اجتمعن في (المشهد[1]) بالأزر البيض والملاءات الساترة، ما يظهر منهنّ عين ولا بنان ولا ساق، قد جئنَ للصلاة.

كذلك كان بلدنا قبل أن تبلغه هذه (الحضارة) الجديدة، كذلك كان يوم كان أهله متأخرين جامدين، فيا ليته يعود كما كان، يا ليتنا بقينا متأخرين عن هوّة الفساد لم نُقدِم عليها، جامدين لم نعرف هذا الميع، إن الجامد يتماسك ويثبت، أما المائع فيسيل ويجري في البلّوعة[2]... أفعرفتم الآن مصيركم يا أيها (المائعون)؟[3]

صديقي رمضان

إني لا أشتهي شيئاً إلا أن أعود طفلاً صغيراً لأستمتع بجو المسجد في رمضان، وأنشق هواءه، وأتذوق نعيمه، لم أعد أجد هذا النعيم، وما تغيّرتُ أنا، أفتغيّرت الدنيا؟

إني لأتلفت أفتش في غربتي عن رمضان فلا ألقاه لا في المسجد ولا في السوق، ولا في المدرسة، فهل مات رمضان[4]؟!.

إذن؛ فإنا لله وإنا إليه راجعون!.

لقد فقدت أنس قلبي يوم فقدت أمي، وأضعت راحة روحي يوم

---

(١) المشهد في الأموي اسم لحرم صغير فيه جانبيّ، وفي المسجد أربعة مشاهد في أحدها رأس الحسين، هو فيه لا في مصر، والله أعلم.

(٢) البلوعة والبالوعة من العامي الفصيح.

(٣) من حديث النفس / ص ٦٧ - ٦٨.

(٤) لا، ولا يموت، وأحمد الله على أن أحياني حتى عشت في مكة، ورأيت في الحرم ما يعدُ معه رمضان الشام يوماً من عام.

افتقدت رمضان، فعلى قلبي وأمي ورمضان وروحي رحمة الله وسلامه![1].

مقبرة الدحداح

إن في هذه المقبرة بقايا من قلبي، إن لها تاريخاً في نفسي، يعرف أكثره أخي أنور، فسلوا أنور متى يقوم بحقِ الوفاء لهذه الذكريات فيخلدها بقصائد بارعات من شعره العبقري؟، فما أُحسِن أنا تخليدها، لا أطيق أن أَفي لها هذا الوفاء، سلوه أنسيَ ليالي نمشي فيها لنزور قبور الأحبة في ظلمة الليل، أبي وأمي، وأمه وأبيه، ونبكي عليها، والمقبرة ساكنة خالية، ما تراها إلا عيون النجم، وما تسمعنا إلا الشواهد الشواخص... ونحدق في سدفة الزمان نرقب أن نرى طلعة الأحباب الذين اشتد إليهم الشوق وطال الغياب، فلا نرى إلا ظلاماً متراكباً، ونعود فنحاول أن نخترق حجاب الآتي لنبصر طيف الأمل الحلو فلا نبصر إلا الظلام... ليالي كنا نعود وقد برح بنا الألم، وهدّنا الحزن، فأستمع من أنور بواكير أشعاره ويسمع مني بوادر رسائلي، تلك البواكير التي قرأها الناس فرأوها نديّة بالدمع، فيّاضة بالحزن، فقالوا: ما لهذا الشاب والألم؟ ما له لا ينظم إلا الشعر الباكي؟ ما دروا أن هذا الشعر قد نُظمت حباته على قبر الوالدين، في ليالي اليتم الكواحل..

مساكين الأدباء، يجبلون فلذات قلوبهم بدموع عيونهم، ليقيموا منها تماثيل الأدب فيأخذها الناس عابثين، وينظرون إليها لاهين، ويعيبونها ظالمين، ثم يملّونها كما يملّ الصبي لعبته، فيرمونها فيحطمونها، ويفتشون عن لعبة جديدة... مساكين الأدباء!![2]

من دموع القلب

كنت أفكر دائباً في المستقبل، وأنتظر المستقبل، فها هو ذا المستقبل

---

(١) في سبيل الإصلاح / ص ٢٠٦.

(٢) من حديث النفس / ص ٦٩.

قد صار حاضراً؛ فهل وجدتُ فيه إلا الخيبة والألم؟

لقد جرّبت الصناعات والفنون، وطوّفت في البلدان، فما أفدت من ذلك كله إلا أني تركت في كل بلد قبراً لأمل من آمالي، لقد أضعت الحب والمال، وأضعت المجد الأدبي، حتى هذه الألحان التي تدور في نفسي ضاعت مني... فلم أستطع أن أُسمِعها الناس أغاني وأصواتاً، ما سمع الناس إلا أقصر أغانيَّ وأقبحها، تلك هي مقالاتي التي نشرتها، فمتى يسمعون أجمل ألحاني وأطولها؟.

في المستقبل!

يا ويح نفسي! هل بقي لي مستقبل إلا الموت، الذي غدوت أحبه وأناديه لو كان يسمع النداء؟

لقد وجدت المستقبل عدماً، فهل عليَّ من لوم إذا عُدتُ إلى الماضي أعيش فيه؟

في الماضي دفنت أمي، وفيه دفنت أبي، وفيه دفنت أحلامي... لقد أحببت كثيراً وتألّمت أكثر مما أحببت، ولكن الحب الحقيقي الواحد الذي انطوى عليه قلبي، والألم الفرد الصادق الذي عرفه، هو حبي أمي، وألمي لموتها، وكل ما عداهما حب كاذب، وألم عارض.

إني لأنسى البلاد كلها حتى منازل حبي، وربوع هواي، ولكني لا أنسى أبداً ذلك الزقاق الضيق، الذي يمتد من العقيبة في دمشق إلى رحبة الدحداح، لأن سعادتي وُلدت في أول هذا الزقاق، وماتت في آخره حين مات أبي وأمي...

فيا رب ارحمني بالنسيان، وأين مني النسيان؟

إني لأنظر إليها الآن وهي مريضة على فراشها، كأنما كان ذلك منذ ساعة، فيبكي قلبي ولا أستطيع أن أكتب عنها حرفاً، لا أحب أن أنشر أحزاني حتى لا تلوكها ألسنة الناس، فليبق الألم في صدري أحمله وحدي... أنا لا أصدق أن هذه السنين السبع قد مرت على ذلك الحادث... أأنا أعيش سبع

سنين لا أرى فيها أمي، وقد كنت آلم إن غبت عنها يوماً؟ أأعيش وهي نازحة لا تعود بعد عام ولا عشرة، لا تعود قبل يوم القيامة؟

اللهم صبراً! فإني والله لا أطيق الصبر!

يقولون إن المصيبة تبدأ كبيرة ثم تصغر، ولكن مصيبتي بأمي تنمو في نفسي كل يوم!

لم أعد أجد في الحياة ما يغريني بها ويرغبني فيها، وماذا في الحياة؟ كل لذة فيها مغشاة بألم، فيها الربيع الجميل، ولكن فيه بذور الصيف المحرق، والشتاء القاسي، وفيها الحب، ولكن لذة الوصال مشوبة بمخافة الهجر، وفيها الصحة والشباب ولكنهما يحملان الهرم والمرض، فيها الغنى، ولكني ما عرفته وما أحسبني سأعرفه أبداً.

لقد كرهت الحياة، وزادها كراهة إليّ هؤلاء الناس، فلم يفهمني أحد ولم أفهم أحداً، إن حزنت فأعرضت عنهم مشتغلاً بأحزاني قالوا: متكبر. وإن غضبت للحق فنازعت فيه قالوا: شرس. وإن وصفت الحب الذي أشعر به كما يشعرون قالوا: فاسق. وإن قلت كلمة الدين قالوا: جامد. وإن نطقت بمنطق العقل قالوا: زنديق. فما العمل؟ إليك يا ربّ المشتكى؛ فما لي في الدنيا بعد أمي صديق!

تلك هي التي كانت تقبلني على عِلاّتي، والناس لا يقبلون إلاّ محاسني، تلك التي كانت تحبني أنا، والناس يحبون أنفسهم فيّ، تلك هي الحبيبة الوفية التي لا تهجر ولا تخون، تلك هي دنياي، فوا أسفي، إن دنياي قد احتواها التراب!

لم يبق من آثار هذا العالم الحافل بالإخلاص والحب إلا قبر منعزل وساقية صغيرة تميل عليها شجرة صفصاف، وهذا كل شيء...

إني لأستطيب ذكرى هذه الشجرة وأحنّ إليها، إن حركات غصونها لتحرك في نفسي عالماً كاملاً ولكنها لا تبالي ذكرياتي ولا تحفلها، إنها

قائمة تحنو على اللص الفاتك، كما تحنو على المحب الثاكل، وتؤوي المجرم الهارب كما تؤوي الشاعر المتغزل، فما أضيع ذكريات المحبين عند الطبيعة، وما أضيعها عند الناس!

لقد انصرف عني السيد حيدر الجوادي، ونام عني أصحابي، وتركوني أتجرع غصص آلامي وحيداً، فمن هو الذي يعطف عليَّ ويشاركني حمل الآلام؟ لقد أيست من الطبيعة ومن الأصحاب؛ فهل تسعدني أنت أيها المحسن المجهول الذي لا أعرفه أبداً؟ أنت يا من يجوز مع الشمس بمقبرة الدحداح يزور حبيباً له طواه الرمس؟ هل تمن على غريب متألم فتحيي عنه هذه البقعة وتعطف على ذكريات له فيها، هي أعز عليه من الحياة، لأنها كانت جمال الحياة؟ هل تترفّق في سيرك وتتئد وتعلم أن في هذه الرمال التي تطؤها أطلال قلب كان من قبل عامراً سليماً... ترفّق فإنك لو ملكت حاسة تدرك بها الذكريات لرأيت في هذه البقعة ما بين رمالها وترابها بقايا قلب محطوم، بقايا دامية حزينة شاكية، ولسمعتَ نشيجها.

ما تصدّع هذا القلب من هجر الحبيب، ولا هدّته أحداث الغرام، ولكن عصفت به عاصفة من موت الأم فهدّت أركانه، فاسكب على بقاياه قطرة من الدمع تحيا بها ساعة، أو قل كلمة تسعد بها روحه الحزينة، ثم توجه إلى القبر المحبوب، إلى قبر أمي وأبي أيها الصديق المجهول، فاسأل الله لساكنيه الرحمة والغفران، فما بقي لي بعدهم أحباء، ولا بعدهم دنيا...

لقد تركت تحت أقدامك قلبي وحبي يا أيها المحسن المجهول، فارفق بهما، أسعِد هذا اليتيم الضعيف، وإن كان الناس يدعونه شيخاً.

ربِّ، رحمة لهذا اليتيم الضعيف، ابن الثلاثين!!

«ربِّ اغفر لي ولوالديَّ، ربِّ ارحمْهما كما ربّيَاني صغيراً»[1].

---

(١) من حديث النفس / ص ٣١ ـ ٣٤.

أبي وأمي.. وبنان

«يوماً بحذوى ويوماً بالعقيق» وإن كنت ما أعرف ما حذوى هذه ولا أدري أين هي من الأرض، فهل أبقى دهري كله متنقلاً مرتحلاً؟!.

وهل من سبيل للشآم ونظرة   إلى بردى قبل الممات سبيلُ؟!

وإلى قاسيون وداري فيه؟ وهل أرى الربيع في الغوطة؟ والثلج على شعفات جبال المزة؟ أم انقطع به عهدي فلا أمل لي فيه؟ وهبوني عدت، فهل أرى في الشام دار شبابي؟ ومنازل أهلي وأصحابي؟ إن عدت إليها فهل تعود أيامي فيها؟ هل أقف على القبرين المتجاورين، النائمين متعانقين على كتف الساقية في «الدحداح» كما كان يتعانق ساكناهما في الحياة؟ إن فيهما أبي وأمي، لقد دفنت مسرّات حياتي في هذين الجدثين، أصبحت كنبتة قطعت جذورها، وجدث ثالث فيه من هو أعزّ عليَّ منهما، ما عرفت الطريق إليه حتى أقف عليه، وماذا يفيدني أن أقف عليه، وقد حال التراب بيني وبين قطعة عزيزة من قلبي أُودعَت هذا القبر؟ إني لأريق الدمع كل ليلة أسقي بها هذا القبر البعيد في طرف بلاد الألمان، حيث لا يراني أحد، ثم أنتبه فأجد أنه لا الدمع ينفع من فيه ولا الأحزان، ما ينفعني ولا ينفعها إلاّ الرحمة من الله والغفران، فاللهم قد أكرمتها بالشهادة، فارزقها ثواب الشهداء وارزقنا الصبر على البلاء[1].

بردى

(بردى) سطر من الحكمة الإلهية، خطته يد الله على صفحة هذا الكون، ليقرأ فيه الناس ببصائرهم لا بأبصارهم فلسفة الحياة والموت، وروعة الماضي والمستقبل، واختصت به الأمة العربية فجمعت فيه تاريخها الجليل ببلاغة علوية متفجرة.

---

(١) ذكريات الشيخ : علي الطنطاوي (ج٤) / ص ١٠٥ ـ ١٠٦.

والله الذي جعل الآية المعجزة في القرآن، هو الذي جعلها في الأكوان، والله الذي أعجز ملوك القول، وأُمراء البلاغة بسُوَرٍ من آيات وكلمات وحروف، هو الذي أعجز قادة العقل، وأئمّة الفلسفة بسُورٍ من بحار وأنهار وكهوف[1].

مع أنور العطار

رأيت أيامنا في المدرسة ونحن تلاميذ نعيش من الأدب في دنيا الخيال، إذ أعجزتنا دنيا الواقع أن نجد فيها ما نصبو إليه ونتمنّاه، لا نصدق متى ينقضي النهار حتى نفر إلى كتب الأدب، لنقرأ كل بارع من القول ونتدارس كل رائع من البيان.

ورأيتنا وقد فرقت الأيام بيننا قليلاً، فاشتغلت أنا بالصحافة، وغامرت في السياسة، وآثر أنور التعليم فكان مدير المدرسة الأولية في منين[2]، في هذه القرية النائمة في حجر القلمون الأدنى، ترى مواكب الأحلام بأجمل (عين) وأشدها سحراً وأكثرها فتوناً: عين منين، من لم ير عين منين ما عرف سحر العيون، ولا رأى جمال الينابيع، ولا رشف راح الجمال على مائدة الكون..

فكنت أزوره فأقضي ليلة أو ليلتين في جنة قد جمعت فيها النعم، أسكر سكرين: سكر الجمال، وسكر البيان، وأخضع فيها لسحرين: سحر الطبيعة وسحر الشعر، وأجمع فيها الماضي البهي ذكرى حلوة، والآتي الشهيّ أملاً مُرَجّىً في حاضر ضاع في نشوة اللذة، حتى لم يبق لنا منه حاضر نحسه وندركه، نقضي الأصباح نستمع إلى أشعار السواقي المتحدرة من الينبوع وأشعار أنور، ونقطع الأماسي عند الصخور التي أفضنا عليها من الحياة من قلوبنا، فصارت تحنو علينا وتولينا الحب، وأرقنا عليها البيان، فأمست تحدثنا؛ تتلو علينا أحاديث الغابرين، وتقص قصص الأفلام، من

(١) كتاب دمشق / ص ٢٧.

(٢) منين : إحدى القرى القريبة من دمشق.

غسّان[١] أصحاب المجد المؤثل، فنحس كأن قد عاد الماضي، ورجعت القصور (البلق) عامرة، وبُعث المجد وعاش الحب، حتى لكأننا نسمع همس العشاق وآهات نشواتهم، ووسوسة قبلاتهم، نرى خيالات العناق من وراء الستار.

أيام سعدنا بها، وما سعدنا بالصخر ولا بالماء، ولكن بأحلام الشباب، رحمة الله على تلك الأيام[٢].

جسر بغداد

أما أنا فرأيت جسر بغداد، ورأيت الدنيا، لا أقول إنه أعظم من جسر إسماعيل، أو أجمل من جسر الزمالك، ولكن لجسر بغداد سرّاً آخر، يعرفه كل من نظر في كتب الأدب والتاريخ، وقرأ عن جسر بغداد، هو الذي جازه القوّاد الفاتحون، والفقهاء والمحدّثون، والشعراء والماجنون.

هذا الذي وقف عليه الرشيد والمأمون، وأبو حنيفة والشافعي والفضل بن دينار، ومطيع وأبو نواس، وعبد الله بن طاهر، ويزيد بن مزيد.

وشهد جلال الخلافة، وعظمة العلم، وروعة الزهد، وضحك المجون، وقوة الجيش.

وجرى عليه نهر التاريخ.

وتداعت على جوانبه القرون.

هذا الذي كان سُرّة الأرض!![٣]

---

(١) غسان : الذي ينسب إليه الغسانيون والغساسنة، ليس رجلاً ولكنه نبع ماء نزلوا عليه وموضعه في جبل الدروز عند قرية سلطان باشا الأطرش.

(٢) رجال من التاريخ / ص ٤٨٠.

(٣) كتاب بغداد / ص ٣٢.

من ذكريات بغداد

ما الذي هاج في نفسي هذه العشية ذكر بغداد، ونشر أمام عيني ما انطوى من ذكرياتها، وما مات من أيامها؟

ما الذي رجّعني إلى تلك الليالي (لياليّ في بغداد سنة ١٩٣٦م) حتى كأني - لفرط ما تشوّقت إليها وأوغلت في ادكارها - أعيش فيها؟

أي سحر فيكِ يا بغداد جذب قلبي إليكِ فلم أنسَكِ إذ أنا في بلدي الحبيب، ولم أزل أحنّ إليكِ واشتاقكِ؟

بغداد... يا بغداد عليكِ مني سلام الود والحب والوفاء، على المعظّم، على الصليخ، على الكرّادة، على الكرخ، سلام الفؤاد المشوق الولهان.

على ليالينا (بين الرصافة والجسر).. يا ما كان أحلى تلك الليالي!!

لقد كنت أشكو فيها ألم الغربة وأحنّ إلى الوطن، فصرت في وطني أحنّ إلى تلك الغربة ولياليها، وما ظلمني موطني وما أنكرني، وما كنت لأذمّه صادقاً فكيف أذمّه بما ليس فيه، ولكنّما هي الدّعة، مللتها واجتويتها: إني أشكو ألم الراحة فأعطوني به راحة الألم.

ذلك الألم العبقري الذي يفتح القلوب بآيات الشعر، فإني منذ فقدته لم أعد أحسّ بأنني ذو قلب!

على الرستمية... ألا تزال الرستمية جنة من جنان الأرض، حافلة بالعاشقين وبالحور العين، أم طاف بها طائف من هذه الحرب فجفّت خمائلها وهجرها قاصدوها؟

على الصالحية... بروحي صالحية دمشق وصالحية بغداد وصالحية مصر، على (قهوة المطار)، على ظبائها، على جآذرها ألف سلام.

على الجسر... يا جسر بغداد، كم جمعت وفرّقت، ماذا رأيت وسمعت، كم وصلت بين قلوب وقطعت، أنت الصلة بين ماضٍ لنا كان أعزّ

من النجم وأسمى، وآتٍ لنا سيكون (إن شاء الله) أسمى من النجم وأعز.

يا جسر بغداد! يا مربع الحب والأدب والمجد، يا من كنت سُرّة الأرض، وكنت لي مسرّة القلب، عليك مني ألف سلام.

يا ربوعاً تركت فيها قطعاً من حياتي، وخلفت فيها بقايا من فؤادي، ماذا صنعت بفؤادي وحياتي يا ربوع؟!

❀ ❀ ❀

ويادارنا في (الأعظمية)؛ من حلَّ فيكِ بعدنا يا دار؟.

وهل صوّح لبعدنا زهرك، أم ضحكت من بعدنا الأزهار؟

وهل حفظتِ آثارنا، أم طمستِ من بعدنا الآثار؟

لقد كنتِ أنتِ مستقري ومثواي، وكان إليكِ مفرّي من دنيايَ، وكنتِ شاهدة أفراحي كلها وأتراحي، وكنتِ مستودع أسراري وأخباري، كتمتها عن الناس إلاّ عنكِ، فهل كتمَت سرّي هذه الجدران؟

هل سترت ما رأت من نقائصي التي أخفيتها عن الأصدقاء والإخوان؟

ما هذه الدنيا يا ناس؟ هذه الدار التي كنت أفرّ إليها من رحب الحياة، وزحمة المجتمع، فأغلق بابها عليّ وأخلو فيها إلى نفسي، فأحس أنها جزء مني، وأنها لي وحدي، صارت غريبة عني، تنكرني وتجهلني، كأني لست منها وليست مني، وصارت لغيري، فإذا ما جئت أطرق بابها، رددت عنها، أو قبلت فيها ضيفاً غريباً لا أرى إلا ما يراه الضيف، ولا ألبث إلاّ ما يلبث... لا يا سكانها! ما أنا بالضيف الغريب، إنها كانت داري، إن لي فيها حقاً، لي فيها ذكريات، فيها من حياتي، من أنفاسي، من روحي!!

❀ ❀ ❀

وأي فؤاد يخفق من أجلي، بعد أن سكت ذلك الفؤاد الذي كان

خفاقاً، فؤاد أمي إلى الأبد؟ نظرت إليها فغبطت أهلها إذ يغلقون أبوابهم على الشمل الجميع، والأهل الحضور، والأُنس والسعادة[1].

أين من يدرس آثارنا؟

أين من يدرس الآثار ويعنىٰ بها، وهذا قصر الخضراء في دمشق لم يبقَ منه إلاّ اسمه، تحمله مصبغة في زقاق القباقيب، يا لعجائب الزمان، صار مثوى التاج، ومحط العرش، زقاقاً للقباقيب[2]! فمن سأل عنه؟ ومن وصفه؟ ومن حفر في أنقاضه؟

أما لو أن هذه الآثار كانت لغيرنا... إذن لحرثت هذه البقاع حرثاً، ثم أخرجت كنوزها، ثم ملأت نفوس أهلها عزة، ثم كانت لهم أجنحة يطيرون بها في معارج العلاء.

إن تحت هذه الأرض علماً ومجداً وجلالاً، ولكن ليس فوقها من يحفل بالعلم والمجد والجلال![3].

الأطلال

أيّ امرئ عرف الحب، وكابده وأدرك معناه، ثم يؤمن بأن العدم يقوى عليه؟

لا. إن ذلك كله موجود!.

موجود في زاوية من زوايا هذا الكون الفسيح، إنه خالد لا يفنى أبداً.

إن في هذا القصر ذكريات جمّة تحتويها هذه الجدران الخرساء، وهذا اللَّبِنُ البارد، إن فيه صدى تلك الهمسات التي كانت تتناجى بها الشفاه، إن

---

(١) كتاب بغداد / ص ٦٧ ـ ٧٠.
(٢) وقد سمعت أيضاً ولم أبصر أنهم أخلوا ماحول الأموي وسيجعلونه شوارع عراضاً.
(٣) كتاب بغداد / ص ٤١ ـ ٤٢.

فيه خفقات تلك القلوب، إن فيه وسوسات تلك القُبل.

إن سؤال الديار، واستخبار الأطلال، أقدم فنون الشعر العربي، فهل ترى الشعراء كلهم مجانين؟ أتراهم كانوا عابثين؟

لا، إن في هذه الأطلال لحياة... إن كل شيء في الوجود حيّ يذكر ويأمُل ويشعر ويحلم، ولكنه لا ينطق ولا يفكر.

آه... لو أن هذه الجدران كانت تنطق، وتتحدث وتصف ما تشعر به؟![1]

بوركتِ يا ساعة الخطر!

... أنتِ لحظة الإنسانية، أنت التي تورق فيكِ أغصان الحب، ويزهر فيكِ الإخلاص، ويعود الناس فيكِ إخواناً متحابّين، قد خرجوا من أطماعهم، ومات في نفوسهم الحسد والبغضاء، وعاش فيها الحب والتضحية والإخلاص والوئام[2].

الاستطراد

لقد صار الاستطراد عادةً لي، أعترف أنها عادة سيئة، ولكن ما أكثر العادات السيئة التي لزمتنا فلم نستطع الانفكاك عنها، ولو كانت من المحرّمات لأكرهت نفسي على تركها، فليس لمسلم يأتي المحرّمات أن يحتجّ بتعوّده عليها، ولكنها لسوء حظي ليست من المحرّمات.

ولطالما كنت أخطب في الحشد الكبير، أو أتكلم في الإذاعة أو الرائي (التلفزيون)، وأحاديثي فيهما كلها ارتجال، ليس أمامي ورقة مكتوبة أقرأ فيها، فأستطرد وأخرج عن الخط، فإذا انتهى الاستطراد وقفتُ كما وقف حمار الشيخ في العقبة، فلا أذكر من أين خرجت، ولا إلى أين أعود!

---

(١) كتاب بغداد / ص ٤٦ ـ ٤٧.

(٢) كتاب بغداد / ص ٨٩.

ولا تسألوني مَن هو هذا الشيخ، فإن المثل خلّد ذكر الحمار، ونسي اسم الشيخ، ليعلّمنا أن خلود الأسماء ليس الدليل على عظمة أصحابها[1].

الشهادات

لما وضعنا نظام قسم الدراسات العليا في كلية الشريعة في مكة أصر نفر منها على اعتبار الشهادة هي المقياس الذي لا يعتبر غيره، فلا يكون مدرساً فيها إلا من هو دكتور، وعارضتُ أنا، وقلت لمعالي الوزير العالم ابن العلماء الشيخ حسن بن عبد الله آل الشيخ: لو بعث الله جدك الشيخ محمد بن عبد الوهاب هل كنت تستطيع أن تجعله مدرساً؟ بل لو جاء أحمد بن حنبل وهو لا يحمل شهادة هل كنت تملك أن تجعله معلّماً في مدرسة متوسطة؟ إن الله الذي أبلغ ابن عبد الوهاب وابن حنبل ما بلغاه بلا شهادة قادر على أن يبلغ ذلك غيرهما، وأول من حمل شهادة الدكتوراه في الدنيا من منحه إياها؟ إن قلنا أنه دكتور دخلنا في باب المحال، أي في الدور والتسلسل، فلم يبق إلا أن نقر بالواقع وهو أن أول من مَنح الشهادة كان رجلاً لا يملك شهادة، فالشهادة شرط لا ألغيه، ولكن لا أجعل المعول كله عليه[2].

أنا والقضاء

... وخلاصة القول أن القضاء (حمل ثقيل) وهمّ طويل، ولو أن الله أغناني عنه وكتب لي أن أعيش بقلمي ومؤلفاتي، أو لو أني رُزقت مرتبة أهل الورع لما أقدمت عليه ولآثرت التعليم فهو أسلم، ولكني وقعت؛ والله لا يكلف نفساً إلا وسعها، وإن وسعي وغاية جهدي العزم الصحيح وبالله التوفيق على ألاّ أحكم في قضية ما لم أعرف حكم الشرع فيها على مقدار طاقتي فأسير عليه، وألاّ أتعمّد الزيغ والظلم تعمّداً، ولا أنوي الميل مع

---

(١) ذكريات الشيخ : علي الطنطاوي (جا) / ص١٠ ـ ١١.

(٢) رجال من التاريخ / ص ٤٣٦.

أحد الخصمين، وألاّ تأخذني في الحق رغبة صديق ولا رهبة ذي سلطان، أما الخطأ فلا أملك دفعه إلاّ بالانتباه، وأما الجهل فلا أقدر معه إلاّ على التعلّم والسؤال[1].

المرض

أنساني المرض كل شيء، حتى ما أذكر أني كنت يوماً من الأيام أمشي وآكل وأشرب وأقرأ وأكتب وأمارس أنواعاً من الرياضة، ولا أذكر أني كنت أستطيع التفكير في آلاف المسائل وأعالج المئات من الأمور، وماتت الدنيا في عيني، وأصبح هذا الألم دنياي كلها فأنا أطلق الفكر من عنانه، فلا يخرج عنه، ولا يجول إلاّ فيه، يتخيّل أبشع أنواع المرض، وأفظع أنواع الخطر، ثم ينطلق الفكر إلى العملية التي أكّد الأطباء أنه لا بد منها، فلا يكاد يشرع في تصورها حتى تسودّ الحياة في عيني، وأراها كلها ألماً وشراً، وأتمنى أن لو كان أبي على مذهب المعرّي، أو لو أن أمي لم تلدني... ويوسوس لي الشيطان أن ما حق أبيك في أن يقضي عليك فيجيء بك، أليست حياتك متعلقة بك وحدك؟ فهل استشارك فيها، أو هو قد ضحى بك وبحريتك وسعادتك في سبيل لذّته، أو هو لم يفكر فيك أبداً، ولم تخطر له على بال؟... فأرى الشيطان يريد أن يزيدني على مرض جسمي مرض ديني، فألعن الشيطان وما جاء به، وإن مما يجيء به الشيطان لما يسمّونه فناً وابتكاراً وتجديداً، ولكنه يبقى أبداً فناً شيطانياً... أدَع هذا وأعود بفكري إلى سرير العمليات الذي حملني إليه المدير مرة ووكّل بي الممرضات، وأقام عليّ طالبين يحرسانني، وذهب إلى الطبيب يحضره فوثبت أحمل أوجاعي وأناضل دون حرّيتي حتى بلغت الشارع حافياً، وركبت إلى الكلية أول سيارة رأيتها وأنجاني الله من العملية والأطباء، والأطباء - والرجاء عدم المؤاخذة - قوم برئوا من العاطفة، وانبَتّوا من الشفقة، يشقون بطون الناس - نسأل الله السلامة - ويخرجون أمعاءهم

---

(١) من حديث النفس / ص ١٧٢.

فيضعونها في طبق. . .، ويكسرون جماجم البشر، ويعبثون في أدمغتهم ويفعلون ما لو فعله غيرهم للحقه الشُرَطُ، واصطف له القُضاة، وفُتحت له أبواب السجون، وأُعِدت له حبال المشانق، ثم يتصدرون المجالس يفتخرون بأنهم أصدقاء الإنسانية. . . أفأعطيهم بطني ليشقوه، ويردوني مريضاً بعد إذ أنا معافى وأتعجل الداء بنفسي؟ أعوذ بالله! أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين!

❀ ❀ ❀

لم يكن يفزعني شيء وأنا مريض مثل ما يفزعني الليل بسواده وامتداده، كنت أخافه أشد الخوف وأحسب لمجيئه الدقائق والثواني، وأرقبه كما يرقب المحكوم عليه ساعة القتل، ذلك أني لم أكن أستطيع النوم ولا أطيق الجلوس، وإنما أستطيع أمراً واحداً، هو الاضطجاع على قفايَ أحدِّق في السقف ليلاً ونهاراً. . . ولطالما رأيت في السقف بقعة سوداء، فخُيّل إليّ لطول التحديق فيها أنها حية تريد أن تنقضّ عليّ أو رتيلاء كبيرة ذات تسع وتسعين رِجلاً وعشرة رؤوس، أو مجموعة من العقارب أو عفريت من الجن، أو جنّي من العفاريت، فأصيح فزعاً وأنطلق أهذي هذيان محموم حرارته أربعون. . .

إني لأضحك الآن، وأكركر من الضحك حين يعيدون عليّ ما كانوا يسمعون مني إذ أهذي، وأرى فيه صورة واضحة لكثير مما نقرأ في الصحف والمجلات ينشره أصحابه على أنه أدب، ويقرؤه الناس على أنه ثرثرة وهذيان محموم!

وكان أحب شيء إليّ وأنا مريض أن يكثر الناس من حولي، ثم يتحدثوا شتى الأحاديث لأخلص من وحدتي وأتسلى عن ألمي وأذكر جانباً مما في الحياة. . . ولكني كنت أسمع أصواتهم كأنها خارجة من جوف بئر سحيق، أو أعماق مغارة بعيدة، وأراهم من خلال ضباب كثيف، فلا أتبيّن صورهم ولا أصواتهم، وسرعان ما أملّ منهم وأطلب جديداً، كانت أيامي متشابهة متشاكلة، فكنت أحب أن أجد كل لحظة شيئاً جديداً.

ضعفت قواي وضاعت إرادتي ولم يبق لي طاقة على المشي، ولا

قدرة على المحاكمة العقلية، ولم يبقَ حياً فيَّ إلاّ لساني... أكل ذلك لأن جرثومة صغيرة دخلت جسمي...؟ يا لضعف هذا الإنسان القوي[1]!!

زائر

كنت يوماً أستقبل في بيتي جماعة من الأصدقاء، فجاء أحد أصحابنا وجاء معه بولد له صغير، وأنا لا أكره شيئاً كما أكره من يزورني ويأتيني بولده معه، ولكني تجلّدتُ وقلت لنفسي إنه ضيف، ولا بد من الاحتمال، وما كاد يستقر في المجلس حتى شرع يتحدث عن ولده، وعن ذكائه وعن نوادره، وعن كماله، والحاضرون يبتسمون مجاملة، ويتمنّون أن يحس فيختصر هذا الحديث الثقيل، وهو يقول لولده: بابا قُم اخطب لهم خطبة، فتدلل الولد وتمنّع وقال: ما بدّي، قال: قم عيب.

وما زال معه في شد ودفع حتى استجاب وخطب خطبة كان أزعج بسامعيها من شربة زيت خروع لشاربها، ولكنهم اضطروا أن يكشّروا عن أنيابهم ويقولوا مجاملةً: ما شاء الله.

وحسبوا أن المحنة قد انتهت، ولكن الرجل عاد فقال: وهو حافظ غيرها كمان، وانتظر أن يستبشروا بهذا الخبر، ويطيروا سروراً بهذه البشارة، فلما رآهم سكتوا وأحجموا لم يسكت هو ولم يحجم، وقال للولد: اخطب بابا الخطبة الثانية، ومن خطبة إلى خطبة حتى خطب عشر خطب، شعر الحاضرون كأنها عشر مطارق تنزل على رؤوسهم، وطلعت منها أرواحهم، وهو يضحك مسروراً كأنه جاء بمعجزة، ثم قال: وهو يغني كمان، غني بابا أغنية (الأغنية بتشديد الياء) قلت في نفسي: أعوذ بالله خرجنا من الخطب فجاءت الأغاني، وغنّى أغنية ثم أتبعها بأخرى، فقلت: يكفي إنه قد تعب، قال: لا (ومطّها) إنه لا يتعب، الله يسلمه ويرضى عليه، من حق تعبت يا بابا؟ قال: لا، ووثب ينطّ بالغرفة، قال أبوه: يعرف يلعب كمان، وخرّب

---

(١) من حديث النفس / ص ١٦٤ ـ ١٦٦.

في لعبه كثيراً مما كان في الغرفة من التحف.

وجئنا بالشاي فمد يده ليأخذ الفنجان، فقلت: إنه حار، قال: لا، ورفع رجله بحذائه الملوّث فوضعها فوق المقعد، وأخذ الفنجان وقربه من فمه فأحس حرارته فأفلته من يده فانكب على المقعد الجديد.

وتوقعت أن يعتذر أبوه عن إفساده وجه المقعد، وإذا به لا يهتم بوجهه ولا قفاه، لقد اهتم بولده وقال له: لا ترتعب ما صار شيء، هل احترقت يدك؟ ونظر فيها وابتسم وقال: سليمة والحمد لله، وانتقل هو وابنه على مقعد آخر، وجعل الولد يكلمه في أذنه فقال الأب: كأس ماء من فضلك الولد عطشان.

فقمت وأتيته بها، فشرب وأراق الماء على المقعد الثاني، وبعد لحظة قال أبوه: من فضلك يخرج إلى الحمام، قلت: قم، قم، وأخذته بيده فصرخ صرخةً أرعبتني أنا وحسبت أن قد أصابه أذى، وسألت ما له، قال أبوه: إنه لا يخرج إلاّ معي، فقلنا: خذوا طريقاً وهاتوا طريقاً ووقفنا حتى وصل الموكب الهمايوني إلى بيت الخلاء، ولا أريد أن أصف لكم بقية المشهد فتصوّروا آخره من معرفة أوله[1].

إفطار

دُعينا في كراتشي إلى طعام الإفطار، وأنا لا أكاد أستثقل شيئاً ما أستثقل أن أُدعى إلى طعام، وكانوا يُكرِهونني أحياناً فأجيب مرغماً، ثم عزمت أمري ورفعت راية العصيان، وأعلنت أنني لا أذهب إلى وليمة مهما كانت الحال ومهما كان الشان.

وكراتشي بلدة كبيرة، مترامية الأطراف، فساروا بنا بين طرفيها ما يقرب من مسافة القصر، وكنا جياعاً، وكان النهار طويلاً والحر شديداً، والصوم متعباً، فقدّموا لنا تمراً وشراباً بارداً وفاكهة قليلة، ثم أقاموا الصلاة

(١) ذكريات الشيخ : علي الطنطاوي (جـ٧) / ص ١٨٣ ـ ١٨٥.

فصلّينا، فلما سلّمنا حسبت أنا نتوجّه إلى المائدة، فإذا نحن نُوجَّه إلى الباب، قلت: ما هذا؟ قالوا: هو هذا، إنها دعوة إلى إفطار وقد أفطرتم، فتفضّلوا مشكورين، أي فانصرِفوا مطرودين، وخرجنا جائعين كما دخلنا جائعين[1].

مما حدث لي

أنا رجل يتصورني القرّاء من بعيد (شيئاً) أكبر من حقيقتي، فلماذا أفضح نفسي عندهم؟ وعمّ أتحدث إليهم؟ والأحاديث كثيرة، وما حدث لي يملأ كتباً؟.

ثم قلت: لماذا لا أتحدث عن هذا؟ عن حقيقتي في نفسي وصورتي عند القرّاء، ولي في هذا الباب طرائف عجيبة، وأنا أكتب من أكثر من عشرين سنة في جرائد الشام ومجلات مصر ولبنان كتابة شيخ مكتهل، فكان القرّاء يحسبونني شيخاً أشيب الشعر محني الظهر يدبّ دبيباً، وعلى وجهه من كتابة الأيام والتجارب سطور من (الأخاديد) فوق سطور، وما كنت أحب أن أذيع هذه الطرائف لأنها لا تنفع السامعين وإن كانت تلذ لهم، ولكن المحطة أرادت أن أحدث المستمعين عن بعض ما حدث لي مضحكاً كان أم غير مضحك، ولا بأس فالضحك ينفع الجسم ويدفع الدم، ويزيد الشهية، أما المصيبة أن تجيء النكتة باردة لا تُضحك. . . أو أن أكون ثقيلاً يتخفف، والثقيل إذا تخفف صار طاعوناً. . . والعياذ بالله.

سيداتي وسادتي!! مما وقع لي:

أن جاءني مرة وكنت في عنفوان الشباب أكتب ـ في أوائل كتابتي ـ في الرسالة (عام ١٩٣٣م) ثلاثة من الغرباء عن البلد، لم يعجبني شكلهم، ولم يطربني قولهم، فوقفت على الباب أنظر إليهم فأرى الشكل يدل على أنهم غلاظ، وينظرون إليّ فيرون فيّ (ولداً) فقالوا: هذه دار فضيلة الشيخ

---

(١) ذكريات الشيخ: علي الطنطاوي (جـ٧) / ص ١٩٧.

الطنطاوي؟ قلت كارهاً: نعم... فقالوا: الوالد هنا؟ قلت: لا.. قالوا: فأين نلقاه؟ قلت: في مقبرة الدحداح على الطريق المحاذي للنهر من جهة الجنوب، قالوا: يزور أمواته؟ قلت: لا، قالوا: إذن؟ قلت: هو الذي يُزار... فصرخ أحدهم في وجهي صرخة أرعبتني وقال: مات؟ كيف مات؟ قلت: جاء أجله فمات... قالوا: عظّم الله أجركم، إنا لله وإنا إليه راجعون، يا خسارة الأدب، قلت:... إن والدي كان من أجلّ أهل العلم ولكن لم يكن أديباً... قالوا: مسكين أنت لا تعرف أباك.

وانصرفوا وأغلقت الباب وطفقت أضحك وحدي مثل المجانين، وحسبت المسألة قد انتهت، فما راعني العشية إلا الناس يتوافدون عليَّ فاستقبلتهم، فيجلسون صامتين إن كانوا لا يعرفون شخصي، ومن عرفني ضحك وقال: ما هذه النكتة السخيفة؟ قلت: أي نكتة؟ فأخرج أحدهم الجريدة وقال: هذه! هل تتجاهل؟ فأخذتها فإذا فيها نعي الكاتب الـ... كذا وكذا.. علي الطنطاوي.... هذه واحدة!!

ومما حدث لي أنني:

لما كنت أعمل في العراق سنة ١٩٣٦ نقلت مرة من بغداد إلى البصرة إثر خصومة بيني وبين مفتش دخل على الصف فسمع الدرس. فلما خرجنا (نافق) لي فقال أنه معجب بكتابتي وفضلي، (ونافقت) له فقلت إني مكبر فضله وأدبه، وأنا لم أسمع اسمه من قبل، ثم شرع ينتقد درسي فقلت: ومن أنت يا هذا؟ وقال لي وقلت له...

وكان مشهداً طريفاً أمام التلاميذ.. رأوا فيه مثلاً أعلى من (تفاهم) أخوين، وصورة من التهذيب والأخلاق. ثم كتبت عنه مقالة كسرت بها ظهره، فاستقال و (طار) إلى بلده، ونقلت أنا عقوبة إلى البصرة.

وصلت البصرة فدخلت المدرسة، فسألت عن صف (البكالوريا) بعد أن نظرت في لوحة البرنامج ورأيت أن الساعة لدرس الأدب، وتوجهت إلى الصف من غير أن أكلم أحداً أو أعرفه بنفسي.

فلما دنوت من باب الصف وجدت المدرس، وهو كهل بغدادي على

أبواب التقاعد، يخطب التلاميذ يودعهم وسمعته يوصيهم (كرماً منه) بخلفه الأستاذ الطنطاوي، ويقول هذا وهذا ويمدحني . . . فقلت: إنها مناسبة طيبة لأمدحه أنا أيضاً وأثني عليه، ونسيت أني حاسر الرأس، وأني من الحر أحمل معطفي على ساعدي وأمشي بالقميص وبالأكمام القصار، فقرعت الباب قرعاً خفيفاً، وجئت أدخل؛ فالتفت إليّ وصاح: إيه زمال وين فايت؟ (والزمال الحمار في لغة البغداديين) فنظرت لنفسي هل أذنيَّ طويلتان؟ هل لي ذيل؟ . . فقال: شنو؟ ما تفتهم (تفهم) أما زمال صحيح. وانطلق بـ (منولوج) طويل فيه من ألوان الشتائم ما لا أعرفه وأنا أسمع متبسماً. ثم قال: تعال نشوف تلاميذ آخر زمان، وقُف احك شو تعرف عن البحتري، حتى تعرف إنك زمال ولاً لأ؟

فوقفت وتكلمت كلاماً هادئاً متسلسلاً، بلهجة حلوة، ولغة فصيحة. وبحثت وحللت وسردت الشواهد وشرحتها، وقابلت بينه وبين أبي تمام، وبالاختصار ألقيت درساً يلقيه مثلي. . والطلاب ينظرون مشدوهين، ممتدة أعناقهم، محبوسة أنفاسهم، والمدرس المسكين قد نزل عن كرسيه، وانتصب أمامي، وعيناه تكادان تخرجان من محجريهما من الدهشة، ولا يملك أن ينطق، ولا أنظر أنا إليه كأني لا أراه حتى قرع الجرس. . قال: من أنت؟ ما اسمك؟ قلت: علي الطنطاوي! وأدع للسامعين الكرام أن يتصوروا موقفه![1]

مع الله

وجدت الشهرة لا تفيد إلا اسمي، ولكن اسمي ليس مني ولا هو (أنا) فأحببت أن أجد الأنس بالحب وأن أنجو به من وحدتي، فلم أجد الحب إلاّ اسماً لغير شيء ليس له في الدنيا وجود، وإنما فيها تقارب أشباح:

(١) من حديث النفس / ص ١١٨ ـ ١٢٠.

أعانقها والنفس بعد مشوقة إليها وهل بعد العناق تدانِ؟
وألثم فاها كي تزول صبابتي فيشتد ما ألقى من الهيمانِ
كأن فؤادي ليس يشفي غليله سوى أن يرى الرّوحين يلتقيانِ

ولكن أنّى تلتقي الأرواح؟ وأين هذا الحب الجارف القوي الخالص الذي يأكل الحبيبين كما تأكل النار المعدن، ثم تخرجهما جوهراً واحداً مصفّى نقياً ما فيه (أنا) ولا (أنت) ولكن فيه (نحن)؟.

فنفضتُ يديَّ من الحب، ويئست من أن أرى عند الناس الاجتماع المطلق، فعُدتُ بطوعي أنشد الوحدة المطلقة.

❁ ❁ ❁

صرت أكره أن ألتقي بالناس، وأنفر من المجتمعات، لأني لم أجد في كل ذلك إلاّ اجتماعاً مزيفاً، يتعانق الحبيبان، ولو كشف لك عن نفسيهما لرأيت بينهما مثل ما بين الأزل والأبد، ويتناجى الصديقان ويتبادلان عبارات الود والإخاء، ولو ظهر لك باطنهما لرأيت كلاّ منهما يلعن الآخر، وترى الجمعية الوطنية، أو الحزب الشعبي فلا تسمع إلاّ خُطَباً في التضحية والإخلاص، ولا ترى إلا اجتماعاً واتفاقاً بين الأعضاء، ولو دخلْتَ في قلوبهم لما وجدتَ إلا الإخلاص للذات وحب النفس، وتضحية كل شيء في سبيل لذة شخصية أو منفعة!.

وجدتني غريباً بين الناس فتركت الناس وانصرفت إلى نفسي أكشف عالمها، وأجوب فيافيها وأقطع بحارها، وأدرس نواميسها وجعلت من أفكاري وعواطفي أصدقاء وأعداء وعشت بحب الأصدقاء وحرب الأعداء. . .

إن من حاول معرفة نفسه عرضت له عقبات كأداء، ومشقات جسام، فإن هو صبر عليها بلغ الغاية، وما الغاية التي تطمئن معها النفس إلى الوحدة وتأنس بالحياة، وتدرك اللذة الكبرى، ما الغاية إلاّ معرفة الله.

وسيظل الناس تحت أثقال العزلة المخيفة حتى يتّصلوا بالله ويفكروا

دائماً في أنه معهم، وأنه يراهم ويسمعهم، هنالك تصير الآلام في الله لذة، والجوع في الله شبعاً، والمرض صحة، والموت هو الحياة السرمدية الخالدة، هنالك لا يبالي الإنسان ألاّ يكون معه أحد لأنه يكون مع الله[١].

الدرس الأخير

أولادي!

انتظروا! لا تخرِجوا كتبكم، ولا تفتحوا دفاتركم، فما جئت لألقي عليكم درساً، وإنما جئت لأودّعكم لأني نُقِلت من مدرستكم، إن الوداع صعب يا أولادي لأنه أول الفراق، وما آلام الدنيا كلها إلاّ ألوان من الفراق، فالموت فراق الحياة، والثكل فراق الولد، والغربة فراق الوطن، والفقر فراق المال، والمرض فراق الصحة.

إن الوداع صعب ولو إلى الغد، فكيف إن كان المودع صديقاً عزيزاً؟ فكيف إن كان ولداً؟ فكيف إن كانوا أولاداً؟

أنتم أولادي، أولادي حقيقة لا أقولها مجاملة ولا رياء، ولا أسوقها كأنها كلمة تقال، ولكن تنطق بها كل جارحة فيَّ وأحسها من أعماق قلبي!

ولِمَ لا؟ ألستم تحبّونني وأحبّكم؟ ألم أفكر فيكم دائماً وأخَف عليكم؟ ألم تروني آلم إذا تألّم أحدكم، وأثور إذا تعدّى أحد عليكم؟ ألم أفتح لكم قلبي حتى اطمأننتم إليَّ وأنستم بي، وخرقتم حجاب الخوف الذي كان بيني وبينكم، كما يكون بين معلّم وتلاميذه، وغدوتم تدعونني لأشارككم في ألعابكم، وتقصّون عليَّ أخباركم وتبثونني أحزانكم، وتنبئونني بأسراركم وتشكون إليَّ ما يصيبكم من آبائكم وأهليكم؟ فأي صلة بين الآباء والأبناء أوثق من هذه الصلة، وأي سبب أقوى من هذا السبب؟.

أنتم أولادي، فهل رأيتم أباً يودع أولاده الوداع الأخير ثم يملك نفسه أن تسيل من عينيه؟ لقد شغلتم نفسي زماناً، وأخذتم عليَّ مسالكي في

(١) من حديث النفس / ص ١٠٨ - ١٠٩.

الحياة، فلا أرى غيركم ولا أفكر إلاّ فيكم، وأقنع بصداقتكم هذه الخالصة المتعبة المرهقة، عن الصداقة الكاذبة، والود المدخول.

فكيف أقدر أن أملك نفسي وأنا أقوم بينكم لألقي عليكم كلماتي الأخيرة، ثم أمضي لطيّتي لا أدري أأراكم بعد اليوم، أم لا أراكم بعد أبداً؟!

أما أنتم فاملكوا أنفسكم، لا تحزنوا ولا تأسفوا ولا تبكوا لأني علّمتكم كيف تكونون في طفولتكم أكثر منا في شبابنا رجولة وصبراً، ونشّأتكم على القوة التي فقدناها، والبعد عن العاطفة التي رُبينا عليها، وإنكار الألم الذي لا نزال نهرب منه، والمغامرة التي نكرهها ونجهلها لأرى صبركم في مثل هذا اليوم.

إنكم الآن تجتمعون حولي، ولكنكم ستتفرقون في المستقبل، وستنثرون على درجات السلم الاجتماعي نثراً، وسيكون منكم الغني والفقير، والكبير والصغير، والتاجر والصانع، والموظف الكبير والمدير والوزير، ولكن قلبي سيتبعكم وحياتي ستمتد فيكم، ومبادئي ستبقى في قلوبكم، لا تستطيعون أن تتناسوها، وكلماتي سترنّ في آذانكم لا تقدرون أن تتغافلوا عنها، وستسمعونها تدعوكم باسم الواجب في ساعات الهوى، وباسم الحق في جولة الباطل، وباسم الفضيلة في غمار اللذة، فطوبى لمن لبّى وسمع واستجاب، وويل لمن نسي وأنكر، وأعرض واستكبر!

إنني لقّنتكم مبادئ الحق والفضيلة ولكنكم ستجدون في تطبيقها عناءً كبيراً، ستجدون أول خصومها معلّميكم في المدرسة وأهليكم في البيت ورفاقكم في الطريق؛ فالسعيد السعيد من ثبت على الحق، وأوذي في سبيله، والبطل من درأ بصدره السهام عن أمّته، وأطفأ بدمه النار التي تحرق وطنه، إن في أمتكم طاعوناً أخلاقياً مروعاً أصيبت به منذ خمسمائة سنة فذلّت واستكانت، وفقدت عزتها وصبرها وقوتها، وقد جاء الوقت الذي تبرأ فيه الأمة، إنها لن تبرأ إلا على أيديكم.

لقد دللتكم على الطريق، ووضعت في أيديكم مفتاح النجاح، فعلّمتكم فضائلي كلها مع ما عرفت من فضائل، وجنّبتكم نقائصي كلها مع

ما عرفت من نقائص، فاحترمتكم لتحترموني، وأخطأت أمامكم لتردوني، ورجعت عن خطئي لتتعلّموا مني، وأنصفتكم من نفسي لتنصفوا الناس من نفوسكم، وعلّمتكم معارضتي إذا جُرت لتتعلموا المعارضة لكل جائر، ولم آتِ في ذلك بدعاً، فهذه مبادئ الإسلام الذي علّمتكم اتباع سبيله، والوقوف عند أمره ونهيه والفخر به، والجهر باتباع شعائره، وربّيتكم على الطاعة في غير ذل، والعزة في غير كبر، والتعاون على الخير، والثبات على الحق، والقوة في غير ظلم، والنظام الكامل من غير أن يفقدكم النظام شخصياتكم واستقلالكم.

كنت أذكر ما كنت أستاء منه في المدرسة مما كان يصنع معنا معلّمنا فلا أصنع معكم منه شيئاً؛ كنا نفر من المدرسة لأننا لا نجد فيها إلاّ جباراً عاتياً، عبوس الوجه، قوي الصوت، بَذيء الكلمات، فجعلتكم تحبون المدرسة؛ لأنكم تلقون فيها أباً باسماً شفيقاً يحبكم ويشفق عليكم، ويحرص على رضاكم، كما يحرص على نفعكم.

وكنا نكره الدرس لأننا نجده شيئاً غريباً، وطلاسم لا نفهمها ولا ندرك صلتها بالحياة، ونعاقَب على إهماله، ونُجازى على الخطأ فيه، فجعلتكم تحبون الدرس لأنكم ترونه سهلاً سائغاً، تدركون صلته بحياتكم، وفائدته لكم، وتحفظونه لأنه لازم ومفيد، لا خوفاً من العقاب ولا هرباً من الجزاء.

وكنا ننتظر المساء لننجو من المدرسة، لأننا نُسجن فيها سجناً، لا نستطيع أن نميل أو نتلفت أو نتكلم، ولا نسمع من الأستاذ إلا عبارة الدرس المبهمة، وألفاظ الشتائم المؤلمة، فجعلتكم تكرهون المساء لأنه يفصلكم عن المدرسة التي تقولون فيها ما شئتم، من طيب القول، وتفعلون ما أردتم، من صالح العمل، وتقرؤون ما زلتم نشيطين للقراءة، فإذا مللتم من الدرس سمعتم قصة لطيفة، ونكتة حلوة، هي أيضاً درس من الدروس، ووجدتموني أحادثكم كما أحادث الرجال لا الأطفال، كنا نشعر بأننا أذلاّء في المدرسة، لأننا لا نقدر أن ندافع عن حقنا، أو نطالب بما لنا، وإذا قلنا كلمة فالعصا نازلة على رؤوسنا، أو رددنا على المعلم لفظه، فالبلاء مستقر

على عواتقنا، فجعلتكم أعزة أحراراً، تدافعون عن حقكم وتطالبون بما لكم، ولكن بأدب واحترام، واتباع لقوانين المجتمع وأنظمة المدرسة...

❊ ❊ ❊

أتذكرون يوم جئتكم كيف كان أكثركم يأتي إلى المدرسة بادية أفخاذه، مرجلاً شعره، في جيبه مشطة ومرآة وكمّته (بيريه) على رأسه تفخرون برقّتكم وتعتزون بجمالكم، وتتخلعون في مشيتكم، ولا تجدون من معلميكم إلا إقرار ما تفعلون، واستحسان ما تأتون، لا تربطكم بالإسلام إلا رابطة الاسم، ولا بالعروبة إلا صلة الجنسية، ولا تعرفون من تاريخكم ما تعرفون من تاريخ الحثيّين والآراميّين الذي قرأتموه مفصلاً قبل أن تدرسوا سيرة محمد بن عبد الله - ﷺ -، وقبل أن تعلموا من هو أبو بكر، وقبل أن تسمعوا باسم معاوية، فعلّمتكم أن فخر الرجل بقوته وعلمه، واعتزازه بدينه ولغته، فاشتدت أعصابكم، وقويت نفوسكم، وتنبهت عزائمكم، وصرتم تمشون كالأُسود، وتلعبون كالعفاريت،، وتطالعون كالعلماء، وتفكرون كالفلاسفة، وتراقبون الله كالصدّيقين، وصرتم وأنتم في هذه السن تهيئون محاضرة في عشرين صفحة عن عمرو بن العاص، أو عبد الملك، أو عبد الرحمن الناصر، وسمعتم أن في الدنيا علوماً إسلامية، واستقر في نفوسكم أن هذه العلوم وهذه الحضارة وهذا المجد، لا بد لها من بعث كالبعث الأوروبي (الرينسانس).

ولكنكم لا تستطيعون يا أولادي أن تفهموا التضحية التي قدمتها من أجلكم، لأنكم لم تعرفوا قبلي هذا الطراز من المعلمين، فحسبي أن أخبركم أنني أشتغل بالأدب، أعني أن لي نفساً تشعر وتحس، وتألم وتسر، وتغضب وترضى، وتثور وتهدأ، وتأمل وتقنط، وأن لي غاية في الحياة أكبر من هذه الوظيفة، وأنني أهتم بأشياء غير صفارة المناوب، وعصا التأديب، وحفظ النكات الباردة لتقطيع الوقت بها، ولف رِجل على رجل في عظمة جوفاء لانتظار الدرس...

ذلك أنني أغدو إلى المدرسة كل يوم وفي نفسي عشرات من الصور

والأفكار أبني منها هياكل فخمة لآثاري الأدبية القيمة التي لم أكتب منها شيئاً بعد فإذا بلغت المدرسة ونشقت هذا الهواء المليء بجراثيم البلادة والخمول، طار من رأسي كل شيء، وأحسست أني غدوت حقيقةً معلّماً أوّلياً؛ أجل! لقد ضحيت من أجلكم بفكري ونفسي. . . فخسرتهما من أجلكم وهأنذا أخسركم أنتم أيضاً.

إنكم لا تعلمون أي فراغ سيدع في نفسي فراقكم، وتحسبون معلّمكم واحداً من هؤلاء البشر الآليّين الذين يذهبون ويجيئون ويعملون ويتركون، ولكن بلا قلوب، فسأقص عليكم قصة وقعت لي منذ أسبوع:

كان اليوم عطلة وكنت أرقبه من زمن بعيد لأستريح فيه من هذا العناء الذي هدّني هداً وطمس بصيرتي، وبلغ بي إلى الحضيض الفكري، فلما أصبحت عمدتُ إلى المطالعة فلم أفهم شيئاً، ووجدت شيئاً يدفعني إلى الخروج، فارتديت ثيابي وأنا لا أدري أين أقصد، فإذا أنا أمشي في الطرقات التي أمشي فيها كل يوم، وإذا رجلاي تقودانني إلى المرجة حيث ركبت السيارة إلى حي السفح (المهاجرين)[1] إلى باب المدرسة، هنالك انتبهت وعدت إلى نفسي، فإذا أنا لم أقدر أن أعيش يوماً واحداً بعيداً عنكم، وإذا صوركم وبسماتكم الحلوة، وشيطنتكم البريئة، وصداقتكم الخالصة، وأصابعكم الممدودة للسؤال قيد بصري حيثما ذهبت!

ولكن لا عليكم مني يا أبنائي، لا تفكروا فيَّ ولا تحملوا همّي، بل فكروا دائماً في (مبادئي) التي علّمتكم إياها، واذكروا في المستقبل أني كنت أستاذكم، وأنكم أحببتموني وأحببتكم، ولا تحقدوا عليَّ لأني كنت أحياناً أقسو عليكم أو أعاقبكم، فإنما كان ذلك لفائدتكم.

وبعد. فقوموا يا أولادي، ودَعوا أباكم الذي لن تلقوه بعد اليوم. .

---

(١) كذاك كانت تسمى الصالحية قديماً.

وخرج صاحبي من المدرسة، مهدود الجسم، خائر القوى، فألقى عليها النظرة الأخيرة، فرآها من خلال دموعه مشرقة بهية، كأنها ألماسة تلمع في شعاع الشمس، ثم ولّى... يفكر تفكيراً مضطرباً.

هذه هي حياة المعلم، يغرس غصون الحب في قلبه فتمزقه بجذورها، فإذا أزهرت جاؤوا فنزعوها من قلبه، فمزقوه مرة ثانية بنزعها، يأخذ المعلّم أولاداً لا يعرفهم ولا يعرفونه، فلا يزال يجهد فيهم ليفهم طبائعهم، ويألفهم ويحبهم، ويقوّم اعوجاجهم ويصلح فاسدهم، حتى إذا أثمر الحب الفائدة وأتى العطف بالمنفعة جاء ولاة الأمور فقطعوا بجرّة قلم واحدة هذه الأسباب كلها، وفرّقوا بنقطة من حبر بين الأب وأولاده، لا لشيء، بل لوشاية سافلة أو مؤامرة دنيئة، أو لإخلاء مكانه ليبوّأه بعض الملتمسين من ذوي الوساطات.

وانطلق صاحبنا يهمس في أذن نفسه:

إني أشعر بالانحطاط والضعف، وأحس كأنني شمعة قد انطفأت، لم يكفِ أنهم أضاعوني وألقوني في هذا الطرّق حتى جعلوني أسبح فيه، ثم أغوص إلى أعماقه، بينما يمرح الأدعياء واللصوص بالعيون الصافية ويقطفون وردها وزهرها!

لم يبقَ لي أمل... لقد سقطتُ في المعركة قبل أن أنال ظفراً، لقد بعت نفسي ومستقبلي وآمالي بتسعة جنيهات في الشهر ثمناً لخبز عيالي... أفكان حراماً أن أجدها في غير هذا الطريق؟ ألم يكن بُد من أن أموت لأعيش؟.

أستغفرك اللهم، فلا اعتراض ولا انتقاد، ولكنما هي شكوى، أفيخسر المرء ماله فيشكو، ويفقد حبيبه فيبكي، ويرى آماله تنهار أمام عينيه ونفسه تذوب وحياته تنضب ومواهبه تذوي ولا يقول شيئاً؟

إنني أشكو، ولكن إلى الله، فليس في الناس من يُشكى إليه!![1]

---

(١) من حديث النفس / ص ١٩٢ ـ ١٩٨.

زفرة مصدور

لقد عَمِيَ أولو الأمر والنهي عن أدبي وعلمي وعما نشرت في الكتب والمجلات والصحف، وهو شيء يملأ ثلاثة آلاف صفحة على أقل تقدير[1]، هب أن فيها كلاماً مرصوفاً لا معنى وراءه تجد أني حملت في كتابتها ورصفها عناء، فكيف وكلها ثمرة التأمل الطويل، ونتيجة كد الخاطر وعصر الدماغ، وما منها شيء سرقته من أديب من أدباء فرنسا ولا انجلترا! عَميَ أولو الأمر عن هذا كله ولم يعدلوه بهذه الورقة السحرية التي جاء بها أولئك من ديار العجم يشهد لهم فيها من يسكن هناك، بأنهم صاروا يفهمون العربية، وغدوا أهلاً للتصدر لتدريسها، ولم يجدوني أهلاً لأكثر من (أستاذ معاون)!.

أفيكون ظلماً مني وعدواناً، إذا أعلنت ما أصابني، وشكوته إلى القراء، وهم أصدقائي؟ لم يبقَ لي من صديق غيرهم، لم يبقَ لي صديق في هذه الحياة، إنك لتعلم ذلك، ولكني لا أشكو!

إنهم يقولون أني عنيد، وأني مشاغب، وأني أُثير المشاكل، ولست أفهم لهذا كله إلا معنى واحداً، هو أني أؤثر الصدق وأعلنه، ولا أفعل ولا أقول إلاّ ما أطمئن إلى أنه الحق...

وهل كان ذنباً أني حَمِيت للفضيلة تُمتهن، وللأخلاق تُهان، فناضلت عنها وقاتلت، وقلت لتلاميذي: ناضلوا عنها وقاتلوا؟.

وهل كان ذنباً أني غضبت لمحمد أن يُنكِر نبوّته ويجحَد رسالته جاهلٌ غرير، في حفلة أُقيمت لتكريم محمد وتمجيد ذكراه؟ وهل كان ذنباً أني لا أقول لسواد الليل أنت أبيض مشرق، ولا أقول لـ (الأعور) ما أحلى عينيك؟.

هذه هي ذنوبي التي خسرت من أجلها صداقات الأصدقاء وكسبت

---

(١) وقد بلغ المطبوع مما كتبت إلى اليوم عشرة آلاف صفحة، ونسوا أن يَذكُروني في المجلس الأعلى للآداب وفي لجانه!!

عداوات الرؤساء، وربحت خصومة الجاهلين، وعُدِدتُ بها من كبار المشاغبين.

❃ ❃ ❃

لقد قارب الفجر، وانطفأت أنوار المدينة... لقد مر عليَّ ساعتان وأنا أفكر، وكل شيء من حولي ساكن ميت، وكذلك حياتي!... إنها خالية منذ سنوات، ليس فيها شيء متحرّك... فأنا أعيش عيش الحالمين، أرقب أبداً الحادث الذي يهز حياتي الساكنة، ويحرك مواهبي الخاملة، ويدفعني إلى العمل، ولكن انتظاري قد طال حتى كِدتُ أيأس من الانتظار.

إنك تغريني بما حصلت من شهرة وما نلت من مكانة ولعل في ذلك تسلية لي لو كنت أحس به أو ألمسه، إنني لا أحس والله بهذه الشهرة، إنني كالمغني الأصم الأعمى، يطرب الناس فيصفقون له ويهتفون، ولكنه لا يسمع ولا يرى، فينصرف حزيناً يحسب أنه خاب وأساء...

إن أهل بلدي ينكرون عليَّ كل شيء حتى الأدب.

لقد قرأت أمس مقالة سقطت إليّ عرَضاً، فرأيت فيها مقالاً يخبط فيه صاحبه خبط عمياء، فيعد أدباء دمشق أو الذين يراهم هو أدباء، فيذكر فيهم كل موظف في وزارة المعارف، وكل تلميذ يدرس في أوروبة، وكل مدرّسي التاريخ والجغرافيا، ولكنه لا يذكر علي الطنطاوي ولا سعيد الأفغاني، أفَسمعت أبلغ من هذا الجهل وهذا النكران؟

هذه حالنا في دمشق التي كنا نحن إليها في مصر، ونحيي الليالي نفكر فيها، وتتراءى لنا صورتها حيال الأفق من عند قنطرة الزمالك أو من ذروة الهرم، ونساهر النجم نفكر فيها، ونعد الأيام للوصول إليها، دمشق صارت كالهرّة تأكل من حُبها بنيها.

لقد حمل البريد إليّ رسائل جمّة ممن أعرف ومن لا أعرف، يسألني أصحابها لِمَ لا أكتب في الرسالة في هذه الأيام؟ فوجدت في هذه الرسائل عزاء وشكرت لأصحابها، وتوهمت حين قرأتها أن في الدنيا من يفكر فيَّ

ويقرأ ما أكتب، ولكني لم أجب واحداً منهم، وبماذا أجيبهم؟ وكيف أقول لهم أن دمشق قد قتلت في نفسي روح الأدب؟

كيف أشكو دمشق التي أحبها؟ وكيف أذمّها بعملها؟

❁ ❁ ❁

ثلاثون سنة ما خرجت منها إلا بشيء واحد، هو أني رأيت الحياة كمائدة القمار، فمن الناس من يخسر ماله ويخرج ينفض كفه، ومنهم من يخرج مثقلاً بأموال غيره التي ربحها، ومنهم من يقوم على الطريق يمسح الأحذية، ومن يمد إليه حذاءه ليمسحه له، ومن ينام على السرير، ومن يسهر في الشارع يحرس النائم، ومن يأخذ التسعة من غير عمل، ومن يكد ويدأب فلا يبلغ الواحد، وعالِم يخضع لجاهل، وجاهل يترأس العلماء، ورأيت المال والعلم والخلُق والشهادات قسماً وهبات، فرُبَّ غنيّ لا علم عنده، وعالِم لا مال لديه، وصاحب شهادات ليس بصاحب علم، وذي علم ليس بذي شهادات،، وربَّ ذي أخلاق لا يملك معها شيئاً، ومالك لكل شيء لا أخلاق له.

ورأيت في مدرّسي المدارس من هو أعلم من رئيس الجامعة، وبين موظفي الوزارة من هو أفضل من الوزير، ولكنه الحظ الأعمى، أو هي حكمة الله لا يعلم سرها إلا هو، ابتلانا بخفائها لينظر أنرضى أم نسخط.

ولكن ما أضيع أيامي في مدرسة الحياة، إن كان هذا كل ما تعلّمت منها في ثلاثين سنة[1]!

زفرة أخرى

إن من رفاقي في كلية الحقوق من هو اليوم من كبار المحامين الذين يُشار إليهم، ومن ينال على وقفة واحدة في المحكمة مائة جنيه في دمشق الفقيرة، فلماذا أعرضتُ عن المحاماة لم أشتغل بها، وأقبلت على مهنة آخذ

(١) من حديث النفس / ص ٨٢ ـ ٨٤.

فيها خمسة جنيهات على مائة درس ألقيها على أربعين طالباً، يحتاج إسكاتهم وضبطهم إلى شُرطيّين مسلّحين بالبنادق الرشاشة...

وإن من رفاقي في الثانوية من هو اليوم ناظر ثانوية كبيرة، وأنا أستاذ معاون، فلماذا درست الحقوق إذا كانت الوزارة لا تعرف أقدار الرجال إلا بما يحملون من شهادات الاختصاص، وكان صاحب الليسانس في الحقوق لا يُعد أديباً في نظرها ولو كان شوقي زمانه، أو رافعي أوانه، وترى صاحب الليسانس في الأدب أديباً ولو كان أعيا من باقل، وأجهل من جاهل!.

وكيف أنسى أني كنت من عشر سنين أقود طلاب دمشق كلهم وأغامر بهم في ميادين السياسة، وأني لو شئت لكنت نائباً من زمن طويل، إن الناس لم ينسوا ذلك، فكيف أنساه أنا؟ إنهم يعلمون أن في قميصي خطيباً ما يقوم له أحد في باب الارتجال والإثارة، وإيقاظ الهمم وصب الحمم، ولكن من الناس من يعقل الحسد ألسنتهم عن شهادة الحق.

أستغفر الله فما أحب الفخر، ولكني اضطررت فقلت، وهل أسكت إذا سكت الناس عن بيان حقي؟.

إن للمظلوم كلمة وهذه إحدى كلماتي، فإن كان فخراً فقديماً كان الفخر من فنون الأدب العربي، وإلاّ فهي ذكرى وتأريخ لأخلاق الناس وأطوار المجتمع.

وكيف أنسى أني بين ماضٍ أضعت فرَصه ونسيت ذكرياته، وفقدتُ فيه ذخراً من العواطف الجياشة والشعور المضطرم، وحاضر بددت أيامه بالرجوع إلى الماضي، وصرفت بكره وعشاياه في نبش الذكريات والبحث في أطلالها عن الجواهر والكنوز... فما كان إلاّ أن دفنت فيها كنز حياتي وجوهر عمري، ومستقبلاً لم أعد أرجو منه شيئاً لأنّي يئست من أن يأتيني منه خير!.

ومن يصدق أني أتمنى لو كنت غبياً جاهلاً عيياً لأستريح وأهنأ، لأني وجدت الذكاء يدفع إليَّ الألم ويؤدي إلى الشقاء، وإني لأهمل القراءة عمداً

كي أنسى ما علمت فأغدو جاهلاً، فلا آلم أن تقدمني الجهّال من أمثالي ولا ألوم الحياة على ظلمها إيّاي، فلا أستطيع، وأراني مدفوعاً إلى الازدياد من هذا العلم، كأن القدر يسوقني بعصاه إلى الاستكثار من القراءة فأزداد بالعلم ألماً حين أرى علمي وبالاً عليَّ، وأرى الجهال يسبقوني ويسرقون منزلتي، ولو أني استبدلت بإحياء الليالي في المطالعة والدرس وثني الركب بين أيدي العلماء رحلة واحدة إلى (تلك) الديار أعود منها بعد شهرين بشهادة في اللغة العربية لم تكتب سطورها بالعربية لكان ذلك خيراً لي وأجدى عليَّ من علوم الأرض كلها لو حصلتها.

ولكني كرهت أن أتوكأ في سيري إلى غايتي على غير أدبي، ونزهت نفسي عن أن أجعل عمادي ورقة صار يحملها الغبيّ والعييّ والجاهل واللص الذي يسرق مباحث الناس ويسطو على آثارهم.

إن عمادي هذا القلم، وإنه لغصن من أغصان الجنة لمن يستحقها، وإنه لحطبة مشتعلة من حطب جهنّم لمن كان من أهل جهنم.

ولكن ما الفائدة من هذا الكلام؟

ما الفائدة وقد ولّى ربيع حياتي، وأدبرت أيامي، واستبدل قلبي بالأصيل المذهب ليلاً حالك السواد؟ لقد شِخت حقاً، وصرت كالعجوز الذي حطّمه الدهر، وفجعه في أولاده فسيّره في مواكب وداعهم الباكية، وما أولادي إلا أمانيّ، وما قبور الأماني إلاّ القلوب اليائسة.

فيا رحمة الله على تلك الأماني!

يا رحمة الله على الأيام التي كنت فيها غراً مغفلاً أصدّق كل خدّاع كذاب يزعم أن في الدنيا فضيلة وخُلقاً وأن قيمة الإنسان بما يملكه منها، لقد خدعني المعلّمون والأدباء، فلماذا أخدع تلاميذي؟ لماذا لا أقول لهم: إن المكر والكذب والنفاق هي في شرع الحياة فضائل، فأعدوا قواكم لإصلاح المعوَجّ من شرائعها، أو فانزلوا على حكمها فخاطبوها بلسانها، وادخلوا من بابها.

إن المربّين والمعلّمين سينكرون ذلك ويكبرونه ويرونه إفساداً لعقول الناشئة، فليكن إذن ما يريد المربون والمعلّمون!.

يا رحمة الله على تلك الأيام ومن يعيدها إليّ؟ من يرجع إليّ ثقتي بالحب واطمئناني إلى الكتب وسكوني إلى الناس؟

كنت أرى الحب أساس الحياة، عليه قام الكون، وبه استمر الوجود، وكنت أومن به، فغدوت لا أومن إلا بالبغض، وصرت أحب أن أبغِض وأُبغَض أن أحب.

فمن يدلّني على مصنّف في أساليب البغض حتى أتقنها وأفهمها، فأبغض الناس كلهم؟ أبلغ الجفاف في القرائح والجدب في العقول ألا يصنف كتاب واحد في (البغضاء)، وقد ألّف السخفاء ألفَ ألف كتاب في الحب؟.

لا، بل من يرشدني إلى الفرار من مهنة الأدب والتخلص من الحب والبغض والعواطف كلها؟ من يحسن إليّ فيدعو لي بظهر الغيب أن يصحح الله عزيمتي على ترك الأدب، أو ينقص من شقائي به؟ لقد أُعطيت عدّة الأديب، ولكن الناس آذوني حتى أهملت عدّتي فأسلمتها إلى الصدأ فأكلها، ففنيت غير مأسوف عليها، لا يأسف الناس لأنهم هم الألى أفنوها، ولا آسف أنا لأني لم أنل منها خيراً.

فلا يغضب القراء! إذا أنا ودّعت الأدب بالتحدث عن نفسي، فإني أرثيها قبل موتها، أرثي مواهبي المعطّلة، لقد متّ، فدعوني لا تؤذوني بالانتقاد البارد، اذكروا محاسن موتاكم، وإذا لم تكن لهم محاسن فعفوا عن ذكر مساويهم.

ولا تنفسوا على أخيكم (زفرة) يزيح بها عن صدره هماً ثقيلاً![1].

---

(١) من حديث النفس / ص٩٠ ـ ٩٣.

كتاب مفتوح

من رسالة إلى الأستاذ أحمد أمين
نشرت سنة ١٩٤٣م

في أصيل يوم من أيام الخريف من سنة ١٩٢٨م وقف حيال جسر الزمالك في القاهرة، شاب شارف العشرين من عمره، كان في السن التي يعيش فيها المرء للهوى والأحلام، فنظر إلى النيل مرة، وإلى الفضاء الأرحب مرة، فذكّره الأفق البعيد المتّشح بأنوار الغروب بحُلّته المنسوجة من خيوط الشمس، بلداً له حبيباً إلى نفسه، هو أضوأ في عينيه من الأفق الذي توارى وراءه، وأمّاً له وإخوة كانوا هم جمال هذا البلد، وملاعب الصبا، ولدات الطفولة، ذكر دمشق، وكان له في كل بقعة منها ذكرى هي قطعة من حياته وما حياة المرء إلاّ الذكريات، ذكر سفوح قاسيون الأنيس، وصخوره الضاحكة ضحك الجبروت، والربوة منبت الحب ومثوى الأماني، والغوطة جنة الدنيا وبستان الأرض، والميزان والشاذروان، والمزّة وكيوان، فهاج نفسه الشوق وأثارها الحنين، فنسي مقعده في دار العلوم العليا، ونسي المطبعة السلفية في شارع الاستئناف التي تشرّف فيها بلقاء الأعلام من علماء العصر من أصدقاء خاله الكريم محب الدين: تيمور باشا، والرافعي، وأحمد أمين وعزّام والخضر التونسي والغمراوي، ونسي جمعية الشبان المسلمين عند دار النيابة، وولّى وجهه شطر المحطة، فلم تكن إلا ساعات حتى كان هذا الفتى يودّع القاهرة التي دنت له فيها الأماني، ويركب متن الشوق إلى

البلد الحبيب، لم يدر أنه ودّع يوم ودّع مصر، مستقبله الأدبي ومجده، ونبوغه واستعداده، وفارق الأرض الخصبة الريّانة، يحمل بذوره لينثرها على الصخر الصلد، ويرجو لها النبات... وترك القاهرة ورجع إلى البلد الذي يموت فيه الأديب، وكان ذلك أول سطر في صفحة شقائه.

هذا الشاب الذي كان يتدفّق حياة، ويتوثّب نشاطاً، والذي كان له في كل ميدان جولة، وكان في كل معمعة فارسها المعلم، والذي عمل للأدب وللإصلاح، وللسياسة وللصحافة ـ وللتعليم وللتصنيف،، والذي عرفته العراق وعرفها، وأحبها وأحبه تلاميذه فيها، وبقي فيهم من يفي له ويذكر عهده، وبقي هو وفياً للعراق ذاكراً عهدها، وكان شأنه في لبنان كشأنه في العراق، والذي مشى إلى الحجاز، وكان له في كل بلد أثر في نفوس أصدقائه وفي قلوب الآلاف المؤلفة من تلاميذه الذين ما انفكّ يوليهم من نفسه وقلبه حتى لم يبقَ له نفس ولا قلب... هذا الفتى أعادته الأيام بعد هذا كله شيخاً ولم يبلغ الأربعين، ميتاً يمشي مكفّناً في جبّة، وضيقت رحاب نفسه حتى أحاطت بها مواد القانون وحطمت قلمه فتعثّر فهو لا يجري إلا في حيثيات القرارات وصيغ المخالفات، وصغرت دنياه حتى صارت تحدها جدران المحكمة الأربعة... فماذا يا سيدي يرجى منه بعد هذا؟

قضى عليه بلده الذي أحبه، وفارق من حبه مصر بعدما بسم له فيها المستقبل عن ثنايا بوارق، ولو أنه بقي في مصر، ومصر (موطن أسرته الأول) تعرف للأدب حقه، وللأدب منزلته لكان منه اليوم شيء[1]!

---

(١) من حديث النفس / ص ٩٧ ـ ٩٩.

الفصل الخامس

في اللغة والأدب
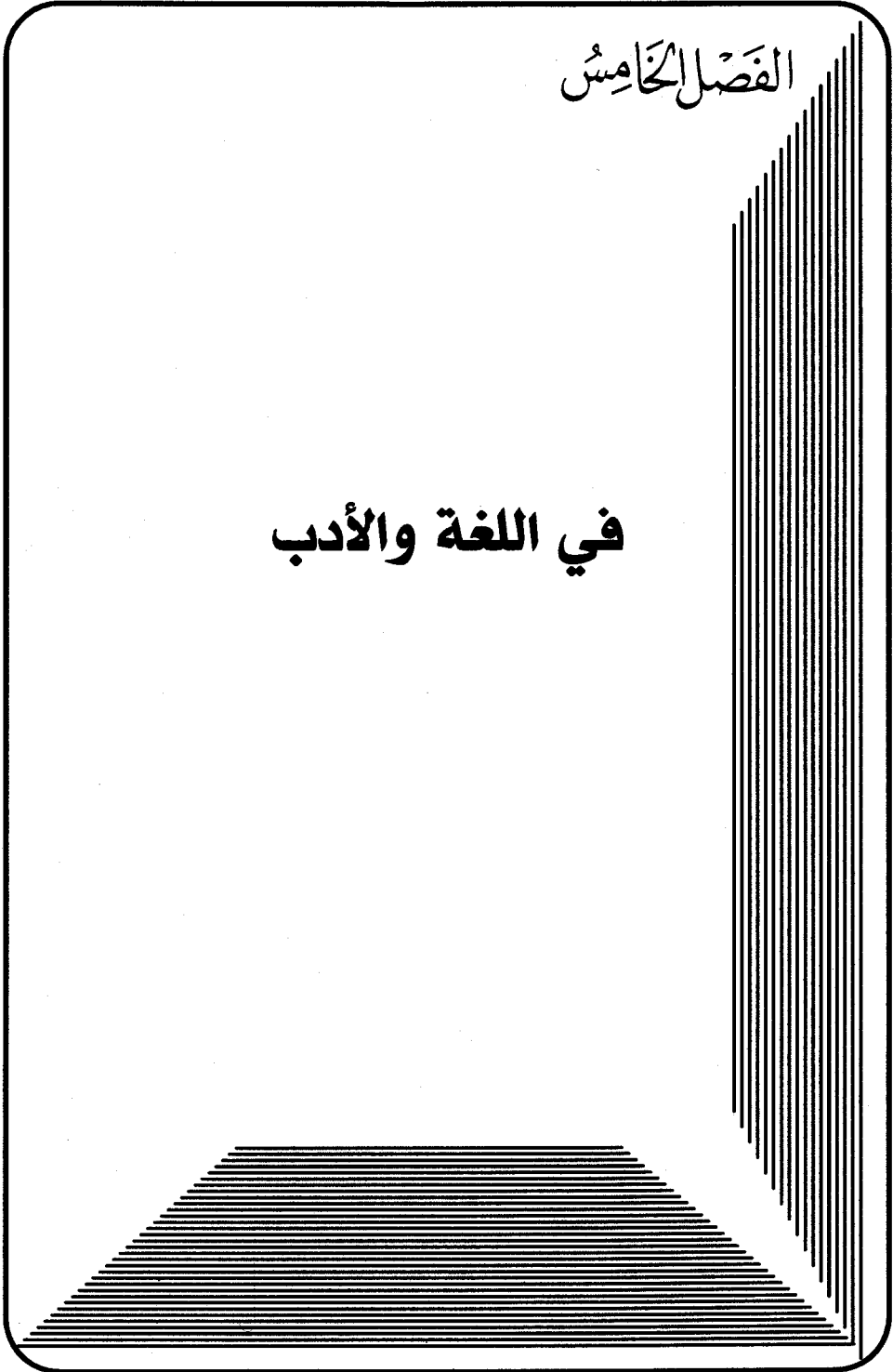
العربية أوسع اللغات

اللغة العربية أكمل اللغات، ما عرفها التاريخ إلاّ كاملة حتى تعجّب من ذلك (أرنست رينان)، وهي أوسع اللغات، ولا يغرّنكم أن في القاموس المحيط ستين ألف مادة، وفي لسان العرب ثمانين ألف، وأن المعاجم الإنجليزية فيها مئات الآلاف، لأن مثلنا ومثلهم مثل رجل له سبعة أولاد فقط، لكنهم خرجوا جميعاً من صلبه، وولدتهم امرأته، وآخر عنده مائة ولد ولكنهم لُقطاء وملمومون لمّاً من الملاجئ والشوارع[1].

اللغة العربية

إن اللغة العربية معجزة الذهن البشري، وأعجوبة التاريخ في عصوره كلها، وإذا كان التاريخ يذكر ولادة كل لغة، ويعرف مراحل نموها، ومدارج اكتمالها، فإن العربية أقدم قدماً من التاريخ نفسه، فلا يعرفها إلا كاملة النمو، بالغة النضج، فمتى وُلِدت؟ ومتى كانت طفولتها؟ ومتى تدرّجت في طريق الكمال حتى وصلت إلينا كاملة مكملة لم تحتجْ إلى تبديل أو تعديل؟ بل قد أمدت بما زاد عنها من ألفاظها أكثر لغات الأرض، ففي كل لغة منها أثر[2].

---

(١) ـ ذكريات الشيخ : علي الطنطاوي (جـ٨) / ص١١٣.

(٢) ـ فكر ومباحث / ص١.

سر العربية

لقد كتبت مرة أن إنجليزي القرن العشرين يقرأ أدب إنجليز القرن السادس عشر، فلا يفهمه إلا بترجمان، ونحن نقرأ شعراً عربياً من ألف وأربعمائة سنة فنفهمه كما نفهم شعر شعرائنا اليوم.

فمن أين للعربية هذه المزيّة؟

وكيف ثبتت العربية برغم النكبات الثقال التي مرّت بها؟ كيف عجزت الدول التركية والفارسية التي تعاقبت على بلاد العرب من أيام الواثق عن أن تقضي عليها؟ بل كيف استطاعت هي أن تقضي على عجمتهم، وتدخلهم تحت لوائها؟ وما هو السر في قوة العربية وثباتها؟

إن السر في هذا الحصن المتين الذي حصّنها الله به:

القرآن يا سادة، القرآن!![1].

أكبر كتّاب العربية

أكبر كتّاب العربية خمسة: الجاحظ، لا أستطيع أن أنفيه منهم، ولا أبعده عنهم، وأبو حيان التوحيدي أول قصصي مبتكِر في أدبنا، والغزالي حين يحلل النفس البشرية في «الإحياء»، وابن عربي في «الفتوحات» إذا قسناه بمقياس الأدب لا بمقياس الدين، وابن خلدون في المقدّمة[2].

الأدب

... من هنا جاءت عظمة الأدب، وجاء خلوده، إنه ليس كالعلوم، إن قرأ طالب الطب في كتاب أُلِّف قبل أربعين سنة سقط في الامتحان، أما طالب الأدب فيقرأ شعراً قيل من ألف وخمسمئة سنة ولا يزال جديداً كأنه قيل اليوم، لا، لا تقولوا إن العلوم تترقى وتتقدم وتسعى إلى الكمال

---

(١) ـ من حديث النفس / ص ١٤٢.

(٢) ـ ذكريات الشيخ : علي الطنطاوي (ج٢) / ص ٢٧.

لأن الجواب حاضر، إن الأدب قد بلغ سن الرشد وحد الكمال، من قبل أن يولد العلم، وقد عاش البشر دهوراً بلا علم، ولكنهم لم يعيشوا يوماً بلا أدب، إن آدم قال لحواء كلمة الحب، لم يحدثها في الكيمياء، ولا حلَّ معها مسائل الجبر في رياض الجنة[١]، والحب أول كلمة في سجل الأدب.

الشعر أخلد من الكيمياء وأبقى من الرياضيات، كم مرة تبدلت نظريات العلم، منذ نظم هوميروس قصيدته، وأشعار هوميروس لا يزال لها رونقها ومنزلتها.

لا أعني الشعر الذي هو الرنات والأوزان، ولا الألفاظ المنمّقة التي لا تحمل معنى، ولكن أعني بالشعر، حديث النفس ولغة القلب، وكل ما يهز ويشجي ويبعث الذكريات، وينشىء الآمال ويقيم النهضات، ويحيي الأمم، الشعر الذي يشعرك أنه يحملك إلى عالم غير هذا العالم، سواء بعد ذلك أكان منظوماً أم كان منثوراً، إن عقد اللؤلؤ لا ينزل قيمته أن يُنثر لأن ثمن الخيط نصف قرش![٢].

بين العلم والأدب

إن الأدب ضروري للبشر ضرورة الهواء، ودليل ذلك أن البشرية قد عاشت قروناً طويلة من غير علم، وما العلم إلا طفل وُلِد أمس ولا يزال يحبو حبواً.. ولكن البشرية لم تعش ساعة واحدة من غير أدب، وأظن أن أول كلمة قالها الرجل الأول للمرأة الأولى كلمة الحب، لمكان الغريزة من نفسه، ولأنها (أعني غريزة حفظ النوع) كانت أقوى فيه، والحاجة إليها أشد، وبقاء النوع معلّق بها، فكانت كلمة الحب الأولى أول سطر في سفر الآداب، كُتبت يوم لم يكن علم، ولا عُرفت كلمة العلم... ودرج البشر على ذلك فلم يستغن أحد عن الأدب، ولم يعش إلاّ به، ولكن أكثر البشر

(١) هذا كلام الأدباء.

(٢) ـ رجال من التاريخ / ص ١٦٧.

استغنوا عن العلم ولم يفكّروا تفكيراً علمياً، وهؤلاء الأكابر من العلماء كانوا يضطرون في ساعات من ليل أو نهار، إلى مطالعة ديوان شعر، أو النظر في قصة أدبية، أو صورة فنّية ليلبّوا صوت العاطفة، ويستمعوا نداء الشعور، وأكثرهم قد أحب وملأ نفسه الحب، فهل بلغ أحداً أن أديباً نظر في معادلة جبرية، أو قانون من قوانين الفيزياء أو أحس الحاجة إلى النظر فيها؟ وهذا أكبر عالم في مختبره، يسمع نغمة موسيقية بارعة، أو يرى صورة رائعة، أو تدخل عليه فتاة جميلة عارية مغرية، فيترك عمله ويقبل على النغمة يسمعها، أو الصورة يمعن فيها، أو الفتاة يداعبها، فهل رأيت شاعراً متأمّلاً يدع تأمّله، أو مصوراً يترك لوحته ليستمع منك قوانين النواس ونظرية لابلاس؟.

هذه مسألة ظاهرة مشاهَدة، وتعليلها بيِّن واضح هو أن المثل العليا كلها تجمعها أقطاب ثلاثة: الخير والحقيقة والجمال، فالخير تصوّره الأخلاق، والحقيقة يبحث عنها العلم، والجمال يظهره الأدب، فإذا رأيت الناس يميلون إلى الأدب أكثر من ميلهم إلى العلم فاعلم أن سبب ذلك كون الشعور بالجمال أظهر في الإنسان من تقدير الحقيقة... وانظر إلى الألف من الناس كم منهم يهتم بالحقيقة ويبحث عنها؟ وكم يعنى بالجمال ويسعى للاستمتاع به؟ إنّ كل من يعني بالجمال ويتذوّقه، بل إن كل من يذكر الماضي ويحلم بالمستقبل ويحس اللذة والألم واليأس والأمل يكون أديباً، ويكون الأدب ـ بهذا المعنى ـ مرادفاً للإنسانية، فمن لم يكن أديباً لم يكن إنساناً[1].

رسالة الأديب

أما المشفقون عليّ، الخائفون أن تلوي الحادثات قناتي، وتهد ركني، فليعلموا أني في أمان، وأن رسالة الأديب أن يطاعن عن الحق ويناضل حتى تعلو كلمته، أو يُصرع دونه، ولينظروا أيهما أسير في الناس وأشهر، أورقة

(١) ـ فكر ومباحث / ص ٢٠ ـ ٢١.

الشهادة الناطقة بفضل صاحبها، أم مجلة يكتب فيها الأديب فيقرؤها مائة ألف؟ وأيهما أقوى وأمتن، أهذا القلم الدقيق أم أرجل الكراسي التي يثبت عليها (أولئك) ويعلون بها؟ وأيهما أحدّ وأمضى، أَلِسان البليغ المفوّه أم ألسنة ببغاوات الليسانس والدكتوراه؟

إن لكل أديب رسالة فليُقوّنا الله على تأدية الرسالة[1].

يا أيها الأدباء

يا شعراء العربية، ويا أصحاب الأقلام، ويا معلّمي الإنشاء، خلّدوا بالأدب كل دار عاش فيها عظيم، وكل بقعة نشأ فيها مجد، وكل ساحة وُلد فيها ظفر، وكل روضة هام فيها شاعر، وكل جبل وكل مصيف، وكل مشتى، عودوا إلى الطبيعة فصفوها، لا تقصروا على وصف ذراها وسفوحها، ومساربها وسوحها، بل انفذوا إلى قلبها وروحها، وإن للطبيعة روحاً وللبلدان لساناً، إن لهذه الأودية المسحورة من لبنان التي ضلّت طريقها بين الجبال كعاشق هائم ينشد طيف الحبيب، لَقلباً يبث في الدنيا عواطف الجمال والتأمّل، ولهذه الجبال المُعْتَمَّة بالثلج، التي تشرف على الدنيا كفيلسوف مفكر يستجلي وجه الحقيقة من بين أشباح الأوهام، لَعقلاً ينثر على الناس حكمة البقاء والعدم، ولهذه الأنهار التي تمشي منذ الأزل، إن للنيل ودجلة وبردى لساناً يروي أخبار الماضي، ويحدث أحاديث القرون، ويملأ الأسماع (لو وُجِدت الأسماع) شعراً وقصصاً وأدباً خالداً[2].

لو أسعدتني القريحة

ولو أسعدتني القريحة لكتبت في وصف هذا الفتى الذي صحبنا في لجنة من لجان الامتحان كان فيها الأستاذ الشيخ بهجة البيطار ليصحح معنا أجوبة التلاميذ، فكان كلما وجد استعارة أو مجازاً خطَّ تحته خطاً، وكلما

---

(١) ـ من حديث النفس / ص ١٧٧.

(٢) ـ مع الناس / ص ٣٤.

وجد مترادفاً من اللفظ أو مزدوجاً من الجمل مدّ مدة فوقه، ثم نقص عليه من درجات التلاميذ درجة، فحاورناه في ذلك فكان من رأيه الذي تعلّمه في باريز وعلّمه التلاميذ الذين جعلوه معلّمهم، أن المذهب الجديد ينكر ذلك ويعده غلطاً، وكانت حجته القاطعة على صحة رأيه أنه رأيه، وبذلك دفع كل ما ردّ به عليه الشيخ، وما بيّن له من سنن العرب في كلامها، وما جرى عليه بلغاؤها وما نزل به الكتاب، ومال ناظر المدرسة إلى (رأيه) لأنه هو وحده بيننا الذي يحمل شهادة التخصص في اللغة العربية من. . . باريز!

ولو أسعدتني القريحة لكتبت في التعليق على الامتحانات وما يكون فيها من الوساطات والالتماسات وما نالني منها، وكم أبصرت في داري من وجوه ما كانت لتكون فيها، لولا الحاجة. . . وطلب (الشفاعات). . وما يحيق بالمدرس المستقيم الشريف من عنت ومشقة، وما يُقال عنه وما يلقى. . . وما يتخذ التلميذ من طرق الغش والحيل، فإذا أظهرتها وعاقبته عليها زعم أنك ظلمته، وتمسكن وجعل نفسه ضحية فأثار عليك الناس، أو (تنمرد) واستكبر فبطش بك، أو شتمك أو وكل بك من يقوم بـ (الواجب).

ولو أسعدتني القريحة لكتبت في تاريخ الأدب فصلاً أجعل إهداءه للدكتور فلان ليرى أن الله لا يستحيل عليه أن يمنح ملكة الأدب من لا يحمل شهادة اختصاص فيه. . . وأن الشهادة بلا علم ليست دائماً أفضل من العلم بلا شهادة. . .

ولو أسعدتني القريحة لوصفت هذا المشهد الذي يملأ النفس ألماً، ويفجر القلب أسىً، منظر زميلنا المعلّم الشاب (مصطفى شكري خسرو) الذي كان موعد زفافه اليوم، وكان صحيحاً معافى، فرُئي اليوم نعشه يمشي إلى المقبرة وعليه غطاء سرير العرس ووقفت زوجته التي كانت ترقب الزفاف تشهد الدفن!!![1]

---

(١) ـ من حديث النفس / ص ١٧٦ ـ ١٧٧.

وداعاً للأدب

... ماذا أفدت من الأدب؟ أما إني لم أجد الأدب إلا عبثاً، ولم أجد الأدباء إلا مجانين، يسعى الناس وراء المال ويسعون وراء سراب خادع يسمونه (المجد الأدبي)، كلما أقبلوا عليه نأى عنهم فما هم ببالغيه حتى يموتوا، وما ينفع ميتاً ذكر في الناس، ولا يغني عنه مجد، وما ينفعه إلا ما قدّم من عمل صالح، ولقد كان رفيقي سعيد الأفغاني أعقل مني، إذ كان يمد شفته ساخراً كلما حدّثته عن آمالي في الحياة ورغبتي في أن أكون كاتباً يشار إليه بالأصابع، وكنا يومئذ في المدرسة الثانوية نتسابق إلى مطالعة الكتب، ونتبارى في تلخيصها والملاحظة عليها، فما صنع الزمان بآمالي؟ لقد أراني أني كنت أسعى أطلب السراب فلا أصل إلى شيء، وما ثمة شيء حتى أبلغه...

هذه هي قصة ابتلائي بهذا الأدب الذي أنا تاركه اليوم، أو ظان أني تاركه، ومقبل على الفقه أجدد العهد بما قرأت من كتبه وواهب له قوتي ووقتي، فليهنأ الذين يجدون فيَّ سداً في وجوههم أن يبلغوا من الأدب ما يريدون، والذين يرون أني مزاحمهم على هذا المورد الآسن[1].

أنا والنجوم

أنا منفرد على سطح دار في (الزبير)[2]، في هذه الليلة الساكنة المتلألئة النجوم، وأمامي الصحراء التي تمتد إلى عمان واليمن ونجد

---

(١) ـ من حديث النفس / ص ١٥١.

(٢) الزبير : بلدة صغيرة على سيف البادية غربي البصرة، تبعد عنها سبعة أميال، فيها قبر بطل الإسلام الزبير بن العوام أحد العشرة المبشرين بالجنة، وعلى مقدمة منها أطلال عليها نقوش ظاهرة، المشهور هنا أنها أطلال مسجد البصرة الجامع، وأهلها يبلغون اثني عشر ألفاً، كلهم مسلمون سنّيون يميلون إلى السلفية، ويحبون العلم، فيها مساجد كثيرة كلها تقام فيه الجمعة ومدرسة أميرية راقية، ومدرسة أهلية إسلامية أسسها الشيخ الشنقيطي رحمة الله عليه، والراجح أنها هي البصرة القديمة، والله أعلم، فليس هنا من يعلم.

والحجاز، وورائي السواد الذي يصل إلى أرض فارس،، وهي قريبة حتى أني لأرى لهيب النفط المشتعل في (عبادان) وأنا في مكاني. . . أتأمّل هذه الصحراء المجيدة المباركة، التي كُتب على رمالها أروع سطور المجد، وأجمل صحائف التاريخ، ونبت في رمالها دوح الحضارة التي أوت إليه الإنسانية، وتفيّأت ظلاله يوم لا ظلّ في الأرض إلاّ ظلّه، وأفكر فيطول بي التفكير، ويطل بي الفكر على آفاق واسعة ودنياوات عظيمة، وتنبلج في نفسي أصباح منيرة، فأجد في رأسي مئات من الأفكار الجديدة الكبيرة، وفي نفسي مئات من الصور الرائعة المبتكرة، ولكني لا أكاد أمسك واحدة منها لأقيدها بالألفاظ، وأغلّها بالكلم، حتى تفلت مني وتعدو في طريقها منحدرة إلى أغوار عقلي الباطن، فلا أنا استمتعت بها استمتاع الناس بأفكارهم، ولا أنا سجّلتها في مقالة وصنعت منها تحفة أدبية.

ولو أني قدرت أن أكتب معشار ما أتصور لكنت شيئاً عظيماً، ولكني لا أقدر. . . ولا أصب في مقالاتي إلا حثالة أفكاري، تنبت الأفكار في نفسي وتزهر وتثمر، ثم تذوي وتجف فآخذ الهشيم فأضعه في مقالتي!

ويتفجر الينبوع في نفسي، ويتدفق ويسيل، ثم ينضب وينقطع، فآخذ الوحل فأضعه في مقالتي وينبثق الفجر في نفسي، ويقوى ويشتد، ويكون الضحى والزوال، ثم يعود الليل، فآخذ قبضة من ظلام الليل، لأكتب منها مقالة عنوانها (ضياء الفجر)!

من أجل ذلك أكره أن أنظر في كل ما كتبت، وأستحي أن أعود إليه، وأحب كل جديد لم يُنشر، وأرى أن الذي يمدحني بمقالاتي يحقرني لأنه لا يعلم أنها درهم من خزائن نفسي المفعمة بالذهب، فهو يقول لي: أن الدرهم كبير منك لأنك فقير، ولكن الذي ينقد مقالاتي وينتقضها يقول لي: إنك غني فالدرهم قليل منك، إن هذه المقالة حقيرة لأنك أنت عظيم. .[١].

---

(١) ـ من حديث النفس / ص ١٨ ـ ١٩.

التجديد كما أفهمه

... والتجديد كما نفهمه ـ أو كما أفهمه أنا على الأقل ـ لا يكون بقطع الصلة بالماضي ولا بالخروج على قواعد اللغة العربية وسنن العرب في كلامها، ولا بالدعوة الحمقاء إلى اللغة العامية، وإلى تحطيم قواعد النحو وإعلان الحرية اللغوية وإنزال الفاعل الذي تعب من الارتفاع هذه العصور الطويلة ورفع المجرور الذي طالما انخفض وذل... كلا، ولست أسمي شيئاً من هذا بالتجديد ولكنه هو التجرد والحماقة، فاللغة يجب أن تبقى كما هي في قواعدها وسننها، ولنصبّ فيها بعد ذلك ما شئنا من أساليب جديدة وأفكار جديدة وكتب جديدة، أي أن نفعل فعل العرب في فجر الدولة العباسية حين ترجموا كتب اليونان والفرس، فجعلوها عربية ولم يجعلوا لغتهم من أجلها يونانية ولا فارسية ولا لغة ممسوخة، كل كلمة فيها هي من أصلها العربي، كالقرد والخنزير من الإنسان، هذه اللغة القردية التي نراها في الصحف والمجلات التي تُتَرجم عن الإنجليز والفرنسيّين أدبهم وشعرهم والتي أنفق ساعة كاملة في تفهم الفقرة الواحدة منها ثم لا أفهمها... فأول شرط إذن من شروط التجديد هو حفظ الصلة بين أدبنا وأدب العرب، ولا يكون ذلك إلا بانقطاع طائفة منا إلى تراثنا الأدبي الثمين الذي يسميه بعض الجاهلين سخرية وهزءاً بتراث (الكتب الصفراء)[1].

القول للسيف ليس القول للقلم

لو كان للكلام الآن مكان لقلنا فبذذْنا القائلين، ولبعثناها في الأرض مقالات، تشتعل حروفها ناراً، وتتفجر كلماتها قنابل، ويكون منها براكين تنفث الحمم، ونحن (العرب) أقرّت لنا الدنيا بأنّا أصحاب البيان، وفرسان المنابر، وأنّا أرباب الفعال، وأبطال الميدان، ولكن عهد الكلام قد انقضى، وستسمع الدنيا غداً عنا، كما سمعت منا، أحاديث تشيب ناصية الدهر، وتحرق فؤاد الصخر، وتحير من هولها ذوي الأحلام، وسترى الدنيا أن

---

(١) ـ من حديث النفس / ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧.

الذي نُهدَّد به من القوة التي خبّأها الدهر في أعصابنا، والتي صنعها لنا ميراث آباء صدق، في عشرة آلاف معركة مظفرة خاضوها، ومائة ألف قلعة منيعة اقتحموها، وألف ألف روح طاهرة في سبيل الله والحق أزهقوها، حقائق ليست خطابيات تسود بها الصحف ويتسلّى بها القرّاء.

ولئن أخذت الأيام السلاح والمال منا، فوضعتهما في أيدي عدوّنا فما أخذت منا إيماننا ولا مضاءنا ولا سلبتنا عزّتنا ولا نبلنا، ولا بدّلت جوهرنا، ولا جعلت عدونا مثلنا، لأن الجبان الشاكي السلاح، لا يغدو بالسلاح بطلاً، والبغل المحلّى سرجه بالدرّ لا يصير بالدرّ جواداً... والأمم الواغلة على المدنيّة، العابثة بالمبادئ الإنسانية، المتخذة العلم ذريعة إلى التدمير، والفن وسيلة إلى الفساد، ليست مثل الأمة التي حملت وحدها أمانة المدنيّة دهراً طويلاً، فما عرفت يد آمن عليها وأنفع لها من يدها: أخذت المنجل فنقّت روضة الحضارة من الأشواك، ثم مهّدتها وحرثتها وشقّت لها الجداول، وأقامت لها السدود وسقتها الماء عذباً نقياً، حتى إذا بسقت أدواحها، وامتدت ظلالها، وملأ الجواء ريّاً زهرها، وانتشى الناس بخمرة عطرها، وارتووا بعصير ثمرها، وعاشوا بوافر خيرها، سلّمناها إلى هؤلاء... المتمدّنين... ليحفظوها للأجيال الآتية، فلم يكن منهم إلا أن رموا عليها قنبلة ذرّية... [1]

مبدأ

لا عجب أن يبدل الإنسان في السنة الواحدة رأياً برأي، وعاطفة بعاطفة، فكيف لا تتبدل آرائي وعواطفي، وأنا أكتب في الصحف والمجلات منذ اثنتين وثلاثين سنة بلا انقطاع؟

على أن لديَّ أشياء ما بدّلتها قط، ولن أبدلها إن شاء الله، هي أني حاربت الاستعمار وأهله وأعوانه وعبيده دائماً، ومجّدتُ العربية وسلائقها وأمجادها وبيانها دائماً، وكنت مع الإسلام وقواعده وأخلاقه وآدابه دائماً.

---

(١) ـ هتاف المجد / ص ١٢٧ ـ ١٢٨.

ولقد بلغ ما طُبع من كلامي أكثر من عشرة آلاف صفحة، لو نخلتها نخلاً ما وجدت فيها بحمد الله سطراً فيه تزلف للظالمين، ولا سطراً فيه إزراء على العربية، ولا سطراً فيه خروج على الإسلام، وشيء آخر هو أني ما كنت أبداً في (حزب)، ولا جماعة، ولا هيئة، وما كان قلمي لهيئة ولا جماعة ولا حزب[1].

الجمال والشعر

إن البشر يكدّون ويسعون، ويسيرون في صحراء الحياة، وقيد نواظرهم كواكب ثلاثة، هي هدفهم وإليها المسير، ومنها الهدى وهو السراج المنير، وهي الحقيقة، والخير، والجمال، وإن كوكب الجمال أزهاها وأبهاها، إن خفي صاحباه عن بعض الناس فما يخفى على أحد، وإن قصرت عن دركهما عيون فهو ملء كل عين، والجمال بعدُ أسّ الحقائق وأصل الفضائل، فلولا جمال الحقيقة ما طلبها العلماء، ولولا جمال الخير ما دعا إليه المصلحون، وهل ينازع في تفضيل الجمال إنسان؟ هل في الدنيا من يؤثر الدمنة المقفرة على الجنة المزهرة؟ والعجوز الشوهاء على الصبية الحسناء؟ والأسمال البالية على الحلل الغالية؟.

• فكيف يكون فيها من يكره الشعر، وهو جمال القول، وفتنة الكلام؟ وهو لغة القلب، فمن لم يفهمه لم يكن من ذوي القلوب، وهو صورة النفس، فمن لم يجد فيه صورته لم يكن إلا جماداً، وهو حديث الذكريات والآمال، فمن لم يذكر ماضياً، ولم يرجُ مستقبلاً، ولم يعرف من نفسه لذة ولا ألماً فليس بإنسان[2].

النقد

إن كثيرين من الكتّاب يميلون إلى معرفة آراء الناس بكتاباتهم، ويهتمّون

---

(١) ـ من حديث النفس / ص ٧ ـ ٨.

(٢) ـ فكر ومباحث / ص ٣٢.

بهذه الآراء جداً، حتى أنها لتشجعهم إذا كانت حسنة وتذهب عزائمهم إذا كانت سيّئة، وهؤلاء الكتاب يخسرون كثيراً من مواهبهم، وينحطّون عن المنزلة التي وضعهم الله فيها، يوم جعلهم كُتّاباً واختارهم لتبليغ رسالة القرون الآتية، فلا تعتادوا هذه العادة ولا تبالوا بأذواق الناس إذا خالفت أذواقكم، ولكن استمعوا إلى نقدهم إذا كان يستند إلى أساس علمي صحيح، أما إذا استند على الذوق وحده فلا... ولو كان ذوق أستاذكم[1].

نقد

قرأت في مجلة من نحو أسبوع هذه الكلمة أنقلها بنصها، وإن كنت أكرم قلمي أن يخط مثلها، وأصون صحفي عن أن أسودها بها وهي: «إنني قرأت في عدد من أعداد المجلة قصيدة عمودية للأستاذ الحيدري، والواقع أنني لم أعجب بهذه القصيدة، ولم أكن أتصور أن شاعراً كبيراً كالحيدري سيعود إلى مثل هذا الشعر الذي كان شائعاً في العشرينات من هذا القرن». انتهى.

وأشهد أن لا إله إلا الله..

هل كنتم تظنون أن يأتي على الناس يوم يخجل فيه واحد منا أن نعود إلى شعر العشرينات يقصد (العشرينيات) من هذا القرن؟ أي إلى شعر شوقي وحافظ، ومن قبلهما البارودي؟ فهل ترونه يرضى لنا أن نعود إلى شعر أبي تمام والبحتري، فضلاً عن جرير والفرزدق، فما بالك بعودتنا إلى شعر النابغة وزهير ولبيد؟ أيريد بخمسة أسطر في هذه المجلة أن يمحو خمسمئة ألف بيت من الشعر قيلت في ألف وستمئة سنة من عمر الدهر؟ إن للشعر معنىً محدداً، وصورة ثبتت في أذهان الناس، من أيام (الأفوه الأودي) الذي كان يعيش كما قالوا على عهد سيدنا المسيح عيسى بن مريم عليه السلام، إن الشعر عندنا لا يمشي إلاّ على ساقين من الوزن والقافية، فإن فقد إحداهما مشى على العكاكيز، وإن فقدهما صار شعراً كسيحاً، لا يتحرك إلاّ

(١) ـ فكر ومباحث / ص ١٤٦.

على كرسي ذي دواليب[1].

أدب هذا أم ماذا؟!

... إني ليسرّني والله ويثلج صدري أن أرى إخواننا الشبان النابهين من طلاب البكالويا ينصرفون إلى الأدب، ويعالجون صناعة البيان، ويكتبون القصة والمقالة وينشرون في الصحف.. وإني ليعجبني أن تنتعش الروح الأدبية في هذا البلد، ويسجل في قائمة (المشتغلين بالأدب) أسماء جديدة، إذا لم يكن لأصحابها بلاغة شيوخ الأدب، واطّلاعهم الواسع، وعلمهم وعقلهم، فإن لهم لحماسة، وإن لهم لنشاطاً ليس للشيوخ مثله.

ولكن لا أحب أن ينسى إخواننا الأدباء الجدد وهم يكتبون وينشرون أنه سيقرأ ما يكتبون الفتى الناشئ والفتاة في الخِدر، وأنه سيقرأ الجريدة الأب على أولاده، والولد على أبيه، فلا يكتبوا فيها ما تستحي الفتاة أن تقرأ على أبيها، ولا يألم الأب أن يقرأه على فتاته، ولا يكتبوا إلا ما تسمو به الأخلاق ويزكو به الأدب، وتقوى به الوطنية وتعز به الفضيلة...

ولقد قرأت اليوم ـ في جريدة محلية ـ قصة اضطررت والله معها إلى أن أمزق الجريدة، وأخفي قطعها عن إخوتي وأخواتي، كيلا يقرؤوها، وفعلت مثل ذلك من أيام... ولعلني سأفعله كثيراً إذا لم يشأ إخواننا الشبّان.. أن يقلعوا عن هذا النوع من الأدب، ويستبدلوا به أدباً فاضلاً عفيفاً، يصوّر شيئاً غير هذه الثورة الجنسية، وينظر إلى المرأة ـ إذا لم يكن بُد من ذكر المرأة ـ نظرة أسمى: يرى منها نفسها وأخلاقها، ودينها وعفافها، وعملها في الحياة، لا جسمها وحده... وينظر إلى المرأة (الأم) وينظر إلى المرأة (الزوجة)، وينظر إلى المرأة (الأديبة) أو (العالمة) أو (المصلِحة)، لا إلى المرأة من حيث هي (امرأة) فقط.. ويتخذ الأدب وسيلة للإصلاح، أو يمتنع ـ على الأقل ـ أن يتخذ منه سبباً إلى الإفساد..

---

(١) ـ ذكريات الشيخ : علي الطنطاوي (جـ٨) ـ / ص ٣٣٣.

وما معنى قصة لا تصف إلا الجانب الأرضي من صلة الرجل بالمرأة، الجانب الذي يبدوان منه زوجين من أزواج الحيوان؟ وأي جدوى لهذه القصة سوى أنها تنبّه في قارئها هذا الحس الحيواني.. وتدفعه إلى إرواء هذا الظمأ الجنسي من أقرب مستنقع؟

على أن الذي يدفع (أدباءنا الشباب) إلى هذا الأدب العاري.. الأدب المخنّث.. أنهم يقرؤون في قصص الغرب ويرون في روايات السينما مثله.. ولا يعلمون أن الأدب في جملته والأدب القصصي على التخصيص، يجب أن يمثل الحياة الموضعية، ويعرضها في أشكالها كلها، ويصف جوانبها جميعاً، ولا يعلمون أنه إذا مثّل هذا الأدب حياة الغرب، فإنه لا يمثل حياتنا، وإن زقاق الصخر وما فيه.. ليس دمشق كلها، وإن في دمشق بحمد الله شيئاً غير حياة هذه (البنسيونات) الوضيعة.. إن فيها لحياة عائلية محترمة، إن فيها لشرفاً، إن فيها لجمالاً، إن فيها لبطولة، إن فيها أشياء كثيرة، كلها شريف وكلها جليل، ولكن إخواننا الذين يكتبون هذه القصص ـ كما يظهر لنا ـ لا يريدون أن يعرفوا شيئاً منها، ولا يريدون أن يصفوها، ولا يريدون أن يخرجوا من هذه الدوائر التي تحدها مدرسة التجهيز الجديدة من هنا وشارع بغداد من هناك... ولهم أن يصفوا ما شاؤوا، ولهم أن يهتموا بالذي يحبّون، أما أن ينشروا في جريدة يومية قصصاً لا فائدة منها ولا جدوى... إلا أنها تفسد أخلاق الناشئة وتدلهم على الطريق الذي ينحدرون منها إلى الهاوية... فشيء لا يمكن أن يُحتمل.

❀ ❀ ❀

فيا إخواننا (الشبّان الأدباء):

اعذرونا... إننا لا نستطيع أن نتخلّى عن أخلاقنا وشرفنا وعفاف أبنائنا وبناتنا إكراماً لخاطركم... وحباً بعيونكم، فأَقلعوا ـ والله يرضى عنكم ـ عن هذا الأدب المخنّث العاري، واعملوا على تهذيب النفوس وكبح جماحها، وإحياء الفضيلة فيها، واجعلوا أدبكم السلاح الذي تقتلون به

الرذيلة... لا الحبل الذي تجرّون به الشباب إليها! [1]

بيان واعتذار

كان النقد عند الطبقة التي قبلنا من الأدباء مثل المصارعة الحرة: ليّاً (أي لوياً) للأيدي وخلعاً للأكتاف، وكسراً للأصابع، نطحاً وبطحاً ورفساً وعضاً ورفعاً وخفضاً، وكل ما تصنع الوحوش المتقاتلة في الغاب، وما لا تصنعه الوحوش، حتى أن الواحد لَيرفع الآخر في الهواء، ويداه ممدودتان ثم يلقي به على الأرض، فيختلط طوله بالعرض، وكنت (ولا فخر) من أقدر أصحابي ومن هم في طبقتي في هذا، وكنت أشدهم على الخصم، وأكثرهم احتمالاً من الخصم، على أنني ما كنت أضرب وأهرب، بل أقف مقيم الصلب، مبدياً صفحة الصدر، قد شددتُ عضلاتي، أدعوه ليضربني خمساً أو ستاً فلا أتزلزل ولا أتزعزع، وأضربه واحدة، فيخر منها للوجه ولليدين.

ثم قلبت صفحة، وفتحت صفحة جديدة، أرادوا وإن لم يحققوا ما أرادوا، أن يكون النقد كما قالوا موضوعياً، ناعماً ليس فيه لكم ولا لطم، ولا رفس، ولكنه شيء كالعناق والتقبيل، ومس بالأيدي الناعمة، وتربيت على الأكتاف اللينة، أو أن يغمض الناقد عينيه، إن لم يكن ذا خبرة بهذا الفن، ويلوح بذراعيه، ويضرب بلا قصد، لا يبالي أين تقع يده، كأنه لا يفكر برأسه الذي بين كتفيه، بل بإبهاميه اللذين في قدميه، فيخرج من المعركة محطّماً، سواء في ذلك أكانت المعركة له أو كانت عليه.

وقد تركت من قديم حوض المعارك، وابتعدتُ عنه وألزمني الكبر ابتغاء السلامة، ولكن غاظني من بعض المجلات أن فيها صفحة للأدب ولكن ليس فيها أدب، ما فيها إلاّ كلام مصفوف بلا نظام، مرصوف بلا إحكام، ألفاظ لها مثل صوت الطبل، وهي فارغة فراغ الطبل.

---

(١) ـ هتاف المجد / ص ١٧٥ ـ ١٧٧.

يعلنون عن القصيدة الجديدة للشاعر الكبير، فتأخذ أنت المجلة فلا ترى قصيداً ولا رجزاً ولا موشحاً ولا شيئاً مما يقال له شعر، ولا ترى شاعراً كبيراً ولا صغيراً، ولا وسطاً بين الكبير والصغير، ، ماترى إلاّ صافاً كلاماً لا تفهم منه شيئاً، لأن كاتبه ما عنده شيء يريد أن تفهمه منه.

يقولون إنه الغموض، وإن من مزايا الشعر الحديث هذا الغموض، ولقد عرفه شاعر فرنسي عبقري مشهور عرف به هو (بول فاليري)، الذي ألقى عنه محاضرة سبق أن أشرت إليها وبيّنت رأيي فيها، وهو صاحب القصيدة التي اشتهرت في الأدب الفرنسي الحديث، (المقبرة البحرية) فكانت قطعة أدبية رائعة، ولكنها غامضة، فكان كل ناقد يفسرها تفسيراً جديداً، حتى أن أستاذاً جامعياً يهودياً اسمه (كوهين) ألقى محاضرة في شرحها حضرها الشاعر نفسه، فلما انتهى منها قال له: شكراً لقد أفهمتني شعري، فما عرف الناس أيشكره حقيقة أم يسخر منه.

• ولقد عرف العرب نوعاً من الغموض، ولكنه غموض يفتح آفاق الفكر، وينبّه أذهان السامعين كقول الشاعر:

لو كنت أعلمُ أنَّ آخر عهدكم يوم الفراق فعلت ما لم أفعلِ

فذهب النقاد يبحثون عن هذا الذي كان يمكن أن يفعله، وقول شوقي:

إن رأتني تميل عنّي كأن لم تكُ بيني وبينها أشياءُ

فذهبوا المذاهب في بيان هذه الأشياء، وأمثال هذا كثير في الشعر.

لقد نسيت أنه قد مضى عهد النقد الذي عرفناه، وترك الناس وتركت معهم أسلوب الشيخين الرافعي والعقاد وأمثالهما، وأنها قد رقت الأجساد، واسترخت العضلات، وأرهفت المشاعر، ولم يعد الأديب أو الشاعر ولو كان من أهل الحدث الأكبر الذي يوجب الغسل أعني (الحداثة في الشعر) لم يعد ذلك المصارع الذي يكيل للخصم الضربات ويحتمل منه الضربات

بل صار كالغادة الرقيقة أو كالأغيد الناعم[1].

تزوير

• رحم الله الأستاذ العقاد عندما كان رئيس لجنة الشعر، قدّموا إليه بعض هذا الذي يسمونه شعر الحداثة، فأحاله إلى لجنة النثر لأنه أراد أن يدخل مدينة الشعر بجواز سفر مزوّر فردّه إلى موطنه، ولولا أنه رحمه وأشفق عليه لأحاله إلى محكمة الجنايات بتهمة التزوير[2].

لبنان

كنت في بيروت فمللت صخبها وضوضاءها، وأحسست أن قلبي جائع لا يشبعه إلا الجمال، ونفسي عطشى لا يرويها إلا الحب، وتمنّيت أن أعيش يوماً في هذه الجنة... التي تلوح لساكني بيروت من شرف السماء كما تلوح الفراديس لعيني العابد المتبتّل... وتبدو لهم بِذُراها المكلّلة أبداً بالثلوج رمزاً للصفاء والطهر، وهامتها المرفوعة المشمخرة صورة للعظمة والمجد، وصخورها الهائلة التي تتلو على الدنيا سورة الخلود، وسفوحها الحالية بأشجار الصنوبر والسرو، التي تصف الحياة الباسمة والجمال الباقي، وقُراها الضائعة في الضباب العطر، وغاباتها السكرى بالنشيد الحلو، وشعابها ومساربها التي يمرح فيها الحور العين، والولدان المخلدون، آمنين في مثابة العشّاق وحمى المحبّين، وأوديتها العميقة عمق السر في نفس الصب المدلّه يحب أن يذيعه ثم يضن به فيختزنه في صدره، الرهيبة رهبة الأزلية عند أبناء هذا الوجود الفاني... الساحرة سحر المجهول الذي يحبه الناس بمقدار ما يخافونه!.

وكانت الدنيا تخطر في حلل الربيع، وكانت الطبيعة في عرس، فخرجتُ مع فئة من تلاميذي نؤم دنيا الأحلام وجنة المستعجل، وذهبنا

---

(١) ـ ذكريات الشيخ : علي الطنطاوي (جـ٨) / ص٣٠٣ ـ ٣٠٥.

(٢) ـ ذكريات الشيخ : علي الطنطاوي (جـ٨) ـ / ص ٣٣٤.

نصّعّد في الجبل على غير ما طريق، بل لقد تنكبنا الطرق عمداً، ونأينا عن السبل المسلوكة والقرى العامرة، لنرى الطبيعة العذراء ونبصر الجمال البكر، لا الذي ازدحم عليه الواردون، فلم نكن نبلغ الذروة بعد طول الجهد، ونحسب أنا قد وصلنا حتى تظهر لنا من ورائها ذُرا وضهور، فنعود إلى التسلق طَرِبين، والطبيعة، ويح الطبيعة تعرض علينا من فتونها ألواناً، وتغرينا بالحب ما وسعها الإغراء.

فلم تلبث أن أيقظت في نفوسنا بنات الهوى وشياطين الغرام، فإذا نحن نفتّش في أثناء نفوسنا عن ذكرى حب قديم، أو أمل بحب جديد... وإذا نحن نحس بهذه العاطفة المبهمة التي يبعثها الجمال في النفوس الشاعرة، فنزهد في المال والجاه والمجد، ولا نطلب من الحياة إلا خلوة هادئة على صخرة من هذه الصخور، نقضي فيها العمر كله مع من نحب في قُبلة واحدة... وهل يتّسع عمر الإنسان (ليت شعري) لأكثر من قبلة واحدة؟[1].

العلم والمال

... أليس هناك طريقة لإنقاذ الدماغ من المعدة؟ لإنصاف العلم من المال، لحماية النبوغ من الضياع؟.

من يشتغل بالعلم والدرس والكتابة والتأليف إذا كان الفقراء لا يطيقونه، والأغنياء لا يحسُّونه؟ أكان لزاماً على من يشتغل بذلك أن يموت من الجوع؟ ألا يستحق هذا المسكين بطريقة من الطرق، بقانون من القوانين، عشرين ديناراً، يأخذها موظف جاهل خامل بليد، لا يحسن شيئاً إلا النفاق والالتماسات والوساطات، ولا ينفع الأمة معشار ما ينفعها هذا الذي يذيب دماغه، ويحرق نفسه، ويعمي بصره، وينفق حياته في النظر في الكتب، والخط بالقلم؟[2].

---

(١) ـ قصص من الحياة / ص ١٤٦.

(٢) ـ فكر ومباحث / ص ٢١١.

أمنية

إن عليّ أن أعد لكم كل جمعة هذا الحديث، وعليّ أن أعد خطبة الجمعة في مسجد الجامعة أو أفتش عمّن أوكله بها، وعليّ أن أكتب مقالة الاثنين في الأيام، وأنا مرتبط بثلاث مجلات أكتب بها ومجلات أخرى أعاود الكتابة فيها حيناً بعد حين، وعندي كتب أعدّها للطبع، وقد عهدَت إليَّ داران للنشر أن أكتب لهذه سلسلة من القصص الصغار، ولتلك سلسلة في تراجم الرجال، وعليّ فوق ذلك عملي في المحكمة، وهو وحده يملأ وقت مثلي ورأسه ويستنفد قواه، إني أتمنى أن أعيش شهراً لنفسي كما يعيش الناس، وأين مني ما أتمناه، إن الناس إذا سمعوا خبراً أو قرؤوا قصة فكروا في ذلك لأنفسهم، وأنا إن سمعت أو قرأت فكرت كيف أبني على ذلك مقالة أو أصوغ منه قصة، وإن رأى الناس مشهداً من مشاهد الطبيعة أو فلماً من أفلام السينما استمتعوا به لأنفسهم، وإذا رأيته أنا فكرت كيف أصفه لأمتع به القرّاء والمستمعين، وإن فرحوا أو حزنوا كان فرحهم أو حزنهم لهم، وفرحي أنا أو حزني للناس، أعمل من أجل ذلك عمل المجانين[1].

المعلم الأديب

فتحت اليوم درجاً لي، فيه أوراق لم أفتحه من نحو عشرين سنة، فوجدتُ صفحات رائعة من قصة كنت شرعتُ فيها، ونفسي مترعة عاطفة، وقلبي متفتح للإلهام، ثم قطعتني عنها شواغل التعليم، (وقد كنت يومئذٍ معلّماً)، وصرفتها من ذهني، حتى إني لأجدها الآن غريبة عني، كأنها لم تكن لي ولم أكن كاتبها.. فجعلت أتلوها، وجعلت صور أيامي الماضية تمر أمام عيني.. فأرى تلك الأيام التي أضعتها في التعليم، وتلك الأفكار والصور التي خسرتها ونكبت بها.. وليس المنكوب مَن ذهب مالُه أو احترقت داره، فإن الصحة تردّ المال، والمال يعيد الدار، ولكن المنكوب مَن ثكل أفكاره، وأضاع ذكاءه، وعاش بائساً يائساً، ومات مغموراً منكراً،

---

(١) ـ من حديث النفس / ص ٢١٨.

وقد كان أهلاً لأن يسعد حياً بذكائه، ويخلد ميتاً بآثاره.

إن المنكوب هو المعلّم الأديب، الذي وُهِب له الأدب، وكُتب عليه التعليم؛ إنه يسكب ثمرة حياته، وعصارة قلبه، وجني الليالي الطوال التي أحياها ساهراً، عاكفاً على كتبه، مطفئاً نور عينيه، مذبلاً زهرة شبابه، يصبّها كلها بين أيدي طلاب لا يكاد أكثرهم يحفظ لمعلّم عهداً، ولا يذكر له ودّاً، يصبح المعلم الأديب وفي نفسه موضوع المقالة، وفيها صورها وأفكارها، ولكنه لا يستطيع أن يكتبها، إنه مشغول عنها بتصحيح وظائف التلاميذ، هذه الوظائف التي تحرمه لذة المنام، وأنس السمر، ومتعة المطالعة، وتأكل صحته ووقته، ثم إذا انتهى منها وحملها إلى التلاميذ مصححة، لم يتنازل أحدهم إلى النظر فيها، وإنما يلقونها في أدراجهم لينظر فيها الشيطان، ثم يأتي الآذن فيجمعها ليوقد بها النار..

ويعد الدرس، وينفق في إعداده من الجهد ما لا يعلمه إلاّ الله، والمخلصون من المعلّمين، ويلقيه مندفعاً متحمّساً، فلا يروعه (إن كان في الابتدائي) إلاّ تلميذ يخز رفيقه بمرفقه ليريه كيف اصطاد ذبابة، أو ليحدثه (إن كان في الثانوي) حديث رواية في سينما، أو مباراة على ملعب، أو تلميذ يقرأ قصة سخيفة من قصص الجيب، أو يصور على الورقة ثوراً له قرنان، أو يرسم الأستاذ المحترم... وإن كان (في الجامعة)، رأى أمامه فلماً من أفلام الحب ناطقاً بلغة العيون..

ثم يكبر الطلاب، فينكرون المعلم وينسونه، وربما احتاج إلى أحدهم، فأراه صنوف الحرمان، وربما صار أحدهم رئيسه فأذاقه ألوان الأذى... مسكين واللهِ المعلّم[1]!!.

ثلاثة شروط لنجاح المعلم

أولها: استيعاب المادة التي يدرّسها، والإحاطة بها، والرجوع إلى كل

---

(١) ـ مقالات في كلمات / ص ١٤٤ ـ ١٤٥.

كتاب يصل إليه من كتبها، لا يقتصر على الكتاب المقرر، أما في الجامعة فلا يجوز أبداً أن يُقرر للطلاب كتاب بعينه، لا يرجعون إلاّ إليه، ولا يأخذون إلاّ منه، ومن يفعل ذلك من الأساتذة يكن معلم مدرسة ابتدائية لا أستاذاً في جامعة.

الثاني: أن يسلك إلى أفهام الطلاب كل سبيل، فإن ساق المسألة بعبارة لم يفهموها بدّل العبارات حتى يصل إلى العبارة التي يستطيعون أن يفهموها، وما دامت مسائل العلم في ذهنه، وكلمات اللغة بين يديه، سهل ذلك عليه.

لما جاءتنا هذه الرياضيات الحديثة نقل بعض الأساتذة منا ما قاله فيها غيرنا، فما فهمنا عنهم، وما أحسب أنهم هم فهموا ما نقلوا، فجاء أخي الدكتور عبد الغني فشرحها في كتابه، الذي وضعه لطلابه في جامعة دمشق، من أكثر من عشرين سنة، فإذا هي مفهومة واضحة.

أحسب أني بعُدتُ عن موضوع الذكريات، وهذا دائي، أذهب يميناً وشمالاً، ولكن آتيكم حيثما ذهبت بما ينفعكم أو يمتعكم.

أما الشرط الثالث فهو: أن يكون طبيعياً، فإن لم يعرف المسألة قال للطلاب إني لا أعرفها، وإن أخطأ قال لهم إني أخطأت فيها[1].

العبقري والنابغة

لقد علّمت الطلاب يومئذٍ التمييز بين العبقري وبين النابغة:

بشار عبقري، ومروان بن أبي حفصة نابغة، ومن قبله كان امرؤ القيس عبقرياً، وزهير نابغة، ومن بعده أبو تمام عبقري، والبحتري نابغة، المتنبي عبقري، وأبو فراس نابغة، شوقي عبقري، وحافظ إبراهيم نابغة.

• العبقري يشق طريقاً جديداً، والنابغة يسلك الطريق المعروف، ولكنه يجيء سابقاً في أول الركب، وقد يكون الطريق الجديد الذي كشفه العبقري

---

(١) ـ ذكريات الشيخ : علي الطنطاوي (جـ٦) / ص ٢٣٧.

وعراً أو ملتوياً، لذلك كان من صفات العبقري أنه يسبق حتى ما يتعلّق أحد بغباره وقد يتعثّر ويتأخّر، يعلو وينخفض، والنابغة يسير بسرعة واحدة غالباً، لا يسبق سبقاً بائناً، ولا يتخلّف تخلفاً شائناً[١].

مالك بن الريب

شاعر لم يغنّ مع الحمائم في الروض الأغنّ، ولم يهم مع السواقي في الوادي الضائع، ولم يدلج مع النجم في الأسحار الندية بعطر الفجر، ولم يتبع الشمس في العشايا السكرى بخمر الغروب، ولم يرقب طيف الحبيب في الليالي التي تكتم أسرار الهوى.

ولئن سابقت شاعرية الشعراء الزمان فسبقت الشباب، وظهرت بوادرها في مدارج الصبا، وملاعب الفتوة، فإن هذا الشاعر لم تنبثق شاعريته إلا على سرير الموت، وشفا الردى، على عتبة الدنيا خارجاً منها، وعتبة الآخرة داخلاً إليها، وفي الساعة التي يعيا فيها الشاعر، ويؤمن فيها الكافر، ويضعف فيها القوي، ويفتقر فيها الغني، ولم تنبثق إلا بقصيدة واحدة، ولكنها كانت نفحة من عالم الخلود فخُلّد بها.

قصيدة وهبها للموت، إذ تغنى له فيها فوهب له الموت بها الحياة، لم يتفلسف فيها تفلسف المعرّي، ولا تجبر تجبر المتنبي، ولا أغرب إغراب الدريدي، ولكنه جاء بأقرب الأفكار في أسهل الألفاظ، فجاءت من هذه السهولة عظمة القصيدة[٢].

الصحراء

... تختصر صفتها ويوجَز تاريخها في كلمتين اثنتين هما: الحب والحرب، فليلها للحب، ونهارها للحرب، حرب مع الشمس اللاهبة والرمال المشتعلة، والضلال والموت، حرب مع الناس، فإذا أدركك

---

(١) ـ ذكريات الشيخ : علي الطنطاوي (جـ٤) / ص ٧.

(٢) ـ رجال من التاريخ / ص ١٦٥ ـ ١٦٦.

المساء، ولا يدرك مساءها إلا كل بطل صبار قوي متين، تفتح للحب قلبك، فأحسست فيه بشوق إلى الهيام كشوق الظمآن إلى الماء الزلال، وشعرت كأن البادية كلها ملكك، فأنت منها في روضة وغدير، تعانق بدْوَها إن لم تجد من تعانقه، وتسامر نجمها إن أعوزك من تسامره، ويقبل عارضيك نسيمها الرخي الحبيب الذي يصور لك أنفاس الأحبة.

أشهد لقد نقّت ليالي الصحراء نفسي وصفّتها وعلّمتها الشعور بجمال القبح وأنس الوحشة وأغاني الصمت، فعرفتْ جمال الكون، فأوصلها إلى معرفة كمال المكوّن، كما صهرت أنهار الصحراء عزيمتي فألقت عن نفسي أوضار الخوف والجبن والضعف والتردد، وأشعرتها عظمة الطبيعة وقوتها، فشعرت بعظمة الطابع، ولم أكن أعدم النظر في الآفاق الواسعة، ولا حُرمت التحديق في المناظر البعيدة، وإني لأبصر من شباك داري دمشق كلها وغوطتها والقرى المنثورة فيها، لا يغيب عني من ذلك شيء فأرى فيها نهاية الجمال والرواء، ولكني لا أرى فيها طهر الصحراء ولا صفاءها.

الصحراء مبسوطة مكشوفة كالرجل الصريح الشريف ظاهرها كباطنها لا تخفي سرّاً ولا تبطن دون ما تُظهر أمراً... ليست كالمدن ولا كالرياض، والله وحده يعلم كم يتوارى خلال تلك الأشجار المزهرة الخضراء، وتحت تلك السقوف المزخرفة والقباب والسطوح من رذائل ورزايا، وكم يسكنها من عوالم الكذب والنفاق والحسد.

إن الله حرم الصحراء رواء المدن، وروعة السهول وفتنة الأنهار، ولكنه أعاضها عن ذلك ما هو أسمى وأحلى: جمال الصدق، وبهاء الصراحة، وسنا الإخلاص، ليس في الصحراء مثل النيل ولا الفرات تأوي إلى ضفافه، وتبصر غروب الشمس في مائه، وتمخر بالزورق عبابه، وما فيها إلا برك وغدران قليلة الماء غير دائمة ولا باقية، ولكنها على ذلك أجل من النيل وأجمل من الفرات لأنها في... الصحراء..[1].

---

(١) - من نفحات الحرم / ص ٩٨.

حياة البادية

هذه الصحراء التي لا يعيش فيها الجبان العاجز، لأن الحياة فيها بين عيني الأسد لا ينالها إلا شجاع مقدام، أخو غمرات، صبار على النكبات، ضحاك في الملمّات، وإلا ابن الشمس، صديق الرمال، حليف الجوع والعطش ذو إرادة لا تنثني، وهمة لا تطاول، وعزيمة لا تفل.

ولا يعيش فيها المريض، لأنها لم تخلق مستشفى للمرضى، ولكنها خُلقت ميداناً للأبطال، ومن أين يأتي البدويَّ المرضُ ما دام لا يُؤتَى من قِبل معدته (والمعدة بيت الداء).

ولا يعيش فيها الفقير لأن أهلها كلهم أغنياء، وهل الغنى إلا أن تنال كل ما تطلب؟ وهل يطلب البدويّ إلا ماء له وكلأً لمواشيه؟ فإذا أمحلت الدار أمَّ غيرها.

وفـــي الأرض مـــنـــأى لـــلـــكـــريـــم عـــن الأذى

وفـيـهـا لـمـن خـاف الـقـلـى مـتـحـوَّلُ

ولا يعيش فيها المنافق المتملّق الخدّاع الذي يلبس صوف الحمل على جلد الذئب، لأن الصحراء منبسطة مستوية متكشّفة ظاهرها كباطنها، وليس فيها سقوف ولا جدران، ولا مغامرات ولا سراديب، وكذلك نفس العربي، ما في قلبه على لسانه، فإن عاداك فعداوة الشريف يستقبلك بالشر ولا يستدبرك به، ويحمل إليك الموت على شفرة السيف، لا يقدمه في كأس من الذهب قد خلط فيها السم بالدسم، وإن صافاك آخاك أخوّة الشريف يفديك بنفسه وماله، ولا يرغب عنك حتى ترغب عنه، وإذا أنت أنكرت على العرب جفاء في الطبع أو خشونة في المقال، فلن تنكر منهم عَوْضُ تلوّناً ولا تملّقاً، ولا تنكر منهم لين الحيّة ولا لطف المستعمر. . . على أن الجفاء ليس من شأن العرب، ولا هو في جميعهم، وإن فيهم لَلُطفاً، وإن فيهم لظُرفاً، وإن لهم لأحلاماً[١].

(١) ـ من نفحات الحرم / ص ١١٤.

أما الرسالة فقد أفضلت عليَّ، وأضاءت للناس مكاني، ومشت باسمي إلى بلاد ما كنت أسمع بها، وجاءتني بالشهرة والجاه ومجد الأدب، وعرّفتني بإخوان كرام في أقطار ما دخلتها ولا أظن أني سأدخلها، وهذي رسائلهم تحت يدي من المشرق والمغرب، من إيران وإندونيسيا واليابان، فهل تعلمون أن للرسالة سوقاً وقُرّاءاً في اليابان؟ ومن تونس والجزائر ومراكش وأميركا، ولقد كتبت مرة مقالة عن ـ الحياة الأدبية في دمشق ـ فتجاوبَت في الرسالة أصداؤها ببضع عشرة مقالة عن حياة الأدب في هاتيك البلدان، وكانت مناقشة مرة بيني وبين الأستاذ محسن البرازي، الذي صار رئيس وزراء حسني الزعيم، ثم قضى ـ رحمه الله ـ فجاءني التأييد من (جاوا) وهذه جريدة (برس) بشيراز تنشر الآن كتابي الجديد (كلمات) مترجماً إلى الفارسية بقلم الأديب الفارسي الأستاذ: أحمد آرام، مع تعليقات في المدح والتأييد شعراً ونثراً، يمنّ بها عليَّ القراء، وهي على وشك الترجمة إلى الأوردية ولولا الرسالة ما كان هذا كله[1].

الحرب

... تلك هي الحرب: آفة الحياة وعار الإنسانية!

وتلك هي الحرب: تتفجّر الأذهان بالعلوم والمعارف وتنفرج الأيدي عن الصنائع والمصانع، واللطائف والزخارف، وينفق الوالدان النفس والنفيس لتنشئة الأولاد وتهذيبهم، فإذا استكمل البنون الفتوّة والقوة، وأزهرت الفنون وتقدمت، وارتفعت المصانع وسمت، وأخذت الحياة زخرفها وازّيّنَت، جاءت الحرب فأودت بذلك كله فجعلته حصيداً كأن لم يغنَ بالأمس!..

فيا ويل الحرب... ويلٌ لها ما لم تكن دفاعاً عن شرف أو حياة أو دين[2]!..

---

(1) ـ من حديث النفس / ص ٢٠١.

(2) ـ قصص من التاريخ / ص ٨٧.

أغنية

كنت راكباً في الباص من أيام، فخطر على بال السائق الطرب ففتح الراد ـ ووضع الراد في الحافلات عادة شنيعة لا أدري متى تُبطل ـ فإذا رجل، يخرج صوتاً عجيباً، لا يشبه أصوات بني آدم، صوت كأنه صوت مختنق يطلب النجدة ثم يمنعه الماء في فمه أن يفصح أو يبين، أو كأنه صوت امرأة أخذها الطلق، أو كأنه صوت دجاجة علقت بها البيضة فلا تخرج ولا ترجع، وسألت جاري مدهوشاً: ما هذا؟

قال: هذا فلان (واحد من المغنين المشهورين) يغني ويقول: آه.

فلم أصدق حتى جاء بأربعة شهود من ركاب الباص فشهدوا أن هذا الصوت الغريب هو غناء مغنٍّ، يقول: آه.

ونظرت فإذا هذه الـ (آه) قد خرج ربعها فكان على لسانه، وربعها علق في حلقه، ونصفها أصابه الإمساك المزمن فبقي في جوفه فلا يخرج إلاّ بشربة زيت خروع.

فقلت: ولماذا لا يغني كما يغني الناس؟

قالوا: هذا هو الفن الجديد.

قلت: لعنة الله على هذا الفن الجديد[1].

شهيد العيد

نشرت سنة ١٩٤٦

كلفتني محطة الشرق الأدنى أن أكتب قصة لتذاع عني أول يوم من عيد الأضحى، وهذا هو العيد قد حلَّ حلَّت عليكم فيه البركات والخيرات، ولكن القصة لم تكتب ... إن لها قصة يا سادة فاسمعوا قصتها..

(١) ـ مع الناس / ص ١٥٤.

• أنا رجلٌ من طبعه التأجيل والتسويف، أؤخر الأمر ما دام في الأجل فسحة، أُرجئه إلى آخر لحظة منه، ثم أقوم كالمجنون أنط[1] قافزاً مثل الأرنب الذي زعم (أخونا ...) لافونتين أنه نام حتى سبقته السلحفاة، وإن لم أكن رأيت في عمري سلحفاة تسبق أرنباً...

فلما ورد عليّ كتاب المحطة نظرت فإذا بيني وبين موعد الإذاعة أمد طويل فاطمأننت ونمت، حتى إذا كانت ليلة العيد، ولم يبق أمامي إلا ساعات معدودة، أكتب فيها القصة وألحق بها البريد الجوي، أخذت قلمي وصحيفتي لأكتب فسدَّت عليّ أبواب القول ومنافذه وكواه ... وعدت مرتجّاً عليّ محبوساً لساني كأني ما مارست الكتابة قط، وكذلك نفس الأديب يا سادة تتفتح تفتُّح الينبوع الدفاق، ثم تشحُّ شحَّ الصخرة الصماء ما تبض بقطرة ماء، ولكن الناس لا يصدقون ذلك: إنهم يحسبون الكاتب يخرج المقال من نفسه كما يخرج التاجر البضاعة من دكانه، ولا يدرون أن هذا الكلام يجيء أحياناً حتى لا يقدر الأديب على ردِّه، ويعزب حيناً حتى لا يلقاه، وأنه يعلو ويصفو وينزل ويتعكر، وما عجزت الليلة عيّاً ولا فهاهة، فأنا أكتب في الصحف من عشرين سنة، ولكن الكتابة بالأجر بيع وشراء، ولكل مبيع ثمن، وأنا أحب أن أنتصف وأنصف الناس من نفسي، لذلك كلما رأيتني سقطت على موضوع وزنته فوجدته لا يساوي الثمن الذي تدفعه لي المحطة فتركته وفتشت عن أغلى، وكلما خطرت لي فكرة طمحت إلى أعلى، حتى كاد يمضي الوقت ولم أصنع شيئاً، ونزل بي ما نزل بالأستاذ توفيق الحكيم لما كلفوه أن يضع حواراً للفيلم وجعلوا له جعلاً ضخماً، فحصر فيه فكره، وحشد له قواه، وفر لأجله من داره. ثم انتهى به الأمر أن ألّف كتاب (الحمار) ولم يضع الحوار.

عند ذلك أيست ولبست ثيابي، وهربت إلى الأسواق.

---

(١) نطَّ في الأرض : ذهب، وهي من العامي الفصيح.

جلت في الأسواق، وأسواق دمشق ليلة العيد كأنها المحشر، قد أوقدت فيها المصابيح، وفتحت المخازن، وانتشر الباعة، وتدفق عليها أهل البلد والفلاحون، بالأزياء المختلفة واللغات المتباينات، وكل بائع ينادي برفيع صوته، وكل مشتر يصيح وكل مجتاز يتكلم، والبضائع معروضات من كل مأكول وملبوس ومفروش ومنظور ومشموم، كل يريد أن يعد الليلة عدته للعيد فيشتري فيها طعامه ولباسه...

وكنت أسير في هذا الزحام شارد الذهن، نازح الفكر، أعمل عقلي في هذه القصة ... التي وعدت بها المحطة، فأعلنت عنها وبشرت بها، ثم لم أستطع أن أكتبها، حتى وصلت إلى (باب المصلى [1]) فإذا أنا بحشد عظيم من الناس قد احتشد حيال دكان، فدفعني الفضول إلى معرفة الخبر، فأقبلت أدفع الناس بكتفي، وأشق طريقي بيديَّ كلتيهما وأطأ أعقاب الناس وأقدامهم، وأُصغي إلى هذا الفيض العجيب من ... النثر الفني الذي جادت به قرائحهم، فتدفق عليَّ من ألسنتهم، حتى بلغت المشهد ونظرت...

❀ ❀ ❀

نظرت، فرأيت اثنين يختصمان ويعتركان، أما أحدهما فكان مسكيناً قميئاً أعزل عاجزاً، وأما الآخر فكان ضخماً طُوالاً كالح الوجه، مفتول العضل، وسخ الثوب، قد حمل سكيناً في يده طويلة النصل، حديدة الشفرة، وهجم بها على صاحبه والناس ينظرون ولا ينكرون، وصاحبه المسكين يصرخ ويتلفت، تلفت المذعور، ويطلب الغوث ولا يغيثه أحد، ويبتغي المهرب فيسد عليه طريق الهرب...

وإني لأفكر ماذا أصنع ... وإذا بالخبيث العاتي يذبحه والله أمامنا ذبحاً ويتركه يتخبط بدمه، ويوليه ظهره ويمضي إلى دكانه متمهلاً، فيعالج

---

(١) حي في أول (ميدان) الحصى في دمشق، كان فيه مصلى العيد، لما كان الناس يعرفون السُّنة فيصلون فيه لا في المسجد.

فيها شأنه على عادته، كأنه لم يرتكب جرماً ولم يأت الأمر النكر جهاراً!

وكدت أهجم عليه، وأسلمه إلى الشُّرط. ثم ذكرت أن الشجاعة في مثل هذا الموطن تهور وحماقة، وأن المجرم بيده السكين، لا يمنعه شيء أن يجأ بها من يريده بشر، وطمعت أن يتحرك أحد الواقفين فيقدم عليه فأتبعه وأشد أزره، فلا والله ما تحرك أحد منهم، ولا جَرُؤ على ذلك؛ بل لقد تكلم واحد منهم، فلما رفع القاتل رأسه ونظر إليه رأيته يجزع منه ويفزع، ويقول له بصوت مضطرب متلجلج: «الله يسلم يديك»!

وحرت ماذا أعمل: أأبلغ الشرطة أو أدعهم وأمضي إلى داري لا عليَّ ولا لي؟ ثم رأيت أن خير ما أفعل أن أكتب وصف ما رأيت، وأبعث به ليذاع ويعرفه الناس.

❀ ❀ ❀

وهأنذا أتهم هذا الرجل بالقتل، وأدعو الحكومة إلى القبض عليه حتى يعاقب ويكون عبرة لمن يعتبر. ولا يحسبن أحد أنه فرَّ، أو أن القصة متخيلة أو مكذوبة، أو أنها من أساطير الأولين، أو من أخبار العصور الخوالي، فالقاتل موجود في دكانه، يغدو إليها ويروح إلى بيته، والقصة صحيحة رأيتها بعيني رأسي وأنا سالم العقل غير مجنون ولا معتوه، متيقظ غير نائم ولا حالم، صاح غير مخدر ولا سكران، ثم إني رأيتها الليلة البارحة!

❀ ❀ ❀

هذه هي الحادثة الفظيعة التي كتب الله أن تكون هي موضوع قصتي التي فكرت فيها وأطلت التفكير فكيف رآها الناس فلم يحفلوا بها ولم يأبهوا لها؟ أفسَدت الأخلاق، وضاعت المروءات حتى لا ننكر الأمر النُّكر، أم خارت العزائم، وانخلعت القلوب حتى لا نجرؤ على المجرم الظالم؟ وهل نامت الحكومة في الشام نومة أهل الكهف حتى ما تدري بالدم يسيل في شارع من أكبر شوارع دمشق؟

لقد سكت الجميع، حتى أن أنسباء القتيل قد ناموا عن دمه، وقعدوا عن الثأر له، ولم يتقدم أحد منهم شاكياً ولا مدعياً لأن القاتل كما قالوا، عازم على ذبحهم كلهم إن قدر عليهم، وماضيه حافل بمثل هذه الجرائم.

فما سر هذا السكوت؟

لقد علمت السرَّ بعدُ يا سادة...

ذلك أن المسكين الشهيد كان خروفاً من خرفان الضحية، وأن القاتل كان جزّار الحارة، وأن الناس شاركوه في جرمه، فأكلوا لحم الذبيح مشوياً ومقلياً ومطهياً وأكلت معهم، ونسيت من طيب اللحم هذا المشهد.

هذه هي سنة الحياة، يموت المسكين لنستمتع نحن بأكلة طيبة، فكلوا منه أنتم أيضاً هنيئاً واشربوا مريئاً، واشتغلوا بالأكل عن مطالبتي بالقصة.

وكل عام وأنتم بخير![١].

(١) صور وخواطر / ص ٦٧ ـ ٧٠.

الفَصل السَّادِس

تجارب ونظرات
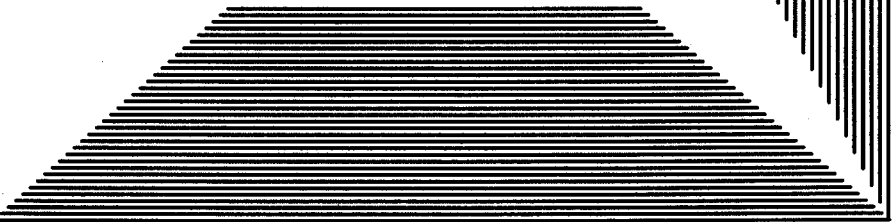
في رمضان

. . . يغدو الناس كأنهم إخوة في أسرة واحدة، أو رفاق في مدرسة داخلية، يفطرون جميعاً في لحظة واحدة، ويُمسكون جميعاً في لحظة واحدة، فتراهم المساء مسرعين إلى بيوتهم، أو قائمين على مشارف دورهم، أو على أبواب منازلهم، ينظرون في ساعاتهم ويتطلعون إلى المآذن بعيونهم، وإلى المدفع بآذانهم، فإذا سمعوا ضربة المدفع، أو أبصروا ضوء المنارة، أو رنَّ في أسماعهم صوت المؤذّن، عمّت الفرحة الكبار والصغار، فانطلقت وجوه الكبار، وصاح الصغار بنغمة موزونة (أذّنْ، أذّنْ، أذّنْ) وطاروا إلى دورهم كعصافير الروض، يرضى كلٌّ بما قسم له، ويحمد الله عليه، وقد راضهم الجوع على أن يتقبلوا كل طعام، فكل طعام هو في أذواقهم تلك الساعة أطيب طعام..

فإذا فرغوا من طعامهم أمّوا المساجد فقاموا بين يدي ربهم وخالقهم صفاً واحداً، متراصّة أقدامهم، ملتحمة أكتافهم، وجباههم جميعاً على الأرض، الغني والفقير، والكبير والصغير، والصعلوك والأمير، يذلّون لله، يضعون له وجوههم عند مواطئ الأقدام، فيعطيهم الله بهذه الذلة له عزّة على الناس كلهم، فتنخفض لهم رؤوس الملوك والجبارين حتى تقع على أقدامهم، ومن ذلّ لله أعزّه الله، ومن كان لله عبداً جعله الله في الدنيا سيداً، ومن كان مع الله باتباع شرعه والوقوف عند أمره ونهيه، وإتيان فرائضه واجتناب محرّماته كان الله معه بالنصر والتوفيق والغفران، وبذلك ساد أجدادنا الناس وفتحوا الأرض من مشرقها إلى مغربها، وحازوا المجد

من أطرافه، وأقاموا دولة ما عرف التاريخ أنبل منها ولا أفضل، ولا أكرم ولا أعدل.

رمضان الذي يجمع للصائم صحة الجسم وصحة الروح، وعظمة النفس، ورضا الله[1].

من دروس رمضان

رمضان الذي نجتلي فيه أجمل صفحات الوجود، وما كنا لنجتليها قبل رمضان، لأن الحياة سفر في الزمان، يحملنا قطار الأعمار فإذا قطع بنا أجمل مزاحل الطريق، حيث يولد النور، وتصفو الدنيا، ويسكن الكون، مرحلة السحر، قطعها بنا ونحن نيام لا نفتح عليها عيوننا ولا نبصر فتونها.

رمضان الذي تتحقق فيه معاني الإنسانية وتكون المساواة بين الناس، فلا يجوع واحد ويتخم الآخر، بل يشترك الناس كلهم في الجوع وفي الشبع، غنيّهم وفقيرهم، فيحس الغني بألم الجوع، ليذكره من بعد إذا جاءه من يقول له: أنا جوعان، ويعرف الفقير قيمة نعمة الله عليه، حين يعلم أن الغني يشتهي على غناه رغيفاً من الخبز أو كأساً من الماء، ويعلم الجميع حين يجلسون إلى مائدة الإفطار أن الجوع يسوّي بين المطاعم كلها: القوزي والنمورة، وصحن الفول المدمّس وقطعة الجرادق، وليس الذي يطيب الطعام غلاء ثمنه، ولا جودة صنعه، ولا حسن مائدته، ولكن الجوع الذي يشهّيه، والصحة التي تهضمه، وأرخص طعام مع الصحة والجوع ألذّ من موائد الملوك لمن كان مريضاً أو شبعان[2].

مثل هذه الدنيا والآخرة

وهل يُفقد من يموت؟ لقد قلت من قديم مقالة قرأها الناس مني

---

(١) مع الناس / ص٢١.

(٢) مع الناس / ص ٢٠.

وسمعوها: إن الجنين في بطن أمه لو أمكن أن يسمعك، وأن يفهم عنك ويكلمك، وسألته: ما الدنيا؟ لقال لك: إن الدنيا هذه الأحشاء التي أعيش فيها، وهذه الظلمة التي أتقلب خلالها. فإن قلت له: ها هنا دنيا البيت الواحد منها أوسع من دنياك هذه كلها بمائة ألف ضعف، وأن فيها شمساً وقمراً، وأن فيها براً وبحراً، وشتاءً وصيفاً، هل كان يستطيع أن يفهم عنك أو يتصور ما تقول؟.

ولو كانا توأمين في بطن واحد، فوُلد أحدهما قبل صاحبه، وأمكن أن تسأله عنه فبماذا يجيب سؤالك؟ ألاَ يقول لك إنه كان فبان وخلا منه المكان، إنه مات ودُفن تحت في الأعماق؟.

فكيف رأى الولادة موتاً، وكيف لا نرى نحن الحقيقة فنعلم أن الموت ولادة جديدة؟[1].

• هذه الحياة

إن ليلة الصيف تمتد في تقدير عقارب الساعة عشر ساعات، سواء في ذلك ليل العاشق الناعم بالوصال، وليل السجين المكبّل بالأغلال، مع أن ليلة الوصال في الحقيقة لحظة، ولحظة العذاب دهر طويل، وهذه هي نظرية النسبية إن كنتم سمعتم بها.

لقد تعلّمها (أينشتين) من ابن زيدون حين قال:

إن يطل بعدك ليلي فلَكَم ... بتُّ أشكو قِصر الّليل معك

لقد رأيت هذه الحياة لجّة، (يرتفع) فيها التبن والبعر، و (ينزل) فيها الذهب والألماس[2].

لقد اضطربت فيها الموازين، واختلّت المقاييس، ونفق المنافقون،

---

(١) ذكريات الشيخ : علي الطنطاوي (ج٧) / ص٢٩٢.

(٢) هي الألماس لا الماس كما يكتبها أكثر الكُتّاب.

وكسد الصادقون الصالحون[1].

• قيمة الحياة

لماذا لا تعرفون النعم إلا عند فقدها؟

لماذا يبكي الشيخ على شبابه؟

لماذا لا نرى السعادة إلا إذا ابتعدت عنا، ولا نبصرها إلا غارقة في ظلام الماضي، أو متّشحة بضباب المستقبل؟.

كلٌّ يبكي ماضيه، ويحنّ إليه، فلماذا لا نفكر في الحاضر قبل أن يصير ماضياً؟.

❀ ❀ ❀

• يا سادة: لماذا تطلبون الذهب وأنتم تملكون ذهباً كثيرا؟ أليس البصر مِن ذهب، والصحة من ذهب، والوقت من ذهب؟ فلماذا لا نستفيد من أوقاتنا؟ لماذا لا نعرف قيمة الحياة؟[2].

الحياة

• عرضتُ مرة في بعض مقالاتي إلى تحليل الحس بالحياة، فكان من رأيي أن الحياة أصعب شيء على الإنسان، وأنه لا يستطيع أن يحملها، فهو يقطعها أبداً بحديث أو مطالعة أو عمل أو ما هو من ذلك بسبيل، فإذا خلت حياته من شيء يشغلها عادت هماً وحملاً ثقيلا[3].

ولكن يبقى الأثر..

تجوز الصحراء فلا ترى إلاّ أرضاً جرداء، لا ظل ولا ماء، ولا نبتة

---

(١) دمشق / ص ١٣٦ ـ ١٣٧.

(٢) صور وخواطر / ص ١٦ ـ ١٧.

(٣) من نفحات الحرم / ص ٩٤ ـ ٩٥.

خضراء، فإذا نزل المطر اهتزّت وربت وكسيت ثوباً أخضر من العشب والزهر، وصارت مرعى للسوائم، ومتعة للنظر، فمن أين ترونه قد جاء هذا النبات؟.

من بذور صغار قد لا تأخذها من دقّتها الأبصار، قد ركّب الله لبعضها ما يشبه الأجنحة القصار تحملها الرياح فتلقيها بين حبات الرمال، فلا ترى إلا تلالاً من الرمل تتلظّى تحت وهج الشمس.

فإذا أنزل الله الأمطار، وجمع الله لها (الظروف) التي جعلها سبب الإنبات كان منها هذا النبات.. وكان منه الزهر البارع، والثمر اليانع، أو كان منه الشوك الجارح، والسمّ الناقع.

وكذلك كل ما تسمعه لا سيما إن سمعته في الصغر، إنه بذرة خير أو بذرة شر، إذا جاءها (الظرف المناسب) وضعتك على طريق الجنة، أو على سبيل النار.

فانتبهوا - يا أيها القرّاء - لما تنظرون فيه من كتب ومجلاّت، وما تسمعونه من إذاعات ومحاضرات، وما تشاهدونه من مسلسلات ومسرحيات، ولا تظنوا أن أثر ذلك يذهب مع إكمال الكتاب، أو انتهاء المحاضرة أو إسدال الستار على المسرحية، بل إن بعضه يبقى ما بقِيت الحياة[1].

لكل إنسان أثر

• الناس الذين يدخلون حياتنا منهم من يمر كما يمر النهر على الصخر، لا يترك أثراً ولا ينبت زهراً ولا ثمراً، ومنهم من يمر مرور الماء على الأرض البكر، تكون قبله قنوات قاحلات وتصير بعده جنات ممرعات، ومن يمر مرور السيل الدفّاع يدمر العمران، ويقتل الحيوان ويؤذي الإنسان.

وكل من تلقاه أو تحدثه يأخذ منك ويعطيك، يترك في نفسك أثراً منه، حسناً كان أم سيئاً، مؤقتاً أم باقياً.

---

(١) ذكريات الشيخ : علي الطنطاوي (جـ١) / ص ٧٤.

• ما قعدت بين يدي معلم في المدرسة، ولا جلست أستمع إلى محدث في نادٍ أو واعظ في مسجد، بل ما صحبت صاحباً ولا اتخذتُ رفيقاً إلا كان له في نفسي أثر، يكون عميقاً تارة فيبقى فيها طويلاً، أو يكون ضحلاً فيمحى منها سريعاً[1].

• اعرف نفسك

إن النفس ـ يا أخي ـ كالنهر الجاري، لا تثبت قطرة منه في مكانها، ولا تبقى لحظة على حالها، تذهب ويجيء غيرها، تدفعها التي هي وراءها، وتدفع هي التي أمامها، في كل لحظة يموت واخد ويولد واحد، وأنت الكل، أنت الذي مات وأنت الذي وُلِد، فابتغِ لنفسك الكمال أبداً، واصعد بها إلى الأعالي؛ واستولدها دائماً مولوداً أصلح وأحسن، ولا تقل لشيء (لا أستطيعه) فإنك لا تزال كالغصن الطري، لأن النفس لا تيبس أبداً، ولا تجمد على حال، ولو تباعدت النقلة وتباينت الأحوال... إنك تتعوّد السهر حتى ما تتصور إمكان تعجيل المنام، فما هي إلا أن تبكر المنام ليالي حتى تتعوده فتعجب كيف كنت تستطيع السهر[2].

• طبقات الأصدقاء

الخلاصة أن الأصحاب خمسة: فصاحب كالهواء لا يُستغنى عنه، وصديق كالغذاء لا عيش إلا به، ولكن ربما ساء طعمه، أو صعب هضمه، وصاحب كالدواء مرٌّ كريه، ولكن لا بد منه أحياناً، وصاحب كالضهباء تلذ شاربها، ولكنها تودي بصحته وشرفه، وصاحب كالبلاء.

أما الذي هو كالهواء فهو الذي يفيدك في دينك، وينفعك في دنياك، وتلذك عشرته، وتمتعك صحبته، وأما الذي هو كالغذاء فهو الذي يفيدك في

---

(١) رجال من التاريخ / ص ٤١٢.

(٢) صور وخواطر / ص ٥.

الدنيا والدين، لكنه يزعجك أحياناً بغلظته وثقل دمه وجفاء طبعه، وأما الذي هو كالدواء فهو الذي تضطرك الحاجة إليه، وينالك النفع منه، ولا يرضيك دينه ولا تسلّيك عشرته، وأما الذي هو كالصهباء، فهو الذي يبلّغك لذّتك ويُنيلك رغبتك ولكن يفسد خلقك، ويهلك آخرتك، وأما الذي هو كالبلاء فهو الذي لا ينفعك في دنيا ولا دين، ولا يمتّعك بعشرة ولا حديث، ولكن لا بد لك من صحبته.

وعليك أن تجعل الدين مقياساً، ورضا الله ميزاناً، فمن كان يفيدك في دينك فاستمسك به، إلا أن يكون ممن لا تقدر على عشرته، ومن كان يضرك فاطرحه واهجره، إلا أن تكون مضطراً إلى صحبته، فتكون هذه الصحبة ضرورة، والضرورات تبيح المحظورات، بشرط ألّا تجاوز في هذه الصحبة حدَّ الضرورة.

وأما الذي لا يضرك في دينك، ولا ينفعك في دنياك، ولكنه ظريف ممتع، اقتصرت منه على الاستمتاع بظرفه على ألاّ تمنعك هذه الصحبة من الواجب، ولا تمشي بك إلى عبث أو إثم[1].

الممكن

لماذا لا نجعل أهواءنا وفق ما في الوجود إذا لم نستطع أن نجعل كل ما في الوجود وفق أهوائنا؟[2]

بعض الرجال

...إن من الرجال ما هو كالنسخة المخطوطة، ربما كانت ناقصة أو مخرومة، أو مسَّ الزيت أطرافها فأفسدها، ولكنها أثمن وأغلى لأنها واحدة لا ثانية لها[3].

---

(١) صور وخواطر / ص ١٧١ ـ ١٧٢.
(٢) صور وخواطر / ص ١٤.
(٣) رجال من التاريخ / ص ٤٢١.

العدل والظلم

ألا يمكن أن يكون الفعل الذي أراه ظلماً هو عين العدل؟ الولد المريض يرى الإبرة التي يُدخلها الطبيب تحت جلده ظلماً، وهي في رأي أبيه عدل كل العدل، لأن الولد نظر إلى ألمها، والأب أبصر أثرها في شفاء الولد.

إن القاضي لا يستطيع أن يحكم في دعوى حتى يطّلع على مراحلها كلها، ووقائعها جميعاً، ونحن إنما نطّلع غالباً على طرف من الواقع، ونصدر أحكاماً خاطئة، بعد دراسات ناقصة، لو تُهتَ أنت ورفيقك في الصحراء فمرّت سيارة فخمة، دعاكما صاحبها، وأركبكما فيها، فأخرج صديقك سكينة فمزّق جلد المقعد، ألا ترى عمله ظلماً؟ إنه ظلم بلا شك، ولكن إذا علمت أن أمامك عصابة من قطاع الطرق كلما رأوا سيارة سليمة أخذوها، وإن كانت ممزقة المقعد تركوها، ألا يتحوّل هذا الفعل في نظرك من ظلم إلى عدل؟

بل إن صاحب السيارة لو عرف هذه الحقيقة، لمزّق جلد مقعدها بنفسه لأنه يفضل أن تبقى السيارة له، ومقعدها ممزّق، عن أن تذهب كلها وهي سليمة، أليس هذا صحيحاً؟ هذه هي قصة الخضر وموسى لما ركبا في السفينة وخرقها، ضربها الله مثلاً نفهم منه ألاّ نسرع إلى إصدار الأحكام قبل الإحاطة بالواقع[1].

مفارقات

... كم من سجين يتقلّب في السجن على مثل الإبر يذكر أهله الذين لا عائل لهم سواه، وقد حُبِس في تهمة، وقاضيهِ في النادي يضارب على المائدة الخضراء بالمال الذي قبضه رشوة من خصمه ليحكم عليه.

وتائبة تجول في الطرقات الخالية مع الكلاب ولا تجد من يمنّ عليها

---

(١) تعريف عام بدين الإسلام / ص ١٣١ ـ ١٣٢.

بكسرة خبز إلا إن دفعت ثمنها من جسدها، لأنها زانية ملعونة لا تُقبل لها توبة، والذي أفسدها وأغواها يتصدر المجالس، لا يذكر الناس خطيئته التي استزلّه الشيطان إليها في شبابه لأنه تاب منها، ومن تاب تاب الله عليه[1].

جودوا بالحب

إن كل غنيّ يستطيع أن يتصدق بالكثير، ولكن غنيّ القلب بالإنسانية، والنبل والحب، هو الذي يستطيع أن يتصدق مع المال بالعاطفة المنعشة... فلا تضنّوا على الفقراء بإنسانيّتكم، ولا تبخلوا عليهم بعطاء قلوبكم، وذكّروهم أنهم لا يزالون معدودين من البشر، وأنهم مثلكم لأبٍ واحد وأم واحدة، لآدم وحواء، وأنهم لم ينحدروا إلى دركة الدواب والبهائم.

❀ ❀ ❀

كم تلقون كل يوم ممن هم دونكم فلا تتفضلون بالالتفات إليهم، ولا تفكرون فيهم، ولا تشعرون بوجودهم، ثم تتألّمون إذا أعرض عنكم من هو فوقكم، وتجاهل مكانكم، وترون ذلك جرحاً لشعوركم وكسراً لقلوبكم، لماذا تطلبون ممن فوقكم ما لا تعطونه من هم دونكم؟ أليس لهؤلاء نفوس تحس، وقلوب تتألّم؟.

❀ ❀ ❀

إذا شئتم أن تذوقوا أجمل لذائذ الدنيا، وأحلى أفراح القلوب، فجودوا بالحب والعواطف كما تجودون بالمال[2].

الشفاعات

... هذا هو الأصل في تعيين الموظفين، يُختار الأصلح للعمل، الأقدر عليه وهو مقيم في بيته، ويُحتال عليه بالإقناع وبالتهديد حتى يقبل

---

(١) صور وخواطر / ص ٣٦ ـ ٣٧.

(٢) صور وخواطر / ص ٢٣.

مكرهاً؛ فانتهى الأمر عندنا إلى ما يعلمه الناس كلهم، وأصبحتَ تعرض المائة من الموظفين فلا تكاد تجد اثنين من أهل الكفاءات، وإنما تجد من أدخلته الوظيفة شفاعة شفيع، أو جاه وسيط، وخير شفيع اليوم (شفيع النوّاب)[1]، وخير وسيط (الأصفر الرنّان) أو غير ذلك مما يُعلم ولا يُقال، وما في قلب كل قارئ منه غصّة، وما يحفظ منه كل قارئ حوادث وأخبار[2].

المستقبل

إني أعيش في العدم، أعيش في الماضي بالذكرى، وفي المستقبل بالأمل، مع أن الحاضر وحده هو الموجود، لقد مضى الأمس إلى حيث لا رجعة ولن يأتي المستقبل أبداً.

أين هو المستقبل؟ ومن ذا الذي يستطيع أن يصل إليه؟ لقد جلست في مثل هذه الليلة من العام الذي يموت الآن، في شرفة منزلي بالأعظمية (بغداد) أحلم بالمستقبل، بهذه السنة التي كانت مستقبلي، أسعى إليها وأؤمّل أن أدركها، فلما أدركتها صارت (حاضراً) وطفقت أعدو إلى مستقبل آخر، إنني كالثور يسعى ليدرك حزمة الحشيش التي يراها على شبر واحد منه فيهلكه السعي، ولا ينالها أبداً، لأنها معلّقة بقرنيه تسعى أمامه![3].

المستقبل الحق

ينقضي العام ـ فتظن أنك عشته، وأنت في الحقيقة قد مِتّه، لا تعجبوا من هذا المقال ودعوني أوضح الفكرة بالمثال:

أنت كالموظف الذي مُنح إجازته السنوية، شهراً كاملاً إذا قضى فيها عشرة أيام يكون قد خسر منها عشرة أيام فصار الشهر عشرين، فإذا مرّ

---

(١) قال الفرزدق : ليس الشفيع الذي يأتيكَ متزراً...

(٢) فكر ومباحث / ص ٦٩.

(٣) صور وخواطر / ص١٢٨ ـ ١٢٩.

عشرون صار الشهر عشراً، فإذا تم الشهر انقضت الإجازة فكأنها لم تكن.

❀ ❀ ❀

فالمستقبل في الدنيا شيء لا وجود له، إنه يوم لن يأتي أبداً لأنه إن جاء صار (حاضراً) وطفِقَ صاحبه يفتّش عن (مستقبل) آخر يركض وراءه.

إنه (كما قلت مرة) مثل حزمة الحشيش المعلّقة بخشبة مربوطة بسرج الفرس تلوح أمام عينيه فهو يعدو ليصل إليها، وهي تعدو معه فلا يدركها أبداً.

إن المستقبل الحق في الآخرة، فأين منا من يعمل له؟ بل أين من يفكر فيه؟!

❀ ❀ ❀

وقد يكون هذا الذي أقوله (فلسفة) ولكنها فلسفة واقعية، إنها حقائق لا يفكر فيها أحد منا.

نحن كالمسافر في الباخرة أو في الطيارة، همّه الغرفة الجميلة، أو المقعد المريح، يركب في الدرجة الأولى ويأكل أطيب الطعام، ويتصفّح الجرائد والمجلات، ينقل بصره فيما حوله أو تحته من المشاهد، ولكن هذا كله لأيام السفر، وأيام السفر معدودة، أفما كان خيراً له لو فكر فيما يريحه في إقامته الدائمة في البلد الذي يمضي إليه؟.

أما كان أنفع له لو تحمّل بعض المتاعب في ليالي السفر القليلة ووفّر ماله ليشتري به الراحة في سنوات الإقامة الطويلة؟.

أم قد شغلته متعة السفر عن التفكير في سبب السفر، وجمال الطريق عن غاية الطريق؟.

الحياة سفر، فكم من الناس يسأل نفسه لِمَ السفر؟ وإلى أين الرحيل؟ كم منا من يسأل ما الحياة؟ ولماذا خُلِقنا؟ وإلامَ المصير؟[1].

---

(١) صور وخواطر / ص ٦ ـ ٧.

وما المجد الأدبي!

هو أن ترد عليك كتب المعجبين، وأن تقام لك حفلات التكريم، وأن تكتب عنك الصحف؟ لقد رأيت هذا كله من أكثر من عشرين سنة، فصدّقوني حين أقول لكم أنه سراب.

إن الحقيقة الوحيدة من ثمار الأدب، هي أجور المقالات وما نرجو من ثواب الله، ولقد أخذت على مقالاتي أكبر أجر أخذه كاتب عربي قبضت غير مرة ثلاثمئة ليرة على المقالة الواحدة، وقبضت ألف ليرة على المحاضرة الواحدة، والمال حقيقة ليس سراباً ولكن ماذا أصنع بهذا المال؟

إن راتبي يكفيني، وقد كنت أتمنى أن يكون لي بيت، فصار لي بحمد الله بيت، وأنا لا أدّخر مالاً ولا أريد أن أكون من كبار المثرين فلماذا الحرص على المال؟

وهل يعدل المال الذي آخذه الراحة التي أفقدها والنوم الذي أشتهيه فلا أجده؟

أما ثواب الله، فأرجو أن يكون لي من الإخلاص ما أستحقه به أولاً، وأرجو ثانياً أن لا يحرمني الله الثواب، إن استرحت حيناً لأجمّ النفس وأجدد العمل.

لا، إن ثواب الله هو الحقيقة الواحدة الباقية وما عداه متاع الغرور، خدع نخدع بها أنفسنا وأوهام، قبض ريح، اقبض على الريح تجد يدك فارغة لا شيء فيها، وكذلك الدنيا، ما الذي نحمله معنا إن ذهبنا إلاّ العمل الصالح؟ كله سراب إلاّ ما تقدمه بين يديك لآخرتك[١].

---

(١) من حديث النفس / ص ٢٢١ ـ ٢٢٢.

وما المجد الأدبي؟ هو أن يذكرك الناس في كل مكان، وأن يتسابقوا إلى قراءة ما تكتب، وسماع ما تذيع، وتتوارد عليك كتب الإعجاب، وتقام لك حفلات التكريم؟ لقد رأيت ذلك كله، فهل تحبون أن أقول لكم ماذا رأيت فيه؟ رأيت سراباً، سراب خادع، قبض ريح!

وما أقول هذا مقالة أديب يبتغي الإغراب، ويستثير الإعجاب، لا والله العظيم ـ أحلف لكم لتصدقوا ـ ما أقول إلاّ ما أشعر به، وأنا من ثلاثين سنة أعلو هذه المنابر، وأحتل صدور المجلات والصحف، وأنا أكلّم الناس في الإذاعة كل أسبوع مرة، من سبع عشرة سنة إلى اليوم، ولطالما خطَبت في الشام ومصر والعراق والحجاز والهند وأندونيسيا خطباً زلزلت القلوب، وكتبت مقالات كانت أحاديث الناس، ولطالما مرت أيام كان اسمي فيها على كل لسان في بلدي، وفي كل بلد عشت فيه أو وصلت إليه مقالاتي، وسمعت تصفيق الإعجاب، وتلقيت خطب الثناء في حفلات التكريم، وقرأت في الكلام عني مقالات ورسائل، ودرَس أدبي ناقدون كبار، ودُرّس ما قالوا في المدارس، وتُرجم كثير مما كتبت إلى أوسع لغتين انتشاراً في الدنيا: الإنجليزية والأوردية، وإلى الفارسية والفرنسية... فما الذي بقي في يدي من ذلك كله؟ لا شيء، وإن لم يكتب لي الله على بعض هذا بعض الثواب أكن قد خرجت صفر اليدين.

إني من سنين معتزل متفرّد، تمر عليَّ أسابيع وأسابيع لا أزور فيها ولا أُزار، ولا أكاد أحدث أحداً إلا حديث العمل في المحكمة أو حديث الأسرة في البيت، فماذا ينفعني وأنا في عزلتي إن كان في مراكش والهند وما بينهما من يتحدث عني ويمدحني، وماذا يضرني إن كان فيها من يذمّني، أو لم يكن فيها كلها من سمع باسمي؟.

ولقد قرأت في المدح لي ما رفعني إلى مرتبة الخالدين، ومن القدح فيَّ ما هبط بي إلى دركة الشياطين، وكُرّمت تكريماً لا أستحقه، وأُهملت حتى لقد دُعي إلى المؤتمرات الأدبية وإلى المجالس الأدبية الرسمية

المبتدئون وما دُعيت منها إلى شيء، فألِفت الحالين، وتعوّدتُ الأمرَين، وصرت لا يزدهيني ثناء ولا يهز السب شعرة واحدة في بدني.

أسقطتُ المجد الأدبي من الحساب، لما رأيت أنه وهمٌ وسراب[1].

الشهرة

إني لأسأل مرة ثانية ما الشهرة؟

إن الشهرة وهم ليس له في سوق الحقيقة قيمة، وليس له في ميزان الواقع وزن حتى أن هذا الحرف (أي الشهرة) لا يصح لغة، ولا تكون الشهرة في الفصيح إلا بالعيب والعار والفضيحة، ولكن الألسنة أدارتها على هذا المعنى، فكتبنا للناس ما يفهمون.

إن الشهرة سراب زائف، إنها مثل (المستقبل) الذي يركض وراءه الناس كلهم فلا يصلون إليه أبداً، لأنهم إن وصلوا إليه صار (حاضراً) وعادوا يفتّشون عن مستقبل آخر يعدون إليه، كحزمة الحشيش المربوطة برأس الفرس يسعى ليدركها وهي تسعى معه أبداً[2].

هذه هي الشهرة

إني لأعجب ممن يسعى للشهرة ويراها شيئاً جميلاً، ما الشهرة؟ هي أن تتفتّح عليك الأعين كلها، ويراقبك الناس جميعاً فتفقد بذلك حرّيتك[3].

وهم اللذّة

هل تعرفون السراب؟ إن الذي يسلك الصحراء يراه من بعيد كأنه عين من الماء الزلال تحدق صافية في عين الشمس، فإذا كدّ الركاب وحثّ الصحاب ليبلغه لم يلق إلاّ التراب!!

---

(١) من حديث النفس / ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥.

(٢) من حديث النفس / ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣.

(٣) ذكريات الشيخ : علي الطنطاوي (جـ٨) / ص ٢٠٥.

هذه هي ملذات الحياة، إنها لا تلذ إلا من بعيد.

يتمنى الفقير المال، يحسب أنه إذا أُعطي عشرة آلاف ليرة فقد حيزت له الدنيا، فإذا أُعطيها فصارت في يده لم يجد لها تلك اللذة التي كان يتصورها وطمع في مائة الألف، إنه يحس الفقر بها وهي في يده كما يحس الفقر إليها يوم كانت يده خلاء منها، ولو نال مائة الألف لطلب المليون، ولو كان لابن آدم وادٍ من ذهب لابتغى له ثانياً، ولا يملأ عين ابن آدم إلاّ التراب[1].

والشاعر العاشق يملأ الدنيا قصائد تسيل من الرقة وتفيض بالشعور، يعلن أنه لا يريد من الحبيبة إلاّ لذة النظر ومتعة الحديث، فإذا بلغهما لم يجدهما شيئاً وطلب ما وراءهما، ثم أراد الزواج فإذا تم له لم يجد فيه ما كان يتخيل من النعيم، ولذابت صور الخيال تحت شمس الواقع كما يذوب ثلج الشتاء تحت شمس الربيع، ولرأى المجنون في ليلى امرأة كالنساء، ما خلق الله النساء من الطين وخلقها (كما كان يخيّل إليه) من القشطة، ثم لَملَّها وزهد فيها وذهب يُجَنّ بغيرها.

ويرى الموظف الصغير الوزير أو الأمير، ينزل من سيارته فيقف له الجندي وينحني له الناس، فيظن أنه يجد في الرياسة أو الوزارة مثلما يتوهّم هو من لذتها ومتعتها، لحرمانه منها، ما يدري أن الوزير يتعوّد الوزارة حتى تصير في عينه كوظيفة الكاتب الصغير في عين صاحبها أوهام، ولكننا نتعلق دائماً بهذه الأوهام.

وفكرت فيما نلت في هذه الدنيا من لذائذ وما حملت من عناء، طالما صبرت النفس على إتيان الطاعة واجتناب المعصية، رأيت الحرام الجميل فكففت النفس عنه على رغبتها فيه، ورأيت الواجب الثقيل فحملت النفس عليه على نفورها منه، وطالما غلبتني النفس فارتكبت المحرمات وقعدتُ عن الواجبات، تألّمت واستمتعت، فما الذي بقي من هذه المتعة وهذا الألم؟

---

(١) حديث آخره : (ويتوب الله على من تاب).

لا شيء، لقد ذهبت المتعة وبقي عقابها وذهب الألم وبقي ثوابه[1].

لذة الوصال

... ما هي لذّة الوصال؟ إنها ليست في هذا التقارب الجسمي، كلاّ... إنما هي في اتصال القلوب، وإن ابن الرومي هو عندي أدق شعراء الدنيا إحساساً بالمرأة، وأعظمهم بالحب معرفة، وأحسنهم لجوع العاطفة تصويراً حين يقول:

أعانقها والنفس بعد مشوقة إليها وهل بعد العناق تداني
وألثم فاها كي تزول حرارتي[2] فيشتد ما ألقى من الهيمانِ
كأن فؤادي ليس يشفي غليله سوى أن يرى الروحين يلتقيانِ

وما يعانقها على الحقيقة فقط، ولكن على المجاز، فما يروي ظمأ نفسه إلى الحب ذلك (العناق) وأنه يتمنى أن لو قطّعها عضّاً، وأن لو أفناها فيه، حتى عادا شخصاً واحداً.. وذلك ما لا يكون!

لا... ما في إطلاق الشهوة من راحة ولا شبع... وإن نساء الأرض كلهنّ لا يُرضينها، وامرأة واحدة بالحلال ترضيها وتشبعها، وهب أن رجلاً وسعته أحواله وأمواله أن يمد يده حيث شاء... أفتسعه صحته؟ هل يحمل جسمه أثقال هواه؟ إنه لا بد أن تجيء ساعة يعجز فيها ويرتد مريضاً وانياً يشتهي ذلك (الشيء) ولا يقدر عليه، ويقعد بالحرمان، فلماذا لا يرتد عن الإثم، صحيح الدين والجسم والشرف؟ أليس ذلك خيراً له من أن يجمع على نفسه الحرمان والمرض وجهنم؟.

وإن من بديع صنع الله أنه لم يخلق امرأة تشبه في جمالها الأخرى، فالنساء مختلفات، ولكن طعم المتعة بهنّ واحد لا يختلف، وما فرق بين

---

(١) من حديث النفس / ص ٢٢٦ ـ ٢٢٨.
(٢) كذا أحفظها ـ وأجد بالذوق ـ أن جملة (كي تزول حرارتي) مبتذلة لم يقلها ابن الرومي، وإنما قال شيئاً آخر بدّله الرواة.

هذه الراقصة وبين امرأتك إلا أن الأولى تأتيك على جوعك بالرغيف قد لفته بمنديل الحرير، ووضعت المنديل في شملة، وألقت الشملة في صندوق من الفضة المذهّبة، وجعلت حول الصندوق الورق الشفاف، فأنت كلما رفعت حجاباً من هذه الحجب اشتد جوعك وشوقك إلى ما وراءها... فإذا بلغت الرغيف حسبته قد قُطف من قمح الجنّة ثم طحنته الملائكة، ثم عجنته بأيديهنّ الحور العين... وتلك تأتيك بالمائدة الحافلة مكشوفة ظاهرة... وأنت لا تأكل المنديل ولا الشملة ولا الصندوق، إنما تأكل الرغيف وأنت لا تريد هذه الثياب ولا هذه الأنوار... إنما تريد المرأة، ولعل امرأتك أبهى منها وأجمل![1]

السعادة

إن الله ـ جلت ودقت حكمته ـ لم يجعل السعادة في مال ولا نسب ولا متعة، ولكنه جعلها صلة خفية بين الأشياء وصاحبها، فلا تأخذوا الأمور على ظواهرها؛ فإن المريض الزّمِن لو حمل من الألم ما تظنه أنت حامله ما عاش، والغني لو نال من اللذة ما تحسب أنه نائله ما وسعته الدنيا، ولكن العادة تبطل اللذة والألم، وتهوّن السجن على السجين، والحرب على المحارب، وتجعل الخليفة الذي كان في قصره عشرة آلاف غادة من جميلات الأرض حُشرن إليه حشراً مثل الذي في بيته امرأة واحدة! إنما اللذة التي لا تفنى ولا تنقص لذة القلب، لذة التأمّل، لذّة المتعبّد في هدأة الليل، والمناجي ربه في الأسحار... ومن هنا قالت طائفة الصوفية: «لو ذاق الملوك ما نحن فيه لقاتلونا عليه بالسيوف».... إي والله وبالمدافع والرشاشات![2].

داء الشباب

... على الحب قام الوجود كله وائتلف وسار إلى غايته، والشهوة

---

(١) قصص من الحياة / ص١٦٨.

(٢) قصص من الحياة / ص ١٧٠.

نافعة لازمة لم تُخلق عبثاً، ولا أداة للشر، بل خُلقت حياة للجنس وعصمة من أن يمحى أو ينقرض، ولسنا نحقر الحب ولا نذم الشهوة، وإنما نذم الغلو فيهما وولوجهما من غير بابهما، وأخذهما على غير الوجه الذي خلقه الله لهما... نذم منطق الشهوة، وللشهوة منطقها الذي يسلب الديِّن دينه والحكيم لبّه، ويريه أن له الحق في كل النساء، وأنه لم تُخلق امرأة إلا للذّته (هو) ومتعته، ويصنع له إبليس أدلّة هذه الدعوى فيقبلها بعقله الذي انحدر من رأسه ويتلقاها بأعصابه الهائجة المجنونة، ثم يدله إبليس على سبل تحقيقها، فيسلكها لا يبالي الدين ولا العرف ولا المروءة ولا شيئاً مما تواضع على إجلاله الناس ويتم إبليس عمله، فيدخل في نفوس نفر من الأدباء، ثم ينطق بلسانهم، ويخط بأقلامهم، هذا الأدب الوقح البذيء، أدب أبي نواس من الأولين، وآباء نواس من العصريّين، الأدب الذي يستقر في أدمغة الشباب استقرار صناديق البارود في أصول البيوت، فلا يلبث أن يتفجر عند الشرارة الأولى، تخرج من عين امرأة، فينسف عقل صاحبه ودينه، وأخلاق الأمة وصيانتها، ولا نعدم مع ذلك من الناس من يعجب بهذا الأدب ويكبره ويسمي صاحبه بأسماء الجهابذة الأعلام من أرباب البيان وحملة الأقلام.

وهل في الأدب المكشوف إلا كشف سوأة من سوآت الفكر، وعورة من عورات الضمائر يحرص العقلاء على سترها كما يسترون عورات الجسم [١].

العِرض

نحن العرب قد نصبر على كل شيء ولكننا لا نصبر على المساس بالعِرض، وهذه حقيقة لا تفهمها فرنسا، لأنه ليس في لغة فرنسا كلمة تترجم بها هذه الكلمة، ليس عندهم شيء اسمه (العِرض) [٢].

(١) في سبيل الإصلاح / ص ١٠٢ ـ ١٠٣.

(٢) هتاف المجد / ص٢٢٣.

حق الضيافة

قد أكون على موعد يفوتني بفواته خير عظيم، ولا يبقى بيني وبينه إلا مقدار ما ألبس ثيابي وأمشي إليه، فيجيئني ضيف لا حاجة له عندي، ولا خير له في زيارتي، ولا يبتغي مني إلا أن يدفع الملل عن نفسه بالبقاء ساعتين أو ثلاثاً عندي، فيسقط في يدي، وأحار في أمري[1]، إن استقبلته ضيّعت موعدي، وإن رددته أضعت (حق الضيافة) وتعرّضت لسوء الأحدوثة، ثم أختار أهون الشرين فأرحب به وأدعوه، وآمل أن أفهمه حقيقة حالي وأعجل له بالقهوة فينصرف... وأجلس بين يديه متململاً متضايقاً، وأتلطف في إفهامه والاعتذار إليه، فلا يحفل بي ولا بموعدي، ولا ينظر إلا إلى نفسه ورغبته في قطع الوقت بهذه الزيارة، فيقعد آمناً مطمئناً، يحدثني حديث السياسة، ويسألني عن الروس واليابان، والصين وتركستان، ويعرض عليَّ رأيه في الأنظمة التي ستعم العالم بعد الحرب.... ويفيض ويسهب، وأنا أتقلب على النار، ويبقى على ذلك حتى لا يبقى لي منفعة من الذهاب، ولا يمكن تدارك ما فات، فينصرف ليتحدث عني بأني لقيته بجفاء وخشونة وكلّمته باقتضاب وإيجاز، ولم أوَفّه (حقوق الضيافة)[2].

وقفة على طلل

هذه نفسي أسائلها: هل تعرف النفوس الوفاء، وهل تدور مع الدهر الدوّار كيفما دار، تلبس لكل حالة لبوسها، وتتخذ لكل يوم ميزانه، فيهون عندنا اليوم ما عزَّ بالأمس، ويرخص ما غلا، ويغلو ما رخص، نرى الشخص فلا نباليه، وقبلاً كان مناط حبنا، وكنا نقنع إن كان وصله حظنا من دنيانا، أو كان موضع إكبارنا وكان رضاه نهاية متمنّانا، ونمر بالمكان لا نلتفت إليه، وفيه ذقنا حلو العيش ومره، وفيه أثر من أنفسنا، وفيه بقايا من أعمارنا!!

---

(١) كان ذلك من قديم، ثم صرت لا أستقبل أحداً إلا بموعد.

(٢) في سبيل الإصلاح / ص ١٢٠.

لقد عشت دهراً لو قيل لي فيه إنه سيأتي عليك يوم تجوز فيه بهذه المدرسة فلا تقف عليها إلاّ وقفة التذكّر والحنين، ثم تمضي لطيّتك وتنساها بعد خطوات لما صدّقت! فكيف هانت عليّ هذا الهوان، وقد كانت بالأمس نصف دنياي.. وهل دنيا التلميذ إلاّ داره ومدرسته والطريق بينهما؟ وقد كانت أبداً في فكري وحسي: في الصباح حين أتوجّه إليها، وفي النهار حين أكون فيها، وفي المساء حين أعود منها، قد تجمعَت فيها أفراحي كلها وأتراحي، وأصدقائي جميعاً وأعدائي، وكانت بضعة مني، بل كيف أنكرت ذلك الطفل الذي كان في سنة ١٩١٨م تلميذاً فيها يحمل اسمي وملامح وجهي؟ كيف جوّزت لنفسي أن أطرح آراءه وأهزأ بأفكاره، وأحقّر ما كان يعظّمه؟ لقد ذهب المسكين ولا أدري أين ذهب، وجئت من بعده، ولكني لم أنسَ حوادثه، فهل الذاكرة هي الشيء الفرد الذي يبقى ثابتاً في الإنسان، على حين تبدّل العقول والأجسام؟

سلوا الفلاسفة إن كان عندهم علم، فما أنا بحمد الله من أهل الفلسفة[١].

(١) من حديث النفس / ص ١٥٤ ـ ١٥٥.

الفصل السابع

خواطر وتأملات

إلى الأغنياء

يا مضطجعين على فرش النعيم، يا آمنين في حِمى المدافئ، يا ناعمين في ردهات القصور، يا راتعين في لذائذ العيش، يا من لا يعرفون كيف يحفظون أموالهم: هل يجمّدونها ذهباً، أم يحوّلونها دولارات، أم يستثمرونها أسهماً، ولا يدرون أين ينفقون فضلاتها وزوائدها، فلا يفتؤون يسألون عن دار أجمل من الدار التي يسكنون، وسيارة أفخم من السيارة التي يملكون، وأثاث أحدث من الأثاث الذي يقتنون.

يا أيها الأغنياء المترفون، اذكروا أن في الأرض من إخوانكم من أبناء أبيكم آدم وأمّكم حوّاء، من لا يجد في هذا البرد الذي يجمّد الأنفاس دثاراً من الصوف يتدثّر به، وغرفة محكمة يأوي إليها، وناراً موقدة يتدفأ بها، ومَن لا يعرف من أين يأتي بالمال الذي يشتري به الخبز يسدّ به جوعه، والدواء يدفع به مرضَه..

وأن في البلد فقراء مدقعين، وأن في البلد لاجئين..

وأنكم لا تكونون من أبناء آدم إذا أهملتُم إخوانكم هؤلاء، ولم تخطروهم على بالكم، ولم تجعلوهم من همّكم!.

فابحثوا عن الفقراء من جيرانكم، واللاجئين في حيّكم، وسلوا أولادكم في المدارس عن أولاد الفقراء ما حالهم؟ ماذا يلبسون، فلعلّ ثوباً عتيقاً من ثياب أولادكم يكون هدية العيد عندهم، وفيم يكتبون؟ فلعلّ دفتراً

قديماً من دفاتر أولادكم يكون فرحة العمر لهم، ولعل الـ (خمس ورقات) التي تنفقونها فلا تحسّون بها تكون ثروة لهم، إذا دفعتموها إليهم!.

ولا تغترّوا بالغنى، فطالما افتقر أغنياء، ولا بالصحّة فطالما مرض أصحّاء، ومادامت الدنيا لأحد حتى تدوم لكم، والحساب بعد ذلك أمامكم، وستُعرَضون على ربِّكم فاجعلوا هذه (الصدقات) شكركم لله ما أنعم به عليكم، واجعلوها تكفيراً عن خطاياكم وأسِرُّوا الصدقة حتى لا تعلم يمينكم بما صنعت شمالكم، يضاعف لكم الأجر عند ربكم، أو أعلنوها حتى يقتدي الناس بكم، ويسيروا في الخير على سننكم.

يا أيها الأغنياء، اسمعوا ما أقول لكم، فلقد واللهِ نصحتُكم[١]!.

أغبياء الأغنياء

المال ـ أيها الأغنياء ـ مال الله، فإن زاد لم يمكن إنفاقه إلا على الخلق (عيال الله) فأروني كيف تأكلون الذهب، وتلبسون (البنكنوت)، وتسكنون صناديق الحديد؟ إن هي إلا معدة تمتلىء بما يقذف فيها، والجوع يحسّن لصاحبها كل إدام، وجسد يستر بما يلقى عليه، والنظافة له أحسن حلية، وبيت يقي من الحر والقر ولذائذ محلّلة ميسورة، وما وراء هذا إلا أكل يفسد الهضم، أو سِمَنٌ يهدّ الجسم، وخمر تحرق الأحشاء، وبلايا معها بلايا أخرى من عذاب الضمير والغفلة وضياع الإيمان، أو مآثر تنفع الناس وترضي الله، ويجد صاحبها مكافآتها الاطمئنان والمجد في الدنيا والثواب من الله في الآخرة، وهذه حكمة واحدة من حكم الله في الغني والفقير لو تدبرتموها لفُتحت آذانكم فسمعتم كلمة الحق، وكشفت الغشاوة عن عيونكم فقرأتم في خلق الله وفي كتابه آيات الهدى، ولكن اللذات قد شغلتكم يا أيها الأغبياء من الأغنياء[٢].

---

(١) ـ مقالات في كلمات / ص ٩ ـ ١٠.

(٢) ـ في سبيل الإصلاح / ص ١١٨.

بطون جائعة وأموال ضائعة

... إن حول كل دار من هذه الدور التي تُهدر فيها الأموال لَمساكن فيها ناس مثلنا، من بني آدم، من إخواننا في الدين وفي الوطن وفي اللسان، يشتهون عُشر معشارها، أو أقل منه، ليشتروا به طعاماً يملأ بطون أولادهم، وثياباً تستر أجسادهم، وإن لهؤلاء الناس (لو عرف الأغنياء!) عيوناً تنظر كعيوننا، وقلوباً تتألم كقلوبنا، ولهم بنون وبنات هم قطع أكبادهم، وهم (على هلهلة ثيابهم ووساخة أبدانهم) أحبّة إليهم أعزة عليهم كعزة أولادنا علينا، وربما كانوا أزكى من أولادنا نفوساً وأطهر، وأذكى عقولاً وأمهر، وكانوا أرضى لله وأنفع للوطن منا، ولكن الفقر عطّل قرائحهم، وكفّ أيديهم، وكبّل أرجلهم.

إن لهؤلاء وإن لم يكن في أعراسهم طاقات الزهر، ولم يكن في جنائزهم مولوية ولا آس، ولم يعرفوا طريق المدارس والملاهي، ولم يزهوا بغالي الثياب، ولم يتمدّدوا على أرائك السيارات، ولم يعرفوا المشيخة التي يأكلون بها الدنيا بالدين، ولا الزعامة التي يجمعون بها المال بالوطنية، إنهم هم عماد هذا الوطن، وهم جمهرة أهله، هم يزرعون القمح ويقدمونه إلينا ثم يعيشون على الذرة والشعير، وهم يبنون لنا القصور ثم يقيمون في الأكواخ مع البقر والحمير، وهم يصنعون بأيديهم (الشكولاطة) التي لا يذوقونها، ويحيكون الثياب التي لا يلبسونها، وهم يسهرون في الطرقات ليحرسونا ونحن نيام، وهم يمشون إلى الميادين ليدافعوا عن أوطاننا ونحن آمِنون، وهم قد دفعوا ثمن الاستقلال مُهَجَهم وأرواحهم، ثم لم يأخذوا من خيراته شيئاً.

إن هؤلاء هم ركن الوطن وعماده، وهم أهله وقُطّانه، فحرام علينا أن ننساهم ونهملهم!! حرام أن تبقى هذه الأموال ضائعة، وهذه البطون جائعة! حرام في دين الله، وفي شِرعة الإنسانية، وفي قانون الشرف! فأين المصلحون؟! أين المصلحون؟! أين رجال الجمعيات؟ أين أرباب الأقلام؟[1].

---

(١) ـ في سبيل الإصلاح / ص ٣٠.

فكرة

... إن في الموسرين لمحسنين، وفي التجّار لمنصفين، وما تخلو طبقة من خير ولا من شر، ولكن في الموسرين من يريد الإحسان ولا يعرف المستحق له، ومن المستحقين من لا يعرف المحسنين، ومنهم من يعرف ولا يسأل، أولئك الذين يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفّف، وإن من أوجب ما يجب علينا في هذه الحرب أن نُنشىء جمعيات موثوقاً برجالها، بأمانتهم ودينهم، تكون في كل حي كالوسيط بين الغني المحسن والفقير المحتاج، تأخذ من الأول وتعطي (بعد التحقق من حاجته) الثاني، ومن عرفت أنه اتخذ السؤال حرفة ـ على مقدرة منه على العمل أو على مال له قد خبّأه فعل أكثر هؤلاء المكدّين ـ رفعت أمره إلى الحكومة لتعاقبه عقاب المتشردين، ويا ليت هذه الجمعيات الإسلامية الكثيرة في مصر والشام والعراق: الإخوان، والشبّان، والهداية، والتمدّن وأمثالها تجعل ذلك المطلب من بعض مطالبها.

ثم إن من أهم ما ينبغي لهذه الجمعيات أن تصنعه هو أن تختار للإحسان أسلوباً يهون به العطاء على المعطي، وتجزل به المنفعة للآخذ، ولقد وجدتُ أنا واحداً من مائة أسلوب تخطر على البال، حين كنت (من نحو ثلاث سنوات) قاضياً في القلمون، وضاقت الأقوات، وقلَّ الخبز، فدعوت إلى ما سمّيته (مشروع الرغيف)، وأعانني عليه القائم بأمر المنطقة يومئذ، ففرضنا على أهل كل بيت من القادرين رغيفاً واحداً في اليوم ووكلنا من يجمعه، ووزعنا ما جمعناه على المحتاجين، وتركنا من هم بين ذلك فلم نأخذ منهم ولم نعطهم، وهذا الرغيف الذي لا يصعب إعطاؤه على أحد ولا تشعر به الأسرة أحيا الله به أهل القلمون ـ وهم أكثر من سبعين ألفاً ـ في سنة القحط والضيق، وما ذكرتُ ذلك لأفخر به ولا لأنه الأسلوب البديع الذي لا نظير له، بل لأمثّل به على ما أريد، والعبرة بالأعمال لا بالأقوال[1].

---

(١) ـ في سبيل الإصلاح / ص ٥٤.

جزاء الوالدين

إني ما رأيت أُمّاً وابنها في المحكمة، تسأله نصف ليرة في اليوم تأكل بها خبزها، وهو يضنّ بها عليها، ويزويها عنها، ثم ينفق المئات من الليرات على نفسه، أو على عُرسه، ينعمون وتشقى الأم، ويسكنون القصور ولا تجد الكوخ، ويأكلون الأطايب ولا تشبع الخبز، ويلبسون الحرير ولا تصل إلى (الخام)، وما رأيت أباً وِولده واقفين موقف المتقاضيين، إلاّ قرأت في وقفتهما أبشع قصة للّؤم والنذالة والجحود!..

تحمل الأم وليدها تسعة أشهر في بطنها، تحويه بين أحشائها، وتغذّيه من دمائها، حتى يكون منها كأحد أعضائها، ثم تضعه كرهاً عنها يُنتزع منها انتزاع روحها من بين جنبيها، فإذا برز للدنيا ذهب بمرآه ما آلمها وما أشقاها،، وضمّته إلى صدرها فنسيت به دنياها، وأعطته ثديها ليمتص حياتها فيقوى بضعفها، ويسمن بهزالها، ثم عاشت به وله: إن ابتسم رأت الدنيا قد بسمت لها، والأماني قد واتتها، وإن بكى سوّد بكاؤه عيشها، وإن مرض هجرت له منامها، ونسيت طعامها، ترعاه حتى يصح، وإن صحّ أهملت طعامها ومنامها، تحرسه كي لا يمرض، تحرم نفسها لتعطيه، وتجيع بطنها لتشبعه، وتعري جسدها لتكسوه...

ويكدّ الأب ليريح ولده، ويشقى ليسعده لا يعمل إلاّ له، ولا يجمع المال إلاّ لِيُغنيه، ولا يجد في الدنيا مكافأة أكبر من أن يعود من شغله محطماً مهدماً فيجد طفله يرقبه يناديه: بابا، ويهرع إليه ويلقي بنفسه عليه فيغيب في ذهلة لذة، تنسيه تعبه ونصبه، وترجع إليه نشاطه، كأنّ يداً سحرية مرّت على قلبه، فصبّت فيه القوة والأمل والشباب، ويرقبه هو والأم، فلا يزيد عمره يوماً حتى ينقص عمرهما شهراً، ولا يدنو من الشباب حتى يبتعدا عن الشباب، ولا يصيب القوة حتى يصيبهما الضعف، فإن بلغ أشدّه واكتمل وصار شاباً شديداً أيّداً كان جزاؤهما منه النكران والهجران، وأن يؤثر عليهما لذة نفسه ومرضاة عرسه؟!.

أيربّي الرجل كلباً فيفي له؟ ويحسن إلى حمار فلا يرفسه؟ ويلقي لقمة

إلى قط فيعرفه من بُعد فلا يعضّه؟ ويفني الأبوان نفسيهما ويبذلان للولد روحيهما، فيُعرِض عنهما، أو يعدو عليهما.

لا والله، ليس على ظهر الأرض مجرم أشدّ لؤماً، وأخسّ نفساً، وأولى بالمهانة، وأبعد عن الإنسانية، وأحقّ بلعنة الله والناس: من ولدٍ يسيء إلى أمّه أو يُغضِب أباه[1]!!.

الوالدان

يقول لي ناس: لماذا تكثر الحديث عن نفسِكَ؟

أتحدث عن نفسي لأني أديب، وهذا أسلوب من أساليب الأدباء، ومذهب من مذاهبهم، ولقد قلت في مقالة لي منشورة في الرسالة سنة ١٩٣٧م: «إني حين أتحدث عن نفسي أتحدث عن كل نفس، وحين أصف شعوري وعواطفي أصف عواطف كل من كان في مثل حالي وشعوره، كأستاذ التشريح لا يشق صدر كل حيوان من حيوانات المختبر، بل يشق الصدر والصدرين ليُري الطلاب مكان القلب، وحركته، ويشرح لهم عمله، لأن القلوب التي لم يروها لا تختلف عن القلب الذي شق عنه فرأوه.. وهذا من عجائب قدرة الله ونظامه العجيب في خلقه، إذ جعل الناس مختلفين وهم متشابهون، ومتشابهين وهم مختلفون، برأهم على الوحدة في الوضع، والتنوع في الجمال، كل عين ككل عين في تركيبها وصفتها، وما عين مثل عين في شكلها ومعناها وجمالها».

إني أكتب اليوم عن أمي، ولكن كل واحد منكم سيقرأ فيه الحديث عن أمه، ألم يقل (سبنسر) إن الجميع يبكون في المآتم، ولكن كلاً يبكي على ميته؟ فمن قعد يقرأ هذه الحلقة وله أم، فليتدارك ما بقي من أيامها، لئلاً يصبح يوماً فلا يجدها ولا يجد ما يعوّضه عنها، وإن كانت عجوزاً أو كانت مريضة، أو كانت مزعجة بكثرة طلباتها، فاذكر أنها إن احتاجت إليك اليوم فلقد كنت يوماً أحوج إليها، وإن طالبتْكَ أن تقدم لها من مالك فقد

---

(١) مقالات في كلمات / ص ٣٩ ـ ٤٠.

قدّمت لك من نفسها ومن جسدها، وأنها حملتك في بطنها فكنتَ عضواً من أعضائها يتغذى من دمها، ثم وضعتكَ كُرهاً عنها انتُزِعتَ منها انتزاع روحها، أما أبصرت يوماً حاملاً في شهرها التاسع، بطنها إلى حلقها، لا تستطيع أن تمشي من ثقل حملها، ولا تستطيع أن تنام؟ وإن لم ترَ بعينك امرأة تلد، أفما سمعت صراخها من ألمها، ألم يبلغك ما تقاسي وما تتعذّب؟ لو سبب لك إنسان عشر هذا العذاب لأعرضتَ عنه ولهجرته، هذا إن أنت رفقت به فما انتقمت منه ولا آذيته، ولكن الأم تنسى بعد لحظات من خروج الولد ألمها، ثم تضمه إلى صدرها، فتحس كأن روحها التي كادت تفارقها قد رُدّت إليها، وتلقمه ثديها ليمتص حياتها فيقوى بضعفها، ويسمن بهزالها، أو يمدها الله بقوة من عنده فلا تضعف ولا تهزل ويقوى هو ويسمن، وإن ضِقت بطول حياة أمك تخفي ذلك في أعماق نفسك وتنكره بلسانك فقد كانت ترى فيك حياتها، إن تبسمتَ أحست أن الدنيا تبسم لها، والأماني قد واتتها، وإن بكيت بكى قلبها واسودّ نهارها، وإن مرضتَ هجرَت منامها ونسيت طعامها، ترعاك ساهرة حتى تصبح، فإن أصبحت ظلت ترعاك حتى تمسي، إنك لو أحببتها بقلبك كله لم توفّها إلاّ واحداً من المائة مما أَوْلَتْكَ هي من حبها، وإن كان لك أب شيخ كبير محتاج إليك، فاذكر أنه طالما تعب لتستريح أنت، وشقي لتسعد، ما جمع المال إلاّ لك، وما خسر ماضيه إلاّ ليضمن مستقبلك، وأنه كان يعود من عمله محطماً مكدوداً فتثب إلى حِجره وتقول له: بابا، وتمد يديك الصغيرتين لتعانقه، فينسى بك التعب والنصب، ويرى المسرات كلها قد جمعت له، والمتاعب كلها قد نأت عنه، واذكر أنه ما زاد من عمرك يوم حتى نقص من عمريهما مثله، ولا بلغت شبابك حتى ذهب شبابهما، ولا نلت هذه القوة حتى نالهما الضعف، أفئن بلغت مبلغ الرجال كان جزاءهما منك الصدود والنكران؟!

إن الإنسان يربّي كلباً فيفي له، وحماراً فلا يرفسه، ويطعم القط فلا يعضّه، بل إن من الناس مَن يتألّف صغار الأسود والنمور وأنواع الوحش فتأنس به وتأوي إليه وتلحس (علامة الشكر) يده..

.. ويفني الوالدان نفسيهما في الولد، فينسى فضلهما ويجحد يدهما؟ يا عجباً!، أيكون الكلب والحمار والقط والنمر أوفى من الإنسان؟!.

وقد تجد في الناس من يظهر لك من حبه أكثر مما تظهر الأم، ويظهر الأب، ولكن منهم من يحبك لمالك، أو لجمالك، أو لجاهك وصلاح حالك، فإن ساءت الحال أو ذهب الجمال، أو قلّ المال أعرضَ عنك ولم يعد يعرفك، أما الذي يحبك لذاتك، ويبقى على حبك مهما تبدّلَت الحال بك فهو أمك وأبوك لا تجد مثلهما حتى في الزوجات، ومن الزوجات الوفيات الصالحات، الصابرات الراضيات، لا يتخلّين عن الرجل ولو مرض وذهبت صحته، ولو افتقر وضاع ماله، ولو سقطت منزلته في الناس فهجروه، ولكن هذا في بعض الزوجات، أما الأمهات فهو فيهنّ جميعاً بلا استثناء[1].

عُزلة القاضي

حدثنا مرة الشيخ زين العابدين التونسي: أن القاضي في تونس لا يخرج من داره إلاّ إلى المسجد أو المحكمة، يمشي أمامه حاجب، ووراءه حاجب، يمنعان الناس أن يكلّمه أحد منهم، أو أن يدنوا منه.

وعجب السامعون وضحكوا...

أما أنا فلم أعجب ولم أضحك، بل رأيت أن كل قاضٍ في الدنيا ينبغي له أن يكون كقاضي تونس، لا يختلط بالناس ولا يعاشرهم، ولا يدخلهم بيته، ولايدخل بيوتهم، وأن يمنعه منهم حزمه وجدّه وصرامته، إن لم يسِر معه حاجبان يمنعانه!.

وإلاّ فكيف يصحب القاضي الناس ويخالطهم ويدعوهم، ويقبل الدعوات منهم، ويكون معهم في محافلهم ومجالسهم وقهواتهم ونزهاتهم، ويسقط ستار الكلفة بينه وبين الكثير منهم، ثم يستطيع أن يقضي بينهم؟.

وكيف (بالله) يقدر أن يعدل بين الخصمين، ويسوي بينهم في وجهه

---

(١) ذكريات الشيخ : علي الطنطاوي (جـ٢) / ص ١٠٧ ـ ١٠٩.

ومجلسه وحكمه، إن كان أحدهما صفيَّه وسميرَه وموضع سرّه، ورفيق نهاره وليله وجدّه وهزله؟ والآخر غريب لا يعرفه، وكيف ينظر إليهما بعين واحدة؟ ويخاطبهما بلسان واحد؟ ويكون موقعهما من قلبه واحداً؟.

فلا يطالب الناسُ القاضي بأن يكون اجتماعياً يستقبل كل قادم، ولو كان الأمير أو الوزير، ويودع كل راحل، ويهنئ بكل نعمة، ويعزّي بكل مصيبة، ويعود المرضى ويشيع الجنائز، ويغشى كل مكان ينافق للرؤساء، ويلاطف النساء، ويجامل الأصدقاء، ويدخل أماكن الريب، ويشرب محرم الشراب، ويأتي منكر الأعمال، فإنه إن فعل ذلك لم يكن قاضياً، ولم يجُز له أن يعلو قوساً، أو يتصدّر مجلس حكم...

ولا يرقبوا من القاضي أن يكون لطيفاً ظريفاً رقيقاً ناعماً، فإن هذه كلها من صفات المدح ما لم يوصف بها القاضي.

فإن وُصف بها القاضي لم تكن له إلاّ نُعوت ذمّ! وليس يضر القاضي إن أرضى اللهَ أن يغضب عليه الناس كلهم[1]!!.

سيِّدة

رأيت اليوم امرأة كأنها جبل من الشحم واللحم، تميس لا كغصن البان، بل كجذع السنديان، على ساق أضخم من خصر إنسان، ومعها أجيرة رقيقة العظم، نحيلة الجسم، بادية السقم، عمرها سبع سنين، وتحمل ولداً للمرأة عمره ثلاث، ولكنه صورة مصغرة لأمه، يشبهها كما يشبه الفيل الصغير الفيل الكبير، منفوخ نفخ الكرة، لا يُعرف طوله من عرضه إلاّ بالحساب والجبر والمثلثات، لا يحيط به ذراعها النحيل، ولا ينهض به جسدها الهزيل، وهي تخطو به تجرّ قدمها جرّاً من الإعياء، وتلهث من التعب، والمرأة تخطو متمايلة كأنها المحمل...

ففكّرتُ في أن أكلمها، وفتّشتُ في ذهني عن الكلمات التي تصلح

---

(١) مقالات في كلمات / ص ٦٧ ـ ٦٨.

لها، ولكني رأيت رجلاً مكتهلاً قد سبقني إليها وقال لها:

ـ يا ست: (خطيّة) هذه البنت، خذي الولد منها.

فوقفت الست، ووضعت يديها في خاصرتيها، ورفعت أنفها ثلاث أصابع، ومدّت شفتيها أصبعين، وقلّبَت وجهها حتى صار كوجه مَن شرب كأساً من زيت الخروع، وصبّت عليه من فمها سيلاً من... أوساخ اللغة، وفضلات الكلام... وهرب كل مَن كان في الطريق من قذارته، ونتن رائحته...

وهربتُ مع الناس، فكتبتُ ما رأيت، لأنشره (بلا تعليق)[1]!.

ما هي التقدّمية

ما هذه التقدمية التي صار النطق بها (موضة) العصر، وعلامة التمدّن والفهم؟

هل يتكرّم أحد فيعرّفها لنا تعريفاً جامعاً مانعاً، فيكون له الأجر والشكر، أم أنّ (التقدّميّين) مثلنا نحن (الرجعيّين) لا يعرفون لها تعريفاً، ولا يدرون لها معنى محدوداً؟.

❊ ❊ ❊

والذي أفهمه أنا أن التقدّمية مشتقّة من (التقدّم)، والرجعية من (الرجوع)، فالذي يمشي إلى الأمام هو التقدمي.. والذي يرجع إلى الوراء هو الرجعي..

ولكن ما الأمام وما الوراء؟، وإذا وقف اثنان في المرجة: أحدهما وجهه إلى البلدية، والآخر وجهه إلى السنجقدار، وسارا كان كلاهما يتقدم إلى الأمام وإن كانا يمشيان في وجهتين مختلفتين فأيّهما التقدّمي؟.

يقولون: إنّ التقدميّ هو الداعي إلى الجديد، إلى عصر الذرّة

---

(١) مقالات في كلمات / ص٩٩.

والصاروخ، والرجعيّ الذي يريد العودة بنا إلى مثل ما كان أجدادنا قبل ألف سنة، ولكن هل كل ما في عصر الذرّة خير، وكل ما قبل ألف سنة شر؟.

في هذا العصر الحرب والدمار والفجور والسرقة، وضياع فلسطين، وإن كان فيه العلم والحضارة، وقبل ألف سنة كان الخير والعلم والفضيلة، وعزّ العرب وسيطرتهم على الدنيا، وإن كان فيه مع ذلك الاستبداد والشرور، وفي كل زمان خير وشر، فلماذا نسمّي مَن يدعو إلى فضائل الماضي رجعياً؟.

وهل كل جديد خير من كل قديم؟

إن أقدم شيء في الدنيا هو العقل، فإذا تركنا الدين وصرنا ملحدين، لأن الدين قديم، فيجب أن نترك العقل ونصير مجانين، لأن العقل أقدم من الدين.

فما معنى التقدمية إذن؟

أخشى أن يكون معناها تقليد الغربيين في الخير والشر، فإن كشفوا العورات كان سترها رجعية، وإن أعلنوا الزنا كان إعلانه تقدّمية، وإن لبسوا (البنطالون) من فوق و (الجاكت) مِن تحت، أو قعدوا على الأرض ووضعوا الكراسي على رؤوسهم، أو أكلوا الحساء (الشوربة) بالشوكة، والبطيخ بالملعقة فقد وجب في شرعة التقدمية أن نصنع مثلما صنعوا، وإلاّ كنّا رجعيّين..

إن كان هذا هو المراد بالتقدّمية، فتجمّعوا وتشجّعوا وقولوه وأريحونا، ولا تدَعوه يطالعنا من خلال السطور، ومن بين الكلمات[1]!.

الدمغة الأفرنجية

كثيراً ما كنت أناقش أناساً من (المجدّدين..) فآتيهم بالكلمة الخالدة لأحد علماء الشرق، فيقلبون شفاههم، ويجعدون جباههم، ويعرضون عنها

(١) مقالات في كلمات / ص ١١٩ ـ ١٢٠.

ازدراءً لها، فأجيئهم بالكلمة مثلها وفي معناها لعالِم أفرنجي، فيسمعون ويخضعون، ويهزون رؤوسهم إكباراً لها، وإعجاباً بها..

وأنقل القاعدة الشرعية عن فقيه من فقهائنا فيأبونها، فإن نقلت هذه القاعدة عن فقيه أفرنجي قبلوها..

ويحقرون العادة من عاداتنا، فإن علموا أن شعباً من شعوب أوربا الراقية أو أميركا قد اعتادها عظّموها.

كأن الخير لا يكون خيراً لذاته بل لـ (الماركة الأفرنجية) عليه، والشر لا يكون شراً لذاته، بل للطابع الشرقي عليه، وكأن كل أفرنجي خير من كل شرقي، لأنهم أقوياء ولأننا ضعاف.

ومن هنا كل ما نرى من مظاهر التقليد السخيف للإفرنج، حتى فيما لا مجال للتقليد فيه: كالحب والبغض والطرب، ودعوى هؤلاء القوم (كذباً) أنهم يطربون لسمفونيات بيتهوفن أكثر مما يطربون لغناء أم كلثوم، وتهزّهم أشعار بول فاليري أكثر مما يهزهم شعر الشريف الرضي.

ومن هنا ليُّ ألسنتهم باللسان الفرنسي أو الإنجليزي، وترك العربية لسان أمّتهم، يحسبون أن كل من رطن بكلمات من لسان الإنجليز صار بها صاحب الأسطول البريطاني ومالك القنبلة الذرية..

ومن هنا ما نشكو من ضياع مجدنا، فأعيدوا لنا ثقتنا بأنفسنا، واعتزازنا بعربيّتنا وشرقيتنا وخلائقنا، ولنأخذ بعد ذلك كل نافع نجده عند الأمم، لنقتبس علومهم وفنونهم والصالح من عاداتهم، ولنتعلّم ألسنتهم ولندرس آدابهم، ولنسمع موسيقاهم بشرط أن يسلم لنا ديننا ولساننا[١].

كلب

حدثني رجل كبير القدر، صادق اللهجة، قال:

---

(١) مقالات في كلمات / ص١٦٠ ـ ١٦١.

كنت في لندن، فرأيت صفاً طويلاً من الناس، يمشي الواحد منهم على عقب الآخر، ممتداً من وسط الشارع إلى آخره فسألتُ، فقالوا: إن هنا (مركز توزيع)، وإن الناس يمشون إليه صفاً، كلما جاء واحد أخذ آخر الصف، فلا يكون تزاحم ولا تدافع، ولا يتقدم أحد دوره، ولو كان الوزير، ولو كان أمامه الكنّاس، وتلك عادتهم في كل مكان، على مدخل الكنيسة، وعلى باب السينما، وأمام بائع الجرائد، وعند ركوب الترام، أو صعود القطار.

قال: ونظرت فرأيت في الصف كلباً في فمه سلّة، وهو يمشي مع الناس، كلما خطوا خطوة، خطا خطوة، لا يحاول أن يتعدّى دوره أو يسبق مَن أمامَه، ولا يسعى مَن وراءَه أن يسبقه، ولا يجد غضاضة أن يمشي وراء كلب ما دام قد سبقه الكلب.

فقلت: ما هذا؟

قالوا: كلب يرسله صاحبه بهذه السلّة، وفيها الثمن والبطاقة فيأتيه بنصيبه من (الإعاشة).

لما سمعت هذه القصة، خجلت من نفسي أن يكون الكلب قد دخل في النظام، وتعلّم آداب المجتمع، ونحن لا نزال نبصر أناساً في أكمل هيئة، وأفخم زيّ، تراهم فتحسبهم من الأكابر.. يزاحمونك ليصعدوا الترام قبلك بعدما وضعت رجلك على درجته، أو يمدون أيديهم من فوق رأسك إلى شباك البريد، وأنت جئت قبلهم، وأنت صاحب الدور دونهم، أو يقفزون ليدخلوا قبلك على الطبيب، وأنت تنظر متألّماً من ساعتين، وهم إنما وثبوا من الباب إلى المحراب؟.

خجلت من رجال لم يتعلّموا الانتظام الذي تعلّمتْهُ الكلاب[1]!!.

استثناء

ما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع، ولا علا رجل إلا هبط، إلا

(١) مقالات في كلمات / ص ١٧٦ ـ ١٧٧.

رجل علا بعلمه وبأخلاقه ومواهبه، فذاك الذي لا يهبط أبداً بل يزداد رفعة، لأن علمه لن يُنسى، وأخلاقه لن تذهب، ومواهبه لن تضيع، أما من علا على قوائم الكرسي وأعناق الشعب، فأَحْرِ به أن يسقط مهما استمر علوه وطال بقاؤه[1].

صورة الطنطاوي بقلمه

... كان معروفاً بالشذوذ والخروج عن المألوف، لا يبالي إذا اتجه له الرأي؛ ما يقول فيه الناس، ولا يحفل إذا أزمع الأمر؛ نهيَ ناهٍ ولا نصيحة ناصح، وكان يعرف ذلك من نفسه ولا يغضبه أن يوصف به، بل كثيراً ما سمعناه يتحدث به ويطيل الحديث، يجد في كشف دخيلته للناس لذة وارتياحاً، كأنما هو يلقي عن عاتقه حملاً ثقيلاً.

يجمع في نفسه المتناقضات: فبينما هو منغمس في لج الحياة المضطربة المائجة، يفزع من الوحدة، ويكره الهدوء، ويركب متن المغامرات في الأدب وفي السياسة، يخطب في المجامع، ويناقش في الصحف، وبينما هو مطمئن إلى هذه الحياة مقبل عليها، إذا به قد استولت على نفسه (فكرة صوفية) فغمرت الكآبة روحه، وفاض اليأس على قلبه، وأحس الحاجة إلى الفرار من الناس، والرغبة في العزلة المنقطعة، وأصبح يكره أن يرى أمسَّ أصحابه به، وأدناهم إلى قلبه، ويحب الحياة الساكنة الهادئة، ويجد الأنس في حديث قلبه ومناجاة ربه.

وهو أسرع الناس إلى المزاح والفكاهة، وأضيقهم بمجالس الجد، وأبعدهم عن تكلف الوقار، واتباع (الرسميّات) فلا يكون في مجلس إلاّ حرّكه بحديثه وإشاراته ونكاته، وأفاض عليه روح المرح، والود الخالص، ولكن موجة من الحزن المفاجئ قد تغطي على قلبه في أشد الساعات سروراً، وأكثر المجالس طرباً فإذا هو حزين كئيب، قد ضاق بالناس وتبرّم بمزاحهم وهزلهم، وغدا راغباً في الجد محباً للوقار، متلبساً بالصرامة

---

(١) مع الناس / ص ٢١٦.

والحزم، منصرفاً عما كان فيه منذ لحظة واحدة، لا يعرف الناس ولا يعرف هو، ماذا أصابه، فنقله من حال إلى حال.

تغلب عليه العاطفة حيناً فيمسي أرقّ الناس شعوراً، وأرهفهم حساً، يرى المشهد الجميل من مشاهد الكون، أو يسمع النغمة العذبة الشجية، أو يقرأ البيت الغزلي الرقيق، أو القصة العاطفية المحزنة، فتوقظ في نفسه عالماً من الذكريات، فيخفق لها قلبه، ويهفو لها فؤاده، ويحس بها تلذعه لذعاً، وتفيض على نفسه شعوراً طاغياً بحبٍّ مبهم غامض، لا يجد طريقاً ينبعث منه فيزلزل كيانه زلزلة، كما يزلزل البركان الأرض، إن لم يجد فوهة يندفع منها، ويدعه شخصاً متهافتاً لا يقوم إلاّ على أعواد من العواطف الرقيقة المتداعية[١].

ويسيطر عليه العقل أحياناً فيحتقر العاطفة، ويدعو إلى أدب قوي نافذ، ويسخر من الحب، ويهزأ بالعاشقين، ويزدري هذه القصص وهذه الأشعار التي كان يرقص لها قلبه، وتفيض لها مدامعه...

ويقبل على العمل بهمّة عجيبة ورغبة قوية، فيطالع ويكتب ويعمل كآلة دائبة الحركة، لا يأخذه ضعف ولا خور، ثم يشعر فجأة بكراهية العمل والنفور من المطالعة الجدية والعزوف عن الكتابة والتأليف، ويستولي عليه كسل عقلي عجيب، لا يطيق معه عملاً من الأعمال.

كان يعمل في مدرسة ابتدائية، نزلوا به إليها، فلا يكلّفه العمل فيها جهداً ولا مشقة، ولا يشغل من تفكيره شيئاً، فكان يستمتع بوقته ونفسه كما يشاء، ويشتغل بالأدب للّذة والمتعة الفنية، فيقرأ ما طابت له القراءة، ويكتب ما رغب في الكتابة، ويؤلّف ما مال إلى التأليف، فكره هذه الحياة وهوى الحياة العقلية المنظمة التي تضطره إلى نوع من الدرس بعينه، وتجبره على نوع من الكتابة بذاتها.

كان يعيش في أسرة رفرف عليها الحب وسادها الإخلاص وأسبغ

---

(١) هذا شيء قد كان وزال.

عليها ثوب السعادة، بين إخوة له ما رأى الراؤون مثلهم في ذكائهم واستقامتهم وطاعتهم إياه، وحبّهم له، وحرصهم على رضاه، وصحابة له ما فيهم إلاّ أريب طيب النفس، صادق الود صافي السريرة حسن السيرة، وكان له في بلده منزلة يحسده عليها من هو أكبر منه سناً وجاهاً، وأكثر علماً ومالاً، فملَّ هذه الحياة ومال إلى الهجرة وانتجاع أفق جديد، فأزمع السفر إلى بغداد، تاركاً عمله في وزارة معارف الشام، عاصياً الناصحين والناهين من الأهل والأصحاب، وجاء إلى بغداد، فلم يكد يلقى فيها رحله حتى عراه اكتئاب وملل لا يعرف له سبباً، وأحس الحنين يحز في قلبه والشوق يدمي فؤاده، وانتابته إحدى نوباته العاطفية، فلم تدع في رأسه إلا فكرة واحدة، هي الرغبة في العودة لا يبالي معها ماذا قيل عنه، وماذا ضاع منه، ولكنه لم يكد يستجيب لها، حتى أدركه مدد من عقله، فصحا من نوبته، وتخلّص من عاطفته، فآثر البقاء وأقبل على العمل، فلم يمض عليه يوم حتى سمع من ينشد:

فيم الإقامة بالزوراء؟ لا سكني بها ولا ناقتي فيها ولا جملي

فنشطت عاطفته المكبوتة من عقالها، تصرخ في وجه العقل، أن: فيمَ الإقامة بالزوراء؟ فغلب العقل واستخذى، وذهب يستعد لمعركة أخرى.

ولقد وجد في بغداد من الإكبار فوق ما كان يرجو، ووجد اسمه قد سبقه إليها، وحفّه قُرّاؤه والمعجبون به، وأسرعوا للسلام عليه والاجتماع به، فلم يكن أبغض إليه وأشد عليه من هذه الاجتماعات، فكان يعرض عنهم ويرتكب في هذا الباب أشد الحماقات، حتى أنه ليدع الجماعة من علية القوم في ردهة الفندق ويفر منهم، وما جاؤوا إلا من أجله فيقوم من غير استئذان ولا اعتذار ويذهب إلى غرفته فيعتصم بها، وإنه ليعلم ما في عمله من جفاء، ولكنه يضطر إليه اضطراراً، فهو يشعر أن جو هذه المجالس ثقيل عليه حتى ليوشك أن يخنقه ويغدو فيه كمن سد أنفه وفمه، ويلام، فلا يدفع عن نفسه لوماً ولا يحاول إنكاراً، ويعترف بالضعف ويقر بالعجز.

إنه لا يستطيع أن يحمل اسمه، لا يقدر أن يتلقى بوجهه وجسمه هذا الإعجاب الذي يزعمون أنهم يوجهونه إلى الشخص الآخر الذي ينشر في (الرسالة) كأن له شخصيتين، فهذه التي يأكل بها ويشرب ويمشي ويضحك ويمزح غير تلك التي يفكر بها ويكتب ويؤلف، وليس بينهما من صلة ولا يربطهما سبب من الأسباب، والعجيب من أمره أنه يضيق بالكلام في مثل هذه المجالس ويتهيبه، وتظنه أول ما تلقاه حيياً عيياً لا يفصح ولا يبين، فإذا أنت اتصلت به وعلقت حبالك بحباله، رأيته مفوهاً طلق اللسان شديد البيان، وإن أنت خالطته وعرفت دخيلته أبصرته لا يتهيب موقفاً خطابياً مهما كان شأنه، ولا يخشاه ما يخشى الرد على ألفاظ المجاملة ويتهيب مجلس تعارف وانتساب.

كان يأمل أن يجد لذة في تدريس الأدب، ولكنه لم يكد يمارسه حتى اجتواه وملّه، وعلم أن الاشتغال بالأدب للّذة لا يستقيم مع هذا العمل النظامي المستمر، إنه يصبح وفي رأسه فكرة يريد أن يكتب فيها فصلاً، فيدركه وقت المدرسة، فيذهب وتذهب الفكرة في طريقها، أو يصبح وهو يكره الكلام ويميل إلى الصمت، يحب أن يفكر فيطيل التفكير، ويحلم فيغرق في الأحلام، فيراه ملزماً بالكلام خمس ساعات أو ستاً، وهو يحب الشاعر أو الكاتب ويميل إليه فيُكرِهه المنهج على درس شاعر آخر لا يحبه ولا يفهم أدبه، ويضطره الطلاب إلى إطالة الحديث حين ينبغي له الإيجاز، أو إيجازه حين تُطلب الإطالة، أو لا يفهمونه ولا يسايرونه فيهبط من سماء متعته الأدبية، ليمشي مع أفهامهم وعقولهم...

إنه رجل شاذ الطباع متناقض العواطف، يشتاق إلى بلده فإن عاد ندم على العودة، وإن أقام هاجه الشوق، وإن لجأ إلى عقله ثارت عاطفته، وإن اتبع عاطفته أبى عقله... لا يفهمه أحد، ولا يفهم هو نفسه، إنه أديب!![1].

---

(١) من حديث النفس / ص ٧٦ ـ ٨٠.

على أبواب الثلاثين

نظرت اليوم في سجل ميلادي، فوجدتني على أبواب الثلاثين، فتركت عملي وجلست أفكر، ماذا بقي لي من هذه السنين الثلاثين يا أسفي؟! لم يبقَ إلاّ ذكريات واهية تحتويها بقية قلب تناثرت أشلاؤه على سفوح قاسيون في دمشق، ومسارب الأعظمية في بغداد، وغابات الصنوبر في لبنان.... إي والله، وعلى طريق الأهرام في مصر، وضفاف الشط في البصرة،، وحوائط النخيل في يثرب، أشلاء من قلبي وأشلاء... فماذا أفدتُ من عمري الضائع وشبابي الآفل؟ لا شيء! لا مجد ولا مال ولا بنين، لم أفد إلاّ اسماً مشى في البلاد فحمل قسطه من المدح والذم، والتمجيد والشتم، ولكني كنت في معزل عن هذا كله فلم ينلني منه شيء، إن اسمي ليس مني، إنه مخلوق من حروف، ولكني إنسان من لحم ودم، فهل تشبعني الشهرة، أو يكسوني الثناء؟ ولا أملك إلا قلباً أَحبَّ كثيراً وأَخلصَ طويلاً، ولكنه سقط كليماً على عتبات الحب والإخلاص، ورأساً حشوته بما وجدت من العلوم والمعارف فأثقلته علومه عن التقدم، فاحتلت مكانه الرؤوس الخفيفة الفارغة...

فيا ليتني علمت من قبل أن الحياة مثل اللجة، يطفو فيها الفارغ ويرتفع، وينزل الممتلئ ويغوص[1].

مطلب واحد

لقد مر بي أكثر العمر، ورأيت الحياة، ونلت لذاتها، وجرعت آلامها، لم تبق متعة إلاّ استمتعت بها، فلا اللذائذ دامت ولا الآلام، ولا الشهرة أفادت ولا الجاه، ولقد شهدتُ حربين عالميّتين، ورأيت تعاقب الدول على الشام من العثمانيّين إلى الفرنسيّين إلى من جاء بعد، ومن قام ومن قعد، ومن أتى ومن ذهب، ولو أردت الوزارة وسلكت طريقها لبلغتها من زمان كما بلغها من مشى على أثري في الدراسة وفي الحياة، ولو شئت

---

(١) من حديث النفس / ص ٧٢ نشرت أول سنة ١٩٣٩ م.

لكنت من المشايخ الذين تُقبّل أيديهم ثم تُملأ بالمال، فيملكون الضياع والسيارات، ويصيرون بحرفة الدين من كبار أبناء الدنيا، ولكني ما وجدت شيئاً يدوم، تذهب الوزارة فلا تترك إلا حسرة في نفوس أصحابها، ويصحو الناس فيعلمون أن الذي يأكل الدنيا بالدين، لا يمكن أن يكون من الصالحين المصلحين، فزهدتُ في المناصب والمراتب والمشيخات، وهانت عليّ وصغرت في عيني ولم يبقَ لي من دنياي (الآن) إلا مطلب واحد: يقظة قلب أدرك بها حقائق الوجود، وغاية الحياة، وأستعد بها لما بعد الموت، وهيهات يقظة القلب في هذا العالم المادي!![1]

المعلم

عمل الأستاذ ـ يا أيها القراء ـ مثل وادٍ بين جبلين، في وسطه جدول صغير، لا يستطيع السائح أن يصل من جبل إلى جبل حتى يقطع الجدول، وليس على الجدول جسر يجتاز الناس من فوقه، فقام عليه من يجيز المسافرين، ينقلهم من ضفة إلى ضفة حتى يصل بأحدهم إلى الجانب الآخر، ثم يؤمّ الجبل صُعُداً، فيبلغ منهم ناس عاليه وهو لا يزال في مكانه[2].

القضاء

يسألني كثير من الإخوان، كيف وجدت القضاء؟ إني وجدت القضاء راحة جسم وتعب بال، وعلوّ منزلة وقلّة مال، واكتساب علم وازدياد أعداء، وحملاً كبيراً نسأل الله السلامة من سوء عاقبته[3].

صناعة المشيخة

كان على الرجل إذا أراد أن يكون من العلماء أن يحمل مشقات

---

(١) من حديث النفس / ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤.
(٢) ذكريات الشيخ: علي الطنطاوي (جـ٥) / ص ١٤٣ ـ ١٤٤.
(٣) من حديث النفس / ص ١٦٨.

الرحلات ويثني الركب في المجالس، ويحيي الليالي في المطالعة، وينفق السنين في الطلب، فهان الأمر حتى اقتصر على عشرة أذرع من الشاش، وجبّة عريضة وسبحة طويلة، ولو لم يكن تحت العمامة إلاّ رأس فارغ من العلم، ولو لم يكن في الجبّة إلاّ جسد يتربّى بالحرام، فلما رأى العوام ذلك، وأبصروا ناساً لهم زيّ العلماء، وأفكار الجهلاء، وأعمال السفهاء، ورأوهم يصفون الأقدام في المساجد رياء، ويحركون ألسنتهم بالتسبيح تظاهراً، لم يعرفوا أن هؤلاء أدعياء في العلم، وأن الإسلام ينكرهم ويأباهم، بل حسبوا أنهم هم العلماء، وأنهم هم الصلحاء، واتخذوهم وسيلة إلى الطعن في العلم والصلاح، وإذا أردتم أن تعرفوا مبلغ إيذاء هؤلاء القوم للإسلام فإني أسوق لكم مثلاً واحداً: قصة رجل يرونه اليوم ركناً من أركان التربية وهو من أركان الضلال، يكره الدين وأهله، ويُبعد الطلاب ما استطاع عنه وعنهم، كلّمته في هذا من فمي إلى أذنه كلاماً طويلاً في مجلس حافل جمعني به في مصر، فكان من حُجّته أن شيخاً من هؤلاء المشايخ (ولا أقول العلماء) كان معلّم الدين في المدرسة الابتدائية التي تعلّم فيها، وكان من وصفه، وكان من حديثه، وكان من سيرته، ما نفّره من الدين، وكرّهه إليه.

ولم أقرّه على ما قال، ولا سكتُّ له، ولكني ازددت يقيناً بيني وبين نفسي بأنه من الواجب أن نقضي على هذه الصناعة التي اسمها (المشيخة)[1]، وأن نُفهم الناس أن هذه المظاهر لا قيمة لها إن لم يكن معها علم صحيح وتقوى حقيقية وأنها ليست شرطاً للعلم ولا التقوى، ولا تلازم بينها وبينهما، فربّ عالم ليس بذي عمامة ولا جبّة، وربّ جاهل مخادع، وهو صاحب عمامة كالبرج، وكُمّ جبّة كالخُرج.

وأن يكون الدعاة إلى الإسلام عالمين بالإسلام حقاً، بعيدين عن الغلظة في القول، وعن الجهل بالدنيا وعلومها وعاداتها، فليس من الضروري أن يكون الداعي إلى الله غريب اللهجة، مستنكر الهيئة، ولا أن

---

(١) قلت المشيخة لا العلم ولا الصلاح، فانتبهوا لما قلت.

يأكل بأصابعه إن أكل الناس بالملعقة والشوكة، ولا أن يُقعِد ضيوفه على الطراريح وفي بيته الكراسي والمقاعد، ولا أن يتشدق ويمضغ الكلام، ويحرص على الإخفاء والإدغام، ولا أن يكلم الناس من فوق المآذن، بل أن يستنّ سنّة رسول الله - ﷺ - يلبس كما يلبس الناس ويأكل كما يأكل الناس، إلا أن يكون في ذلك ممنوع في الشرع، وأن يتلطف بالأمر والنهي، وأن يبدأ بما بدأ به الرسول - ﷺ - من تصحيح العقيدة، وتعلم الفرائض، وبيان الكبائر، وأن يخاطب الناس على قدر عقولهم، وعلى مقتضى أحوالهم، وألاّ يبدأ بفروع الفروع قبل أن يُؤصِّل الأصول، فإذا وجد رجلاً يدخل المسجد، أو يؤم مجلس أهل الدين أول مرة، وهو لا يدري ما الإسلام ورآه يشرب بشماله مثلاً أو يتجرّع الكأس، أو لا يسمي، لم يحسن به أن يصرخ في وجهه بأنه خالف السنة، فيخجله في الملأ، وإذا شاهده قد عطس ولم يحمد الله فلا ينبغي أن يقرعه أو يأمره بالحمد أمراً ينفّره، ولا أريد أن يكون العالِم متساهلاً، ولا أن يبالغ في الرقّة حتى يتخرّق ويتمزق، بل أريد أن يكون الشرع هو الميزان، فما كان له في الشرع رخصة رخصنا فيه، وما كان له حكمان ألزمنا المبتدئ بأخفهما عليه، رفقاً به وإبقاءً عليه، وما كان منكراً ظاهراً، لا ترخيص فيه ولا اجتهاد أنكرناه ولو قالوا عنا ما قالوا.

إنني أكتب لنفي صناعة المشيخة، وإفهام الناس أن المسألة ليست بالعمامة والجبّة، لكن بالعلم والتقى، وأن علينا إذا أمرنا بمعروف أن نجعل أمرنا بالمعروف، وأن نستن بسنّة الرسول - ﷺ - في الدعوة، وأعوذ بالله أن أقول لأحد، اكتم الحق ليقول الناس إنك لطيف، أو أقرر الباطل الذي تراه ليقولوا إنك مهذّب، أو ساير الناس في طريق الإثم ليقولوا إنك اجتماعي.

لا، بل الشرع الشرع، ما حرّمه حرّمناه، وما أحلّه أحللناه، وما أمر به فعلناه، وما نهى عنه تركناه، وما أنكرنا هذه الصناعة التي استحدثها الناس وسمّوها المشيخة إلاّ لأن الشرع ينكرها، والصدر الأول لم يعرفها، وأنها صارت سبباً في التنفير من الدين، وباباً قد دخل منه كثير من الأدعياء

والمرائين، وما أردتُ بما قلت إلاّ مصلحة الإسلام، فإن كنت قد أخطأت في شيء فأسأل بالله من عرف الخطأ أن يردّه عليّ، على صفحات (المسلمون) وأنا أسامحه من الآن مهما اشتد في المقال[1].

ذات ليلة

كان النسيم رخياً ناعشاً، تميل منه الأزهار فتفوح من أثوابها رائحة العطر، فتطفو على هذا النسيم والأضواء البعيدة، كأنها تائهة في الظلام، فهي ترتجف من الخوف، وقد جمعت الطبيعة في تلك الليلة سحرها كله: صفاء السماء، وسكون الليل، والربيع الذي زخرف هذه الحديقة ورصّعها بالورد والزهر، ووضع فيها خلاصة فنه ونتاج عبقريته.

وكان كل شيء عاشقاً قد سكر بخمرة الجمال، وراح يحلم، فالصحراء الواسعة قد سكرت وتغلغلت في الظلام منفردة تحلم بالظل والماء، والسهول المجاورة راحت تحلم بربيع دائم، وعاد الأمس حياً حالماً بالخلود وأطل الغد نشوان يحلم بليلة مثل هذه الليلة...

وكنت أحلم... فما راعني وهبط بي من سماء أحلامي إلا ضحكة عذبة رقيقة كأنها رنين الذهب، لم أسمعها بأذني ولكني رأيتها بعيني تتدحرج طافية على وجه النسيم الأحمر حتى غاصت في الظلام الساكن، وعاد الصمت... وكانت ضحكة عاشقين قد نسيا الوجود وما فيه، وغابا في حلم حي يقظان!!

فهاج ذلك صديقي الشاعر فانحنى عليّ، وألقى في أذني إحدى أغانيه (الجديدة):

«زرعت روض شفتي بالقبل فأزهر وأينع، ولكن لم يقطفه أحد فذوى وجف».

«وأعددت سرير الحب في قلبي وضمخته بالعطر، ولكن لم يهجع عليه أحد فعَلاه الغبار».

---

(١) مع الناس / ص ١٣٣ ـ ١٣٥.

«كأن الناس لما خُلِقوا قُسّموا أنصافاً، ثم نُثِروا في الحياة، فمن وجد نصفه صار إنساناً، ومن وجد غيره كان مسخاً، ومن لم يجد بقي نصف إنسان».

«فأين أنت يا نصفي الآخر؟».

«لقد ضاع النصف الذي فيه قلبي، فمن هي التي يخفق قلبي في صدرها».

«من هي التي تنظر بعيني، وتسمع بأذني؟».

«من هي التي لم أرها أبداً، ولا أرى غيرها أبداً؟»[1].

نشيد الوداع

نشرت في جريدة فتى العرب سنة ١٩٣٠

١) مالت الشمس إلى المغيب، ولم يبقَ منها إلاّ خيوط تنفذ من بين قطع الغمام المتناثر حيال الأفق، تلفظ نَفَسها الأخير، كما يلفظ نَفَسه هذا العام الراحل!

٢) دنت قافلة الحياة السائرة في بيداء الزمن من محطّها، فتباطأت في سيرها، وقاربت خطوها، فأمسيت أشعر بطول هذه الساعات الباقية في عمر العام، ورحت أرقب عقرب الساعة الماثلة أمامي، فلا أراه يتحرّك... فضجرت وتألّمت، وأحسست كأن هذا الفلك يدور وهو على عاتقي..

٣)... بعد ساعة واحدة يُتمُّ الفلك دورة جديدة من دوراته التي لا تُحصى، فلا يترك بعدها إلا أنقاضاً مهدّمة، وأجساداً محطّمة، وقلوباً

(١) من حديث النفس / ص ١١٥ ـ ١١٦.

مهشّمة، كأنما هو رحى تطحن الأمم والشعوب... ثم يخرج منها النداء أن: لِدوا وابنوا وأمّلوا... ولكن للموت والخراب واليأس!!

بعد ساعة واحدة ينقضي هذا العام، فتبتلعه هوّة العدم، ويفتح الماضي ذراعيه، ليضمه إلى الأعوام الكثيرة التي مرّت من قبله، ويؤلفها (رزمة) واحدة، ثم يلقيها في بحر الأبد، ثم تفنى عند جلال الله الباقي.

بعد ساعة واحدة، يدع هذا العام مكانه من الوجود للعام الجديد ثم يذهب فيتبوأ مكانه من عالم العدم!

بعد ساعة واحدة تُختم من هذا العام صفحة كتبت أكثر سطورها بدموع المظلومين، لِتُفتح صفحة أخرى، لا ندري عنها شيئاً، ولكن فيها ألم وفيها سرور، وفيها أمل وفيها خيبة، وفيها ضحك وفيها بكاء... والقدر يضحك أبداً من هذا الإنسان، لأنه يراه الظالم ويراه هو المظلوم!

وما الإنسان إلا عدوّ الإنسان..

٤) يكتب القوي سيرة حياته، ويملؤها بآيات التبجيل والثناء، ولكن مِدادها دموع الأشقياء، ودموع الأبرياء... وينشىء القويّ صرح مجده، ويرفع ذُرى عظمته، ولكن أساسه جماجم المظلومين، وعظام الشهداء، ويملأ القويّ بالذهب خزائنه، ولكن دراهم قد جُمعت من أيدي اليتامى وأفواه الفقراء.

٥) بعد ساعة واحدة تحط القافلة رحالها فنلتفت إلى الوراء فلا نرى إلا ظلاماً، يلمع في وسطه نجم من الذكرى نتبيّن فيه (العلَم المربّع الألوان) وهو يخفق على دمشق.. فتخفق قلوبنا لجلال الذكرى ومرارة الفقد! فنحوّل أبصارنا إلى الأمام فلا نرى إلا الظلام. ولكن؛ ما هذا النور الذي ينبعث من الأرض فيذهب صعداً في السماء، فيهدينا الطريق ويُترع نفوسنا قوة وأملاً؟ لقد علمت؛ هذا بريق الدماء التي سقينا بها صحراء ميسلون، وجنان الغوطة، لقد علمت؛ لا يزيح ظلمة المستقبل إلاّ هذا النور.. الأحمر!

٦) تزيّن الناس ولبسوا أحسن ثيابهم، وراحوا يهنّئ بعضهم بعضاً،

لقد امتلأت بهم الأسواق والشوارع، والبيوت والمجامع، لقد ناءت برسائلهم قُطُر البريد، حتى ما ترى حيثما كنت إلا ثغوراً تبتسم، وما تسمع إلا مقالة تُقال: كل عام وأنتم بخير. كل عام وأنتم بخير... غير أني لم أفقه من هذا كله شيئاً!.

٧) فيمَ الهناء؟ وعلامَ السرور؟... أيهنئون بتلك الأرواح التي دفعناها ثمن الحرية، فكان للبائع الثمن والمبيع؟ أم بالنفوس الكبيرة التي أزهقها الأقوياء؟ أم بالمنازل التي خرّبوا؟ أم بالدور التي أحرقوا؟ أم بالحق الذي غصبوا؟ أم بالحرمات التي انتهكوا؟.. أم بالأزمة العامة، والتجارة الكاسدة، والصناعة العاطلة، والزراعة البائرة، والأخلاق الضائعة، والرجولة المفقودة، والحدود المستباحة، والجهالة المنتشرة؟.

أما إن أشد البلاء، ألاّ نشعر بالبلاء، وأكبر المصيبة أن نجهل أنها مصيبة! فما لهؤلاء الناس وماذا اعتراهم؟ أيفرحون بهذا كله؟..

إني لا أفقه من هذا كله شيئاً!!

٨) عزفت عما فيه الناس، ورحت إلى شرفتي كئيباً، وكان الظلام قد ملأ الكون، كما ملأ جوانب نفسي، فغشيني ذهول عميق، وانطلق لساني يقول:

أيها الراحل المودّع!!

لقد كانت لنا آمال، صببناها على قدميك يوم خرجنا لاستقبالك، وكنا كلما انقضى من عمرك يوم ولم تتحقق ارتقبنا بها يوماً آخر، وهذا يوم لا آخر له، فأخبرنا عن آمالنا، ماذا صنعت بها؟ أدُستَ عليها فحطّمتها وقطعت طريقك على رفاتها؟

وبعد يا أيها الراحل المودَّع!

أنبئنا ماذا يحمل هذا القادم المسلّم؟ هل يحمل إلينا تحقيق الآمال وبلوغ الأماني؟ أم يحمل الشقاء والخراب والفقر والآلام والدموع والدماء، كإخوانه الـ... عشرة، التي مرت على سورية؟

انظر ماذا خلّفت فينا، انظر إلى مدينتنا، لقد جعلتها ـ في ظل المتمدّنين ـ أطلالاً وخرائب، لقد جعلت أهلها فقراء بائسين... انظر هذه هي خرائب الدرويشية والميدان، وهذه قلاع المزّة وقاسيون..

ولكن لا بأس أيها العام لا بأس، إن أرضاً تُسقى بـ (الماء الأحمر!) لا بد أن تنبت (الحرية الحمراء)... وإننا لن نيأس أبداً.

❁ ❁ ❁

وأفقت من ذهولي، وكان وهن من الليل، وكانت اللحظة الأخيرة من العام الراحل، فأرسلت في فضاء الله الواسع زفرة طويلة، ثم رفعت رأسي شطر السماء وقلت:

ـ سبحانك لا إله إلا أنت... هذا قضاؤك يا الله!!

وتبدّدت اللحظة الأخيرة من العام، تبدُّد الحروف الأخيرة من مقالتي، ولم يبقَ في الوجود، إلاّ.... اسم الله.

بسم الله نستأنف العمل، والله المستعان!![1]

المدارس اليوم

كانت المدارس كالبئر، ضيّقة الفوهة، ولكنها عميقة القرار، فصارت كالبركة الضحلة واسعة الرقعة، لكنها قليلة العمق[2].

من أسباب ضعف الطلاب

... شيء آخر لعله من أسباب ضعف الطلاب في الدروس كلها وفي العربية على التخصيص، أخشى إن قلت الحق فيه أن أغضب ناساً ما لي إلى إغضابهم رغبة، هو أن الاهتمام بالشيء بمقدار الحاجة إليه، وتُعرف

---

(١) هتاف المجد / ص ١٥٩ ـ ١٦٢.

(٢) ذكريات الشيخ : علي الطنطاوي (جـ١) / ص ١١٤.

الحاجة إليه بمقدار الخسارة في فقده، ونحن نحتاج إلى من يعلّم أولادنا، ومن يداوي مرضانا، ومن يضمن إقامة العدل فينا، ويؤدب الجانحين والمجرمين منا.

ونحتاج قبل ذلك إلى من يدلنا على طريق النجاة في آخرتنا، والوصول إلى رضى ربنا فهل إدخال الكرة في شبكة في الملعب أهم من هذا كله؟ هذا هو السؤال، فلا تغضبوا إن أنا سألتُكم، فما أريد إلا أن أتعلم، فلماذا نهتم بهذا اللاعب أكثر من اهتمامنا بالطبيب وبالمدرس، وبالأستاذ وبالواعظ؟ وكيف نرغّب الطلاب في القواعد والإملاء، وهم يرون هؤلاء ينالون من التكريم أكثر مما يناله الخليل والمبرد وأئمّة اللغة أجمعين، لو بعثهم الله القادر على كل شيء من قبورهم فمشوا بيننا وعاشوا معنا؟ وأنا لا أقول لكم اتركوا العناية بالرياضة، فإنها من القوة التي أمر الإسلام بإعدادها، والقوة زينة الرجال، قوة العلم وقوة الجسم وقوة الإيمان، ولكن الذي أقوله لكم أن لا تدفعوا ثلاثمئة ريال مثلاً في بضاعة مهما غلَت لا تساوي إلاّ خمسة عشر ريالاً[1].

لماذا نضيق بالزمان؟

أنا أفكر من قديم في أمر نراه دائماً ولا أعرف له تعليلاً: لماذا يضيق أحدنا بالزمان إذا لم يجد ما يقطعه به؟ لماذا تثقل عليه ساعات الفراغ؟، لماذا يملّ الانتظار؟ لماذا يكره أحدنا أن يخلو بنفسه؟ هل نفسي عدو لي أشتغل عنه دائماً بقراءة كتاب، أو حديث مع إنسان أو استغراق في عمل؟ إن أيام عمري هي رأس مالي، فلماذا أقطع عمري بما يشغلني عن مراقبته والتفكير فيه؟.

لقد وجدت الجواب، إنه ضعف الإيمان، ولو كنت فيما ينبغي أن أكون لأنست في خلوتي بالله ولم أضق بالوحدة ولا كرهتها، ولما أضعت لحظة من حياتي التي سيسألني الله عنها في غير ما ينفعني عنده يوم العرض

(١) ذكريات الشيخ : علي الطنطاوي (جـ٨) / ص ٣٣٥.

عليه، ولكن يا أسفى! ما عندي إلاّ الكلام، ورجاء العفو من الله[1].

يا بنات

المجتمعات يا بنات ظالمات، تسامح الشباب، تقول: (شاب أذنب وتاب) ولا تسامحِ الفتيات، إنها تغفر له زلّته وتنسى حوبته، ويبقى أثر الزلة في البنت، ثقلاً في بطنها، ووصمة على جبينها، لا تفارقها حتى تفارق حياتها.

إن الذين يزيّنون لكِ السفور والحسور، والعمل مع الرجال، وكشف الجسد بحجّة الرياضة أو الفن أو الكشف الطبي بلا ضرورة، أو الخلوة بالأجنبي بلا داع، إنهم لا يريدون رياضة ولا فنّاً ولا شيئاً مما يدّعونه، ما يريدون إلاّ أن تكشفي عن جسدِك، ليستمتعوا بجمالِك، ولو بالنظر أو باللمس، إن لم يقدروا على أكثر من ذلك، فلا تكوني عوناً لهم على نفسِك، ولا تمتّعيهم بشيء منه، إلاّ أن تربطي أحدهم من عنقه برباط الزواج، وإلاّ أخذ منكِ أعزّ ما لديكِ وهرب.

إن حب الشاب يا بنتي (خطف) لذة دقائق، يخطفها ويهرب خفيفاً، وحب الفتاة (بقاء) أثر هذه اللذة تسعة أشهر، ثم القيام عليها طول العمر، يلبس لكِ جلد الحمَل، يلقي عليكِ مثل هديل الحمام، يذلّ لكِ، يطمعكِ ويعدكِ، فإذا نال الذي يريده منكِ، نزع جلد الحمَل فبدا الذئب، وسكت هديل الحمام وسُمع فحيح الحيّة ونعيق الغراب، ثم أعرض عنكِ، وتعالى عليكِ، وأنكركِ وأنكر ولده منكِ، ثم تركَكِ مع ألمكِ وندمكِ وذهب يفتّش عن حمقاء أخرى، يعيد معها المسرحية من أولها.

إن أكثر مَن عرفنا من دعاة التكشّف والاختلاط ما لهم زوجات، ولا أولاد، وأنا رجل لي بنات ولي حفيدات ولحفيداتي أولاد، فأنا أنصحكنّ

---

(١) ذكريات الشيخ : علي الطنطاوي (ج٣) / ص ٨٣.

وأدافع عنكنّ كما أنصح بناتي وأدافع عن حفيداتي[1].

يا بنتي

. . . تشتركان في لذة ساعة، ثم ينسى هو، وتظلّين أنتِ أبداً تتجرّعين غصصها، يمضي (خفيفاً) يفتّش عن مغفّلة أخرى يسرق منها عِرضها، وينوء بكِ[2] أنتِ (ثقل) الحمل في بطنك، والهمّ في نفسكِ، والوصمة على جبينِك، يغفر له هذا المجتمع الظالم، ويقول: شاب ضل ثم تاب، وتبقين أنتِ في حمأة الخزي والعار طول الحياة، لا يغفر لكِ المجتمع أبداً.

ولو أنكِ إذ لقيتِه نصبتِ له صدرك، وزويت عنه بصرك وأَريته الحزم والإعراض. . . فإذا لم يصرفه عنك هذا الصد، وإذا بلغت به الوقاحة أن ينال منكِ بلسان أو يد، نزعتِ حذاءكِ من رجلك، ونزلتِ به على رأسه، ـ لو أنكِ فعلتِ هذا لرأيت من كل من يمر في الطريق عوناً لكِ عليه، ولما جرؤ بعدها فاجر على ذات سوار، ولجاءكِ (إن كان صالحاً) تائباً مستغفراً يسأل الصلة بالحلال، جاءك يطلب الزواج.

❋ ❋ ❋

إن الديكين إذا اجتمعا على الدجاجة اقتتلا غيرةً عليها وذوداً عنها، وعلى الشواطئ في الإسكندرية وبيروت رجال مسلمون، لا يغارون على نسائهم المسلمات أن يراهُنَّ الأجنبي، لا أن يرى وجوههنّ. . . ولا أكفّهنّ. . . ولا نحورهنَّ، بل كل شيء فيهنّ! كل شيء إلا الشيء الذي يقبح مرآه، ويجمل ستره، وهو حلقتا العورتين، وحلمتا الثديين. . . وفي النوادي والسهرات (التقدمية) الراقية، رجال مسلمون يقدمون نساءهم المسلمات للأجنبي ليراقصهنّ، يضمّهنّ حتى يلامس الصدر الصدر، والبطن البطن، والفم الخد، والذراع ملتوية على الجسد، ولا ينكر ذلك أحد، وفي الجامعات المسلمة

---

(١) ذكريات الشيخ : علي الطنطاوي (ج٢) / ص ٨٣ ـ ٨٤.

(٢) هذا هو التعبير الأصح : قال تعالى : ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ﴾.

شباب مسلمون يجالسون بنات مسلمات متكشّفات باديات العورات، ولا ينكر ذلك الآباء المسلمون ولا الأمهات المسلمات، وأمثال هذا.

❁ ❁ ❁

وإن دعاة المساواة والاختلاط باسم المدنية قوم كذابون من جهتين: كذابون لأنهم ما أرادوا بذلك كله إلا إمتاع جوارحهم، وإرضاء ميولهم، وإعطاء نفوسهم حظّها من لذة النظر، وما يأملون به من لذائذ أُخَر، ولكنهم لم يجدوا الجرأة على التصريح به، فلبّسوه بهذا الذي يهرفون به، بهذه الألفاظ الطنانة، التي ليس وراءها شيء: التقدمية، والتمدّن، والحياة الجامعية، وهذا الكلام الفارغ (على دويّه) من المعنى فكأنه الطبل.

وكذابون لأن أوروبا التي يأتمّون بها، ويهتدون بهديها، ولا يعرفون الحق إلا بدمغتها عليه، فليس الحق عندهم الذي يقابَل بالباطل، ولكن الحق ما جاء من هناك: من باريس ولندن وبرلين ونيويورك، ولو كان الرقص والخلاعة والاختلاط في الجامعة، والتكشّف في الملعب والعري على الساحل[1]، والباطل ما جاء من هنا: من الأزهر والأموي وهاتيك المدارس الشرقية والمساجد الإسلامية، ولو كان الشرف والهدى والعفاف والطهارة، وطهارة القلب وطهارة الجسد.

إن في أوروبا وفي أميركا كما قرأنا وحدثنا من ذهب إليهما، أسراً كثيرة لا ترضى بهذا الاختلاط ولا تستسيغه، وإن في باريس، في باريس يا ناس!! آباء وأمهات لا يسمحون لبناتهم الكبيرات أن يسرن مع شاب، أو يصحَبْنَه إلى السينما، بل هم لا يدخلونهن إلا إلى روايات عرفوها، وأيقنوا بسلامتها من الفحش والفجور، اللذين لا يخلو منهما مع الأسف واحد من هذه (التهريجات) والصبيانيات السخيفة التي تسميها شركات مصر الهزيلة الرقيعة الجاهلة بالفن السينمائي مثل جهلها بالدين، تسميها أفلاماً![2].

---

(١) ومن هنالك أيضاً جاءت دولة إسرائيل.

(٢) صور وخواطر / ص ١٥٠ ـ ١٥٤.

يا أيتها المرأة

إن المجتمع يغفر للرجل زلّته، ويقبل توبته، ولا يغفر للمرأة أبداً، فيكون الغنم (إن كان غنم) لهما معاً، والغرم عليها وحدها، لذلك كان على المرأة إن فكر الرجل مرة قبل أن يقدم على (ذلك الأمر) أن تفكر هي عشر مرات[١].

دعاة تحرير المرأة

إن أكثر هؤلاء الأشرار (من أمثال توفيق الحكيم) عُزّاب غير متزوجين ليس لهم ولد يخافون عليه الفساد، ولا بنت يخشون على عفافها الضياع، فهم لذلك يفتحون علينا في صحفهم ومجلاّتهم وكتبهم، باباً بعد باب، للاختلاط والفجور والبغاء المقنّع، يخترعون كل يوم اسماً جديداً، فمن (الحرية الفكرية) إلى (الحياة الفنية) إلى (الروح الرياضية) إلى (النهضة النسائية) والمسمى واحد والغاية واحدة، وهي أن يستمتعوا المتعة المحرمة ببناتنا، بالنظر إلى محاسنهنّ في الطريق، والاختلاط بهنَّ في المعهد، ورؤية المستور من أعضائهنَّ في الملعب، وتقصّي العيون الفاجرة كل موضع من أجسامهنّ على الشاطئ، وما يتبع النظرة من الابتسام، وما بعد الابتسام من الكلام، ثم الموعد واللقاء، ثم... ما نعرف وتعرفونه! غاية طبيعية لا بد من بلوغها، ومن أنكر ذلك لم يكن إلاّ أحمق مجنوناً، أو كذاباً ملعوناً، يُظهر غير ما يُبطن، ويقول غير ما يعتقد.

❁ ❁ ❁

أتبلغ الوقاحة باللص أن يأتي ليسرق عرض ابنتي نهاراً جهاراً، ولا يحق لي أن أحصنها منه بالحجاب الشرعي، وبالتربية الإسلامية، وأن أدافع عن نفسي بالفكر والقلم واللسان؟

إننا في أنظارهم (رجعيّون) و (جامدون) و (متعصّبون) لأننا لم نقُل

---

(١) رجال من التاريخ / ص ٢٥٩.

لهم: تفضّلوا انتقوا من تشاؤون من بناتنا، لتصاحبوها في السينمات وتراقصوها في السهرات..[1].

سؤال..

أوليس من العجيب أنك تدخل في القاهرة السينما التي تعرض الفيلم الأفرنجي فترى له فكرة وموضوعاً وهدفاً، وربما رأيت فيها الفيلم العلمي أو التاريخي الذي يمر كله فلا تسمع فيه كلمة غرام، ولا ترى فيه قُبلة، وتدخل لترى الأفلام العربية فتجدها كلها إلا النادر منها، سخيفة النسج، مضطربة الموضوع، عمادها العري والخلاعة والتخنّث ورقص البطن؟

أوليس أعجب منه أن تكون المجلات الإفرنجية أعف في الجملة من مجلاّتنا التي لا يخلو أكثرها من صور الأفخاذ والسيقان والبطون والنهود، تسابقت في ذلك حتى بلغت الوقاحة ببعضها أن نشرت صور نساء عاريات لا يسترهنّ قليل ولا كثير؟![2]

المشكلة الكبرى

آلاف مؤلفة من الشبان يبيتون مسهدين ينتظرون أزواجهم اللائي خَلقهنّ الله لهم، وألاف مؤلفة من الشابات يَبِتْنَ الليل مؤرقات ينتظرنَ أزواجهن الذين برأهم الله لهنّ، والذراري تطل من شرفة الغيب ترقب تعارف أبويها، لتأخذ بإذن الله، طريقها إلى عالم الوجود، فيكون منها عباد لله صالحون، وجنود للوطن مخلصون، وأنصار للحق ثابتون.

ثم إذا قدّر الله وكان زواج، كان الزواج (أكثر ما يكون) همّاً ونكداً وخلافاً مستمراً، وآض البيت من بعده جحيماً محرقاً، وسجناً مظلماً، ونشأ الأولاد على غير تهذيب، ومن غير أخلاق ولا دين...

---

(١) صور وخواطر / ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧.

(٢) هتاف المجد / ص ١٩١.

هذه هي صورة المشكلة: انتظار أليم يسلم إلى الجنون أو إلى الفسوق أو إلى اليأس، ونقص في الأولاد، وضعف في الأمة، وخراب للبيوت، وضياع للأسر، وفقد للسعادة..[1].

بين الزوجين

تقولون: كيف نصنع ليسود البيت السلام ويشمله الهدوء؟

أنا أقول لكم مقالة مجرب حكيم، فاستفيدوا إن شئتم من حكمتي وتجربتي:

هذه أقراص سهلة البلع، عظيمة النفع، فيها شفاؤكم من هذا الداء:

أولها: أن الزواج يبدأ بالحب والعاطفة، والحب أوله حلاوة وآخره مرارة، فهو يعمي البصر، ويصم الأذن، ويغطي العيوب، فإذا زال الغطاء ـ ولا بد يوماً أن يزول الغطاء ـ وبدا المحجوب من العيوب، وظهر المستور من الأمور، وافتقد الزوجان لذة الحب فلم يجداها، انتهى شهر العسل، وبدأت سنوات العلقم، فتجرعا العمر كله مرّها، والدواء ألاّ يرقب الزوجان المحبة والعشق، فالحب عمره كعمر الورد، لا يعيش إلا أمداً قصيراً، ومن طلبه بعد عشر سنين من الزواج كان كمن يطلب من وسط القبر من العظام والرمم الغادة الحسناء والفاتنة الهيفاء، لا، ولكن مودّة وإخلاص وحب كحب الأصدقاء والإخوان.

وثانيها: أن الرجل يغتفر لصديقه ما لا يغتفر لزوجته، ويحمل منه ما لا يحمل منها، ويتسامح معه فيما لا يتسامح فيه معها، وما ذلك إلا لأنه يصدق هذه الخرافة التي تقول إن الرجل والمرأة كليهما مخلوق واحد، فهو يريد منها أن تفكر برأسه، وهي تريد منه أن يحس بقلبها، مع أن الناس كخطوط مستقيمة وفيها اعوجاج يسير، فإذا كانت متباعدة بدت للعين متوازية متوافقة تضيع من البعد هذه الفوارق الصغيرة بينها، فإذا تدانت

(١) في سبيل الإصلاح / ص ١٧٢.

وتقاربت، بانت الفجوات، فأنت تصحب الصديق عشرين سنة، فلا ترى بينك وبينه اختلافاً، ثم ترافقه أسبوعاً في سفر، تنام معه وتأكل وتشرب فترى في هذا الأسبوع ما لم تره في السنين العشرين، فتشنؤه وتبغضه وقد كنتَ تحبه وتؤثره.

والله لم يخلق اثنين بطباع واحدة، لا الصديقين ولا الزوجين، فليكن الزوجان متباعدين قليلاً، حتى لا يظهر الاختلاف بينهما، وليكن بينهما شيء من الكلفة والرسميات... كما يكون في عهد الخطبة وأوائل الزواج، ولتكتم عنه بعض ما في نفسها، فإنه ما تكاشف اثنان إلا اختلفا، وما زالت الكلفة إلا زالت معها الألفة، لأن المرء يتظرف ليظرف، ويتلطف ليلطف، ويساير الناس ليحبه الناس، فإن لم يفعل ثقل عليهم، وأنا أعرف رجالاً من أهل النكتة والظرف، يحرص الناس عليهم في مجالسهم؛ لخفة أرواحهم، وحلاوة أحاديثهم؛ إذا دخلوا بيوتهم كانوا أجهم الناس وجهاً، وأيبسهم لساناً، وأثقلهم نفساً، وما ذاك إلا لإسقاط الكلفة، وإذهاب المجاملة.

وثالثها: أن الرجل يمشي في الطريق فلا يرى إلا نساء في أحسن حالاتهنّ قد طلينَ وجوههنّ، وجمّلن ثيابهنَّ، ثم يدخل داره فيرى زوجته على شر هيئة، وأقبح صورة: مصفرة الوجه، قذرة الثوب، منغمسة في أوضار المطبخ أو غارقة في غبار الكنس، فيظن أن نساء الطريق من طينة غير طينتها، وأن عندهن ما ليس عندها، فيميل إليهن وينصرف عنها، والدواء أن تكون المرأة عاقلة، فلا تجعله يراها إلا في الهيئة التي تخرج فيها من بيتها، وتستقبل عليها ضيفها، ولا تدعه يبصرها نائمة[1] ولا يراها بغير زينة، ولا يطلع عليها في مباذلها وأعمالها.

ورابعها: أنه لا بد لكل شركة أو جماعة من رئيس، فإن كان في المركب رئيسان غرق المركب، ولو كان في السماء والأرض فلا بد من

---

(١) وجدت هنا لما جئت المملكة ودرست في جامعاتها وجدته في بعض كتب الفقه الحنبلي، ولعلّه كتاب (الإنصاف) فعجبت من بُعد نظر مؤلفه، ومعرفته بأسرار النفوس.

ترئيس أحد الزوجين والرجوع عند الاختلاف إلى رأيه، واعتراف الثاني برياسته، وعلى الرئيس بعد أن يكون حاكماً بعدل ورفق، وعلى المرؤوس أن يكون مطيعاً بفهم واحترام.

وخامسها: أنه لا بد لدوام المودة من اغتنام الفرصة لإظهار العاطفة المكنونة بحديث حلو، أو مفاجأة منه: هدية ولو صغرت، وطرفة ولو قلّت، واهتمام منها بصحته وراحة نفسه ومطعمه وملبسه وكتبه، وأن يصبر كل منهما على غضب الآخر وتعتبه[١].

تسعة من عشرة

يا سادة، إن مشكلات البيت هيّنة سخيفة، ولكنها إن استفحلت نغّصت العيش وسوّدت وجه الدنيا، ولم ينفع معها ملك ولا مال، فلقد كان الإمبراطور نابليون الثالث يجد من مكارهها ما لم ينجّه منها مُلكه، وكان الرئيس لنكولن يلقى من متاعبها ما لم يخلّصه منه سلطانه، وإني لأستأذن السيدات المستمعات بأن أختم هذا الحديث بكلمة لامرأة مثلهن هي (آن شرر) قالت:

«إن بين كل عشر نساء تسعاً يحرصن على مضايقة الرجل، وتنكيد عيشه ولهن إلى ذلك وسائل لا تُحصى، وهن يعتقدن أنه لا عمل للرجل إلا الثناء على جمالهنّ يومه كله، وامتثال أوامرهن، وإجابة رغباتهن، وإذا رأينه مقبلاً على قراءة أو كتابة أو عمل له، اقتحمن عليه مكتبه، ونفضن في وجهه من المنغصات ما يحيل عزلته سجناً، وحياته جحيماً».

فيا سيداتي المستمعات؛ أرجو أن لا تكون فيكن واحدة من هؤلاء![٢].

سلاح المرأة

لا تزال المرأة غالبة ما حاربت بالأنوثة، فإن زهدت فيها وحاولت أن

---

(١) في سبيل الإصلاح / ص ٢٠١ ـ ٢٠٢.
(٢) في سبيل الإصلاح / ص ٢٠٢.

تجاري الرجل في ميدانه وتسابقه في حلبته وتقاتله بسلاحه اصطكّت ركبتاها وكلّت قدماها وعجزت يداها، وسقطت[١].

الزوجة الثانية

. . .بِمَ تعالج مشكلة زيادة النساء في ألمانيا وأمثالها إلا بهذا؟

إذا كانت الطبيعة التي طبع الله الناس عليها توجب أن يجتمع النوعان، ما من اجتماعهما بُد، ولم يكن إلا خمسون رجلاً، ومائة امرأة، فهل ثمّة إلا أن يكون لكل امرأتين رجل؟

أوليست هذه فطرة الله في أنواع الحيوان كلها؟ كم نسبة الذكور إلى الإناث، في النحل وفي الدجاج؟

أوَلم يتخذ الزوج الغربي أربعاً أو أكثر من أربع ولكن بالحرام؟

أترضون بالثانية خليلة بعقد إبليس، ولا ترضون بها حليلة بعقد الله؟[٢].

السن المناسبة للزواج

قد قلت لكم إن الله وضع في نفس الإنسان غريزتين: غريزة حفظ الذوات التي تدفع إلى الأكل، وغريزة حفظ النوع التي يكون بها النسل، وما يصح في إحداها يصح في الأخرى، فخبّروني متى يأكل الإنسان أخبركم متى يتزوّج!

ـ متى يأكل؟

ـ تقولون: عندما يجوع.

ـ فليتزوج إذن عندما (يشتهي)، أي عندما يبلغ مبلغ الرجال، أعني في الثامنة عشرة من العمر.

ـ تقولون: وإذا لم يجد أسباب الزواج مجتمعة له، وهو في هذه السنّ فماذا يصنع؟

---

(١) قصص من الحياة / ص ٢٠٠.

(٢) مع الناس / ص ١٢٩.

ـ فأقول: يصنع ما يصنعه الجائع الذي لا يجد الطعام، يصبّر نفسه حتى يجد الطعام.

ـ تقولون: فإذا لم يستطع الجائع أن ينتظر، ورأى الطعام أمامه فسرقه وأكله، وارتكب في سبيله الجرائم، فماذا نصنع نحن؟

ـ فأقول: إن على المجتمع أن يمهد لكل جائع سبيل الوصول إلى الطعام، لئلاّ يسرق أو يُجرم، فإن منعه من الأكل مانع اضطراري وخيف منه السرقة وجب أن يحفظ الناس أموالهم منه.

فهو من جهة محق لأن المجتمع حرمه الطعام وهو حق له، وهو من جهة مبطل لأنه أخذ ما ليس له.

وهذا هو القول في الزواج:

الوقت الطبيعي للزواج هو وقت البلوغ، ولكن الشاب يكون في هذه السن في المدرسة، لا مورد له ولا مال في يده، ويستمر في الدراسة إلى سن خمس وعشرين على الأقل، أي أن الظروف الاجتماعية التي اصطلح الناس عليها جاءت مصادمة ومناقضة لطبائع النفوس وحقائق الأشياء، فماذا نصنع؟ ماذا يصنع الشاب وهو مضطر أن يمضي هذه السنين العشر بلا زواج، مع أن هذه السنين العشر هي أشد سني العمر شدة في الشهوة وإحساساً بها؟

إن الله وضع بين جنبيه ناراً متقدة إن لم يطفئها بالزواج أحرقت بالألم نفسه، أو أحرقت بالزنا بيوت الناس، وهاهنا تستقر المشكلة وهذا ما يجب أن يكون فيه البحث.

وإن من أسهل السهل على من يكتب في هذا الموضوع أن يستلقي على كرسيه، ويأخذ نفساً عميقاً من دخينته ويقول ببطء وتمهّل:

ـ إن رأيي أن سن الزواج المناسبة هي الثلاثون..

هذا رأيك ولكن هذا لا يحل المشكلة..

إن الكلام بالمجّان، والحاكم الذي ينطق بحكم الإعدام لا يكلّفه ذلك من التعب إلا أن يفتح فمه ويحرك لسانه، ولكن المصيبة إنما تقع على رأس المحكوم عليه، والمحكوم عليه هنا هو الشاب... والشابة أيضاً.

وإذا كانت طبيعة الشاب وغريزة نفسه توقظ في نفسه الجوع الجنسي في سن الخامسة عشرة، وأخونا المفكر المحترم يحكم عليه بألاّ يتزوج إلا في سن الثلاثين، فماذا يعمل في هذه الخمس عشرة سنة؟

لا سيما وأن هذا المجتمع الذي يمنعه من الزواج فيها لا يترك وسيلة لزيادة هذه النار اشتعالاً في نفسه إلا عمد إليها، وكلما نسي المسكين هذه الشهوة ذكّرناه بها، بالصور العارية، والأفلام الخليعة، والعورات البادية، والاختلاط المتفشي، إن مشى في الطريق وجد المغريات، وإن دخل الكلية وجد المغريات، وهو يجد المغريات في كل مكان، ونحن نوجب عليه أن يحمل ذلك العبء خمس عشرة سنة، ونقول له بعد ذلك انصرف إلى دروسك، وإلى مطالعاتك، وإياك أن تفكر في الفاحشة أو تقترب منها.

أقسم بالله أن من يحكم عليه بالسجن خمس عشرة سنة ليس أشد حالاً من الشاب الذي تكلّفه بهذا كله.

فما العمل؟

العمل أن نعود إلى الطبيعة ونتبع حكم الفطرة، فإنه لا يستطيع بشر أن يحارب فطرة الناس وطبيعة الأشياء، وأن نرجع إلى عادة أجدادنا فنزوج الشاب في الثامنة عشرة، والبنت في السادسة عشرة، فإن لم يمكن فلا أقل من أن نربي أولادنا على خوف الله، وعلى متانة الخلق، وأن ننظف مجتمعنا من كل ما يذكر الشاب (الذي اضطررناه إلى العزوبة الجبرية) بما نسي من شهوته، وأن نمنع منعاً باتاً كل ما يغريه بالمعصية ويسوقه إليها، وأن يحمي الآباء بناتهم من أن يسرق أحد أعراضهنّ كما يحمون أموالهم من اللصوص أن تمتد أيديهم إليها[1].

---

(١) مع الناس / ٢٠٣ ـ ٢٠٥.

نساؤنا

ليس في الدنيا نساء خيراً من نسائنا، ما تمسّكنَ بحجابهنّ، وحافظنَ على آدابهنّ، وتقيدنَ بأخلاق العرب، وأحكام الإسلام، وأعراف ذلك المجتمع الفاضل الذي أخرج عائشة وأسماء والخنساء وخولة ورابعة ومئات من المربيات الفضليات، والعالمات الأديبات، والأمهات الدّينات الصّيّنات اللائي وَلَدْنَ أولئك الرجال، الذين كانوا فرسان الميادين، وكانوا هم فرسان المنابر، وكانوا هم أبطال الفكر، وكانوا هم ملوك المال، وكانوا سادة الدنيا، وكُنتنَّ أنتنَّ أمهات أولئك السّادة(١).

الإنسان والطبيعة

أقول إن الإنسان هو الذي يمنح الطبيعة الحزن والسرور، فيراها ضاحكة مستبشرة، إذا كان هو الضاحك المستبشر، ويراها كامدة مظلمة، إذا كان مظلم النفس خاثرها، وأكاد أومن برأي هذا المجنون الإنجليزي بركلي ـ ولاتغضبك كلمة المجنون فلقد عنيت بها العبقري ـ ذاك الذي يقول: الدنيا صحيفة بيضاء كصحيفة السينما، لا شيء فيها وإنما تسقط الصور إليها من الصندوق، وما صندوق الحياة إلا رأسي ورأسك، ورؤوس إخواننا أعضاء المجمع الأدبي، وإننا قادرون بعون الله الذي جعلنا أدباء (أو أنصاف أُدباء، لا بأس) على أن نرى الدنيا على غير ما خلقها الله، ونأخذ كل شيء مقلوباً، ونخترع أشياء ما وُجِدت كالحب العذري، ولا أثر لمدلولاتها إلا في رؤوسنا الطاهرة وصفحات الكتب(٢).

الرذيلة

أكثر ما تعيش الرذيلة راسبة في القعر أو طافية على الوجه، فلا تراها إلا في أسفل السلم الاجتماعي أو في أعلاه، أما الأوساط فهم الأخيار وهم الصالحون(٣)...

---

(١) مع الناس / ص ١٣٠.
(٢) من حديث النفس / ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦.
(٣) قصص من التاريخ / ص ٧٢.

الغني والفقير

إن الفقير الذي ينام في كوخ الطين، ويأكل خبز الشعير، ويمشي بالحذاء البالي، أو يركب عربة النقل التي يجرّها الحمار، يتصور أنه لو نام يوماً على فراش الغني، أو أكل على مائدته، أو ركب في سيارته، لنال اللذائذ كلها، ولكن الغني الذي أَلِفَ ذلك لم يعد يجد فيه لذة، بل يجد الألم إن فقد منه شيئاً[1].

الجذر التكعيبي

.. أشهد أني جزتُ الأربعين من عمري، ورأيت أياماً سوداً ولقيت شدائد ثقالاً، وسلكت البوادي المقفرة، وركبت البحار الهائجة، وعلوت متون السحب، فما رأيت في البر، ولا في البحر، ولا في الجو، شيئاً أشد ولا أصعب من هذا الجذر التكعيبي[2].

كل شيء للناس

من عادتي أني لا أركب إذا استطعت المشي، ولا أمشي في الظل إن قدرت أن أمشي في الشمس، سواء عليَّ في ذلك شمس لبنان في تشرين، وشمس الهند في تموز، وكان النهار أمس صائفاً حاراً، فحللت هذا الرباط من عنقي وطويته ووضعته في جيبي[3] فمرّ بي صديق أحبه وأحترمه، ولكني أنكر عليه أنه يتمسّك بالعادات أكثر من تمسك العابد بالدين، ويحرص على رضا الناس، أشد من حرص الزاهد على رضا الله، فلم يكد يفرغ من السلام حتى أقبل عليَّ صارم الوجه، بادي الاهتمام، فقال: وكيف تصنع هذا؟ فارتعبت وقلت:

ـ وماذا صنعت؟.

---

(١) صور وخواطر / ص ٦ ـ ٧.

(٢) من حديث النفس / ص ١٢٥ ـ ١٢٦.

(٣) الجيب في اللغة فتحة القميص، ولكني استعملتها بالمعنى المشهور الذي يفهمه القراء.

وجعلت أذكر هل أحدثت في الإسلام حدثاً؟ أو آويت محدثاً؟ أو جنيت جناية؟ فلما لم أذكر قلت: أوضِح يا أخي، وقل لي ما الذي بلغك عني فلعل الذي بلّغك فاسق أو كاذب؟

ـ قال: ما بلّغني أحد ولكني أرى بعيني، وأشار إليّ.

قلت: وما ذاك؟

ـ قال: العقدة (الكرافات) كيف تمشي بلا عقدة؟ هذا لا يليق بمستشار[1]، ماذا يقول عنك الناس؟

فتركت الحوار وقعدتُ أفكر.. فإذا نحن نعمل كل شيء للناس، نخنق أنفسنا بهذه العُقَد التي نضعها في أعناقنا كالأرسان، ونتكلّف منها في حر الصيف ما لا يُطاق من أجل الناس.

والنساء يتّخذن هذه الأحذية الفظيعة ذوات الكعوب العالية، مع أن المشي بها أصعب من المشي على الحبل، ومن لم يصدق من الرجال فليمشِ مائة خطوة على رؤوس أصابع قدميه، وهي فوق ذلك تصلب عضلات الساق وتشوه جمالها، وما للبسها معنى، وليس فيها جمال، ولكن هكذا يريد الناس.

ورأيت مرة امرأة واقفة في الترام، والمقاعد خالية، وكلما دعوها لتجلس أبت، ثم تبيّن لي أنها تلبس إزاراً (خراطة أو جونيلا) ضيقاً عجيباً لا تستطيع معه المشي إلا كمشي المقيد بالحديد، ولا تستطيع صعود درجة الترام إلاّ بكشف رجليها وإخراجهما منه، فلذلك لا تستطيع القعود، تتساءلون لماذا تعذب نفسها هذا العذاب؟ والجواب من أجل الناس.

ومن الشبان من يصفف شعر رأسه تصفيفاً فنّياً يشتغل به نصف ساعة، ويبقى النهار كله خائفاً أن تهب نسمة هواء، أو أن تقترب منه يد طائشة في الترام، فتفسد هندسته، وربما أدركته الحكة فاحتمل ألمها طوال

---

(١) وكنت يومئذ مستشاراً في محكمة النقض.

النهار ولم يستطع أن يمد إصبعه فيحكه، لماذا؟ لأجل الناس! وكل خير هو للناس.

المرأة ظرفها ولطفها للناس، تقابل ضيوفها وصديقاتها بالوجه المشرق والفم الباسم، والجرس الناعم، والأدب البالغ، وزوجها ليس له إلا التجهم والنظر الشزر، واللفظ الجافي، وكذلك يصنع الزوج.

وزينتها للناس إذا خرجت تزيّنت للغرباء وتعطّرت وارتدت أجمل أثوابها، وزوجها لا تلقاه إلا منفوشة الشعر، كالحة الوجه، تسبقها روائح السمن والبصل والثوم، وكذلك يصنع الزوج.

والمائدة المرتبة في غرفة الطعام للناس، فإذا جاء الناس صُفت الأطباق والصحون، ونضدت الأوراد والزهور، وإن لم يكن أحد كان الأكل في المطبخ.

وغرفة النوم ذات الأسرّة المرتبة، والأغطية المطرّزة، ليراها الناس، وأصحابها ينامون في غرفة أخرى، فيها أسرّة من حديد، ولحف بلا ملاحف.

نتعب أنفسنا ونقيد أعناقنا وأرجلنا للناس، وكل خير عندنا للناس، وإن أردنا أن نزوج البنت لم ننظر إلى مصلحتها ومصلحة زوجها، ولم نفكر في إسعاد حياته وحياتها، ولكن فكرنا في أيام العرس وحدها، وسعينا لإرضاء الناس فقط.

لا نسأل ـ إلا قليلاً ـ عن أخلاق الرجل وطباعه، بل نسأل عن المهر الذي سيدفعه لنقول للناس: مهر بنتنا عشرة آلاف، وعن الجهاز ليراه الناس فيقولوا: ما شاء الله، والله جهاز عظيم..

وعن حفلة العرس نتسابق لإرضاء الناس بإضاعة الأموال في هذا وأمثاله.

ثوب العرس الذي لا يُلبس إلا ليلة واحدة فقط يكلف مئتي ليرة على

الأقل، وقد يصل إلى ألفين، وعلب الملبَّس ثمن الواحدة ليرة على الأقل، وقد تصل إلى العشرين.

وفيم كل ذلك؟ لفائدة العروس؟ لا والله، للثواب والجنّة؟ لا والله، لكسب المال، لا والله، فلِمَ إذن؟ للناس! والناس بعد ذلك لا يرضون لأنك مهما أنفقت فإن في الناس من ينفق أكثر منك فيقولون: ما هذه الحفلة؟ وما هذه العلب؟ علب فلان كان ثمنها أكثر، وحفلة فلانة كانت أكبر.

والمآتم مثل الأفراح كلها تسابق إلى إضاعة المال.

ويا ليت الأمر يقتصر على أصحاب العرس، أو عائلة الميت، لا، ولكن كل زواج وكل وفاة فيها نكبة ثلاثين أسرة.

يكون الزوج المسكين قد أعد مشروع موازنة الشهر، وسهر الليالي، وضرب الأخماس بالأسداس، حتى استطاع أن يسدد حاجة الأسرة براتبه الذي لا يتجاوز ثلاثمئة ليرة في الشهر، يشد لحافه ليغطي كتفيه، فيكشف عن رجليه، فإذا ستر رجليه انحسر عن كتفيه، وبينما هو في ذلك إذ خطر على بال عمة امرأة خال زوجته أن تموت فجأة[1]، فتجيء الزوجة تطلب حالاً وبلا تأخر وبالسرعة الكلية (على لغة المبايعات الرسمية) أربعين ليرة ثمن ثوب أسود للعصرية.

فيقول: اسمعي يا امرأة إن موازنتنا لا تتحمل.

فتبكي وتعول وتقول: وكيف أذهب إلى عصرية الفقيدة العزيزة المرحومة المأسوف على شبابها عمة زوج خالي بلا ثوب أسود وماذا يقول عني الناس؟

قد تكون هذه العزيزة المأسوف على شبابها بنت تسع وسبعين سنة فقط، وقد تكون منقطعة عن زيارتها من ست سنين، ولكن الحكاية حكاية: ماذا يقول الناس؟

وإذا وُلد مولود لزوجة ابن صديق رئيسك أو معلّمك، فيجب أن

---

(١) والمحيي المميت هو الله.

تقتطع من مرتبك الذي لا يكفي ثمن خبزك لتقدم لها الهدية اللائقة كما يقدم أمثالك، وإلاّ فماذا يقول عنك الناس؟

وإذا كنت مشغولاً بإعداد درسك في المدرسة، أو حساب عملائك في المتجر، أو تمريض بنتك المشرفة على الموت، وإذا كان لديك شغل الذهب، وجاءك فجأة بلا موعد أحد العاطلين المعطلين الفارغين ليقطع الوقت باللت والعجن[1] معك، فلا تقل له: أنا مشغول، إياك وإلا فأنت أعلم بما يقوله عنك الناس.

وإذا كان جارك أو عديلك غنياً يملك الملايين، وكنت أنت مستوراً ليس لك إلا راتبك واشترى لبيته ثريّاً بألف ليرة وبرادة وغسالة وعصّارة كهربائية وفرناً على الغاز وسجادة طولها ثمانية أمتار وعرضها خمسة، فاذهب حالاً فاشترِ مثلها ولو سرقت ونهبت وقطعت الطريق، وإلا أوقعت نفسك في أفواه الناس.

وإذا أقامت زوجة التاجر الفلاني، أو الوارث العلاّني وليمة، دعت إليها امرأتك، وقدمت فيها لحم الطواويس، وألسنة الشحارير، والحلويات المصنوعة في روما، الواردة بالطيارة الخاصة، فيجب أن تعد زوجتك مثل ذلك وإلا تكلّم عنها الناس.

والخلاصة أنه يجب أن يكون قيامك وقعودك وأكلك ولبسك وفرش بيتك ونفقات يومك كما يريد الناس، أن تكون ولو اختنقتَ حساً ومعنى، ولو نُكبت في سعادتك ومالك، ولو احترق نَفَسُك، وإلاّ انتقدك الناس.

الناس! دائماً الناس! فيا أيها الناس! متى نعيش لأنفسنا؟ ومتى نستطيع أن نقف عند حدّ الشرع، وحدّ العقل؟ ومتى يخرج فينا العقلاء الأقوياء الذين يكسرون هذه القيود؟.

أما أنا فوالله ما أبالي هذا كله، ولا أدخلته يوماً في حسابي، ولكن أعظ من شاء أن يتّعظ أن يتّبع دينه أولاً فلا يأتي محرماً، ثم يتبع العقل،

---

(١) اللّت والعجن من العامي الفصيح.

ثم يعمل ما يراه خيراً، ويمد رجليه على قدر لحافه، وينفق النفقة الضرورية ويترك التبذير، ولو كان أغنى الأغنياء، ولا تخشوا قول الناس ما دمتم لم ترتكبوا محرماً ولا ممنوعاً شرعاً.

وهل عند الناس إلاّ أن يقولوا؟! لقد قالوا عن محمد - ﷺ - وهو خاتم الأنبياء: مجنون، وقالوا ساحر، وقالوا كذاب، فليقولوا عنكم ماشاؤوا، ولا تبالوا بسخط الناس، إن كنتم قد أرضيتم الله[1].

الحب

ما أشقى المحبين! يمشون كما يمشي الناس، ويأكلون كما يأكلون، ولكنهم يعيشون في دنيا لا يعرفها الناس ولا يصلون إليها، تضيق الدنيا بالمحب إذا جفاه محبوبه، حتى لَيكاد يختنق فيها على سعتها، ويجد في العش الضيق الذي يلجأ إليه مع محبوبه دنيا واسعة، ويتألّم المحب في اللذائذ إذا لم يذقها معه من يحب.. والطبيعة الجميلة سواد في عين المحب قاتم إذا لم تُنِرها مقلتا المحبوب[2].

في الحب

يستطيع الحب أن يمحو من النفس صورة المجد والجاه، والفضيلة والرذيلة، والطموح والحسد، ولكن لا يمحوه شيء.

الحب أحجيّة الوجود.. ليس في الناس من لم يعرف الحب، وليس فيهم مَن عرف ما هو الحب.

الحب مشكلة العقل التي لا تُحلّ، ولكنه حقيقة القلب الكبرى.. الحب أضعف مخلوق وأقواه، يختبئ في النظرة الخاطفة من العين الفاتنة، وفي الرجفة الخفيفة من الأغنية الشجيّة، وفي البسمة الموضمة من الثغر

---

(١) مع الناس / ص ٤١ ـ ٤٥.

(٢) قصص من التاريخ / ص٦٤.

الجميل.. ثم يظهر للوجود عظيماً جباراً، فيبني الحياة ويهدمها، ويقيم العروش ويثلها، ويفعل في الدنيا الأفاعيل[١]..

هذا هو الحب

الحب أن يعرف الحبيبة قبل أن تقع عليها عينه وتسمع باسمها أذنه، يعرفها في سبحات التأمل في ليالي الوحدة، في ثوران الميل، في أعصاب الشباب، في خفقات القلب للجمال، في تطلّع الفكر للمجهول، في فراغ النفس، في صراخ الأعصاب، في كل فرحة، وفي كل ألم، وكل ذهول، هذا هو الحب الذي لا يعرف طريق الحبيب.

ليس الحب ضمة ولا شمة ولا قُبلة، الحب أن يرى المحبوبة فيحس في نفسه جوعاً سماوياً إليها، رغبة جامحة في أن يفتح قلبه ويضعها فيه ويضمه عليها، الحب أن تفنى هي فيه، وأن يفنى هو فيها، أن لا يفرق بين الحبيبين الزمان ولا المكان ولا الميول ولا الأهواء، فيكون أبداً معها، هواه هواها، وميوله ميولها، ويكون في رأسه صداعها وفي معدته جوعها، وفي قلبه مسرّاتها وأحزانها، وأن تكون له ويكون لها، وأن يدخلا معاً مصنع القدرة الإلهية مرة ثانية ويخرجا وقد صارا إنساناً واحداً في جسمين اثنين، فأين تروي جرعات اللذائذ الحسية هذا الظمأ الروحي؟! إنها كالخل للعطشان، يشربه فيحرق أمعاءه ويزيد ظمأه[٢].

حقيقة الحب

هذا هو الحب، ثوب برّاق تحمله المرأة وتمشي حتى تلقى رجلاً فتخلعه عليه فتراه به أجمل الناس، وتحسب أنه هو الذي كانت تبصر صورته من فُرَج الأحلام، وتراها من ثنايا الأماني.

مصباح في يد الرجل، يوجّهه إلى أول امرأة يلقاها، فيراها مشرقة

---

(١) قصص من التاريخ / ص ٥٨ ـ ٥٩.

(٢) قصص من الحياة / ص٢٠٣ ـ ٢٠٤.

الوجه بين نساء لا تشرق بالنور وجوههنّ، فيحسبها خُلقت من النور وخُلِقنَ من طين، فلا يطلب غيرها، ولا يهيم بسواها، لا يدري أنه هو الذي أضاء محيّاها بمصباح حبه.

خدعة ضخمة من خدع الحياة، خفيت عن المحبّين كلهم من عهد آدم إلى هذا اليوم.

هذي هي حقيقة الحب، فلا تسمع ما يهذي به المحبّون![1].

الحب والجمال

كم قال الشعراء، وكم كتب الكتّاب في (الحب)، فهل أحاطوا بمعاني الحب، هل أدركوا أسرار الجمال؟.

هذه الكلمة المؤلفة من حرفين اثنين: الحاء التي تعبّر عن الحنان، والباء الساكنة التي ترى الفم وهو ينطق بها مجموع الشفتين كأنه متهيّء لقُبلة!

هل تحيط كلمة (الحب) بكل أشكال الحب، الأم تحب ولدها، وهذا يحب من الشعراء البحتري، والثالث يحب من البلاد مكة، والرابع يحب ركوب البحر، والخامس يحب الفول المدمّس بالزيت لا السمن..

.. وقيس يحب ليلى، أفهذا كله (حب) واحد؟ وحب الله الذي هو جوهر الإيمان أترونه يشبه ما ذكرت من أنواع الحب؟.

والجمال؟ جمال الطبيعة، وجمال البلاغة، وجمال الشيخ الوقور، وجمال المرأة الحسناء، هل هو (جمال) واحد؟[2].

الكلام في الحب

من حرّم الكلام في الحب؟ (والله الذي أمال الزهرة على الزهرة حتى تكون الثمرة، وعطف الحمامة على الحمامة حتى تنشأ البيضة، وأدنى الجبل

---

(١) قصص من الحياة / ص ٢٠٥.

(٢) ذكريات الشيخ : علي الطنطاوي (جا) / ص١١٠.

من الجبل حتى يولد الوادي، ولوى الأرض في مسراها على الشمس حتى يتعاقب الليل والنهار، هو الذي ربط بالحب القلب بالقلب حتى يأتي الولد.

ولولا الحب ما التفَّ الغصن على الغصن في الغابة النائية، ولا عطف الظبي على الظبية في الكناس البعيد، ولا حنى الجبل على الرابية الوادعة، ولا أمدَّ الينبوع الجدول الساعي نحو البحر.

ولولا الحب ما بكى الغمام لجدب الأرض، ولا ضحكت الأرض بزهر الربيع، ولا كانت الحياة[1].

ما في الحب شيء، ولا على المحبين سبيل، إنما السبيل على من ينسى في الحب دينه، أو يضيّع خلُقه، أو يهدم رجولته أو يشتري بلذة لحظة في الدنيا عذاب ألف سنة في جهنم، أوَلم يؤلّف ثلاثة من أعلام الإسلام ثلاثة كتب في الحب[2] وهم صاحب الأعلام[3]، ومصنّف المحلّى والإمام ابن الإمام؟.

ويا ليت الشبان يعودون إلى الحب، فتقل هذه الشرور ويخف هذا

---

(١) فقرة من قصة (ابن الحب) من كتابي (قصص من التاريخ).

(٢) الزهرة لابن داود الظاهري، وروضة المحبّين لابن القيم، وطوق الحمامة لابن حزم، الأول طبع أوربة، والثاني طبع المكتبة العربية في دمشق، والثالث طبع مكتبة عرفة في دمشق.

(٣) أعلام الموقعين عن رب العالمين : وهو كتاب جليل فيه علم كثير، وفيه شغب على المذاهب الفقهية المدروسة المحققة، ومثله في ذلك المحلّى لابن حزم، ونحن لا نقول أن كل ما في المذاهب الأربعة معاً يجب اتباعه، ولا تجوز مخالفته، ولكن نقول إن من كان مقلّداً على كل حال فأولى به أن يتّبع مذهباً خدم أكثر من ألف سنة من أن يتّبع فقيهاً منفرداً برأيه أو يتّبع محدثاً غير فقيه، والحديث هو الأصل، ولكن ليس كل محدّث فقيهاً، ولا كل صيدلي طبيباً، ولا كل من وقف على نصوص القوانين يكون قاضياً أو محامياً.

هذا وأنا أعلم أن الاثنين (ابن القيم وابن حزم) من أجلّ العلماء الذين ازدان بهم تاريخ الإسلام، ولكن لكل عالِم هفوة، والعصمة للرسول ﷺ، ولأمته فيما ينعقد عليه (إجماع) مجتهديها.

الفساد، ولكن أنّى يكون الحب مع هذه الشهوات المتسعّرة؟

إنها إذا لم تطمر الفحمة في بطن الأرض دهراً لا تصير ألماساً، وإذا لم تُدفن الشهوة في جوف القلب عمراً لا تكون حباً.

ولكن كيف أكتب عن الحب؟

وهل تسع هذه المقالة حديث الحب؟

هل يوضع القمر في كف غلام؟ هل يُصَب البحر في كأس مُدام؟ وأين لعمري الألفاظ التي أحمّلها معاني الحب؟ أين التعبير الذي يترجم عن العاطفة؟ إن البشر لا يزالون أطفالاً ما تعلّموا الكلام، إنهم خرس يتكلّمون بالإشارات وما هذه اللغات البشرية إلاّ إشارات الخرسان، وإلاّ فأين الألفاظ التي تصف ألوان الغروب، ورجفات الأنغام، وهواجس القلوب؟

❋ ❋ ❋

إن في الأرض اليوم أربعة مليارات من العيون البشرية نصفها في أوجه الأنثيات، ونصف النصف تحت حواجب الغيد الفاتنات، وما فيها عينان هما في شكلهما ووحيهما وأثرهما في النفس كعينين أخريين، ثم إن لكل عين حالات مختلفات لا يحصيها العد، ولغات لو كان يدركها البشر لكان لكل عين قاموس يترجم عنها، كالقاموس المحيط، وما عندنا لهذا كله إلا هذا اللفظ الواحد: جميل، جميل، نكرّره ونعيده..

وكذلك الحب.. الحب عالم من العواطف، ودنيا من الشعور، فيها كل عجيب وغريب، وليس لنا إليه إلا هذه الكوّة الضيقة، الكلمة القصيرة ذات الحرفين: الحاء والباء، الحاء التي تمثل الحنان، والباء التي تجعل الفم وهو ينطق بها كأنه متهيّء لقبلة، كلمة (الحب)، ولكن كم بين حب وحب؟[1]

---

(١) صور وخواطر / ص ٢٠٩ ـ ٢١١.

يا رحمة للعاشقين

يا رحمةً للعاشقين!! حيُّهم بائس، وميّتهم منسي، وحديثهم ضائع.

يا رحمةً للعاشقين! لا يُقام لشهيدهم قبر، وإن أُقيم له لم يقف عليه أحد، ولم يُحفظ له تاريخ[1].

غريزة

إن الله خلق في الإنسان غريزتين، غريزة لبقاء ذاته، وغريزة لبقاء نوعه، فبالأولى يسوقه لذع الجوع إلى ابتغاء الطعام ليدفع بالشبع الموت عن نفسه، وبالثانية يسوقه وقدُ الشهوة إلى الاقتراب من الأنثى، ليمنع بالنسل الانقراض عن جنسه.

وقد يكون الطعام بين يديك في المطعم، وثمنه في جيبك، تفكر فيه فتراه أمامك، ويكون الجنس الآخر في ملكك، ويكون حلالاً لك، قِيدَ طلبك فلا تشغل بتصوره ذهنك ولا تكدّ بانتظاره أعصابك.

وقد يكون الجوع موجوداً، والطعام مفقوداً، فأنت كلما قاسيت مرارة الجوع، ازدادت في تصورك حلاوة الطعام، فإذا طال الأمد، صار لك (كما يقول علماء النفس) فكرة ثابتة، فأنت لا تفكر إلا فيه، ولا تحنّ إلاّ إليه.

وتكون الرغبة الجنسية موجودة، والجنس الآخر مفقوداً، فيكون عندك من التفكير فيه مثل تفكير الجائع بالطعام، لأنه حين يطلبه لا يفكر في لونه ولا في جنسه، والجائع الجنسي قد تستقر رغبته في امرأة بعينها تنحصر دنياه كلها فيها.

إنه يطلب أن ينظر إليها ويحدثها، فهل ترونه يكتفي إن رآها بالنظر، هل تظنّون إن حدّثها قنع بالحديث[2]؟.

---

(١) صور وخواطر / ٣٣.

(٢) انظر تفصيل القول في (الحب) في كتاب (صور وخواطر).

إنه كالجائع، هل يكتفي الجائع أن يرى الطعام ويشمه وينظم في وصفه الأشعار، ويصوغ القوافي؟.

لا يا أولادي، لا والله العظيم، إنه لا يريد جمالها لعينه، ولا حديثها لأذنه، ولكن يريد قِفلها لمفتاحه[1]، إنها غريزة النوع لا يرويها إلا ما يتم به النسل[2].

مع العشاق

سلوا الشعراء يحلفوا لكم، إنهم لا يطلبون إلاّ نظرة تروي الغليل، وبسمة تطفي الجوى، وأن يندمج بها، ويفنى فيها، فهو يعانقها (والنفس بعد مشوقة) إليها، ويضمها وهو يحس أنه لا يزال بعيداً عنها، وهو لو استطاع لعصَرها مصاً ولأكلها عضاً...

يمضي عمره بعيداً عنها خالياً قلبه من حبها، لا يدري بوجودها، ثم يراها مرة واحدة، ينظر إليها نظرة، فيحسب أنه قد عرفها من الأزل، وأنه لم يفارقها ساعة، ويقسم أنها ما خُلِقت إلاّ له، ولم يُخلق إلا لها، ولا يعيش إلا لها وبها، فهما روح في جسدين[3] هي هو، وهو هي، ينظر بعينيها، ويسمع بأذنيها، ويجوع ببطنها، فإن أكلَت شبعَ، وإن شربت رويَ، وإن سُرّت ضحكَ، وإن تألّمَت بكى، وإن أصابها الصداع وجعه رأسه... يطرب وهو بعيد عنها إن سمعت نغماً عذباً، ويبتسم وهو في أعماق منامه إن رأت في منامها حلماً حلواً.

يتبع هواها على القرب والبعد، ويؤثر رضاها في الغيبة والحضور، ويطيعها إطاعة لو أن العباد أطاعوا ربهم مثلها لأقفرت من أهلها جهنّم،

---

(١) وأنتم تفهمون ما هي الحكاية.

(٢) مع الناس / ص ٥٢ ـ ٥٣.

(٣) وهذا ما أراد من يقول:

أنـا مـن أهـوى ومـن أهـوى أنـا ... نـحـن روحـان حـلـلـنـا بـدنـا

ولكن قصرت به العبارة.

يسهر الليل كله يتقلّب على فراش السهد من الشوق إليها، والخوف منها، والطمع فيها، ويعد الكلام الطويل ليقوله لها، فإذا لقيها نسي ما كان أعدّه من هيبتها.

إن تكلّم لم ينطق بغير حديثها، وإن سكت لا يفكر إلاّ فيها، قد جهل كل طريق كان يعرفه إلاّ طريقها، فما يمشي إلاّ توجّه إليها، يحوّم حولها علّه يرى البيت الذي تسكنه، أو ينشق الهواء الذي تنشقه، ينام الناس ويسهر ليله، يساير النجوم في مسالكها، ويعد الدقائق في مجراها، لا يرى حيثما نظر غيرها، ولا يبصر سواها، يراها بين سطور الكتاب إن نظر في صفحات الكتاب، وفي وجه البدر إن رنا طلعة البدر، وبين النجوم إن قلّب نظره في النجوم، يراها في كل شيء تفتح عليه العيون، فإن أغمضها رأى طيفها في ثنايا الأحلام..

يذكّره بها وميض الزهر في الروض، وحديث الساقية للسفح، والحمامة تسجع على الغصن، والمغنّي يصدح في هدأة الليل بـ (يا ليل) فيصغى طرباً إليه الليل، ولفتة الجدول عند الرابية، وفتنة الوادي عند الجزع، والدرب الحالم تحت فروع الدلب والصفصاف على كتف النهر، والشلال الهادر في الليل الداجي، والتلال الخضراء اللابسة جلابيب الصنوبر، والجبل الأجرد المتوّج بعمامة من الصخر...

إن هب النسيم من نحو أرضها شجته النسائم، أو جرى السيل من جهتها أجرت دموعه السيول، أو طلع الكوكب من أفقها أهاجت أشواقه الكواكب، أو رأى طيراً تمنّى لو استعار (ليزورها) أجنحة الطير.

يحب لأجلها كل ما كان منها وما اتصل بها، الرضاب الذي تنفر منه النفوس إن كان رضابها فهو خمر، وريح العرق الذي تأنف منه الطباع إن كانت ريحها فهو عطر، والألم إن جاء منها كان لذة، والذم إن جرى على لسانها كان ثناءً، والظلم إن وقع منها أشهى إلى قلبه من نيل الحقوق من أيدي الغاصبين، والأهل أهلها أحباؤه وأصدقاؤه، ولو عدَوا عليه، وأساؤوا إليه.

يرضى منها بالقليل الذي لا يرضي، إن بسمت له بسمة فكأن قد بسم له الدهر، وواتته الأماني، وإن كلّمته كلمة فكأن قد صبّت في روحه الحياة، وإن وعدته بقبلة عاش دهره يذكر الوعد ويتعلّل بذكراه.

يعاف لحبها طعامه وشرابه، ويهجر راحته ومنامه، والمجد يزهد فيه ولا يباليه، والدين يتركه والمال لا يفكر فيه، وإن هو ابتغى المعالي يوماً فإنما يبتغيها ليسرّها ويرضيها، وإن نظم أو كتب فلها وحدها، يقرؤها عليها وإن كانت لا تدركه ولا تفهمه، ولا تستطيع أن ترقى إلى سمائه، وإن أغار في الحرب فلِينال إعجابها، وإن طلب العظائم فليعظم في عينها، إن سعد الناس بالغنى والجاه لم يسعده إلاّ لقاؤها، وإن حرص العقلاء على رضا الله لم يحرص إلاّ على رضاها،، وإن افتخروا بالصحة والقوة فخر بالمرض والضعف والهزال، يرى القصر إن خلا منها سجناً، والسجن إن كان معها قصراً، والقفر إن كانت فيه روضة، والروضة إن فارقتها قفراً، واليوم إن واصلته لحظة، واللحظة إن هجرته دهراً، يرى الشمس من هجرها سوداء مظلمة، والليل البهيم من وصالها شمساً مشرقةً.

تؤرقه ويرجو لها طيب المنام، وتسقمه ويسأل لها البعد عن الأسقام، يعتذر من ذنبها وهي المذنبة، ويبكي من حبها وهو القتيل، فهي شفاؤه وهي داؤه، وهي نعيمه وهي شقاؤه، وهي جنته وهي ناره، يطلب أن تلتقي الروحان ويتوحّد الاثنان، وهذا ما لا يكون أبداً، لذلك يترك حاضره ويحن إلى الماضي، يعود بالذكرى إليه يفتش في زواياه عن هذه الأمنية، أو يتطلع إلى المستقبل، يستشف بالخيال ما فيه، فلا يرجع له ماضٍ، ولا ينجلي له آتٍ، ولا يثبت له حاضر.

وهذا أبداً دأب العاشقين، إنهم يئسوا من أن يساعدهم الناس على بلواهم، فتركوا دنيا الناس وعاشوا وحدهم في دنياهم، هاموا على وجوههم يبحثون عن قطع قلوبهم التي خلّفوها في مدارج الهوى، وملاعب الصبا، وتحت الأطلال، يسائلون الحفر والحجارة، ويناجون الأحلام والأوهام.

يقول العاذلون: انس ليلاك، ففي الأرض ليلات كثر واستبدل بها...

وما يدري العاذلون ماذا يلاقي، لا ولا نظروا إلى ليلى بعينيه، ولا شعروا بها بقلبه...

فيا رحمةً للعاشقين مما تقول العواذل[1].

حقيقة الجمال

... هب أن هذه أطرى جسماً وأحلى وجهاً، وأقدر على الفتنة، فمن قال لكم أن الجمال هو هذا؟ إن الجمال هو الإخلاص، إنك ترى أمك جميلة في عينيك، حبيبة إلى قلبك، ولعل في وجهها من تجاعيد الكبر أودية وجبالاً... ولعل فمها كالمغارة الخالية... ولعل يديها كمخالب الطير، وترى المرأة التي خانتك وغدرت بك قبيحة بغيضة، وإن كانت في عين الرائي أجمل النساء..[2].

الحب العذري

... ما الحب (مهما زخرفه الشعراء وزوّقه الأدباء) إلا رغبة في الاتصال الجنسي، لم تجد طريقها، إن الحب العذري الشريف حديث خرافة لا تروج سوقه إلاَّ على المجانين والشباب.

هذه حقيقة من أنكرها وجد الرد عليه في نفسه، إن في كل نفس الدليل على أنها حقيقة لا سبيل إلى إنكارها، فهل يصلح الحب إذن وحده أساساً للزواج؟[3].

---

(١) صور وخواطر / ص ٢١٤ ـ ٢١٦.
(٢) قصص من الحياة / ص ١٦٩.
(٣) مع الناس / ص ٥٣.

مصادر المختارات

١ ـ صور وخواطر ـ علي الطنطاوي — دار المنارة ـ جدة ـ ط (٢)

٢ ـ من حديث النفس ـ علي الطنطاوي — دار المنارة ـ جدة ـ ط (٤)

٣ ـ هتاف المجد ـ علي الطنطاوي — دار المنارة ـ جدة ـ ط (٢)

٤ ـ مع الناس ـ علي الطنطاوي — دار المنارة ـ جدة ـ ط (٢)

٥ ـ في سبيل الإصلاح ـ علي الطنطاوي — دار المنارة ـ جدة ـ ط (٣)

٦ ـ قصص من التاريخ ـ علي الطنطاوي — دار المنارة ـ جدة ـ ط (٥)

٧ ـ فصول إسلامية ـ علي الطنطاوي — دار المنارة ـ جدة ـ ط (٤)

٨ ـ فكر ومباحث ـ علي الطنطاوي — دار المنارة ـ جدة ـ ط (٢)

٩ ـ قصص من الحياة ـ علي الطنطاوي — دار المنارة ـ جدة ـ ط (٤)

١٠ـ من نفحات الحرم ـ علي الطنطاوي — دار المنارة ـ جدة ـ ط (٣)

١١ ـ بغداد ـ علي الطنطاوي — دار المنارة ـ جدة ـ ط (٢)

١٢ ـ فتاوى ـ علي الطنطاوي — دار المنارة ـ جدة ـ ط (٤)

١٣ ـ مقالات في كلمات ـ علي الطنطاوي — دار المنارة ـ جدة ـ ط (٢)

١٤ـ الجامع الأموي ـ علي الطنطاوي — دار المنارة ـ جدة ـ ط (١)

١٥ـ دمشق ـ علي الطنطاوي — دار المنارة ـ جدة ـ ط (٢)

١٦ـ قصة حياة عمر ـ علي الطنطاوي — دار المنارة ـ جدة ـ ط (٢)

الفوائد الطنطاوية

فوائد لغوية من حواشي كتب الشيخ
علي الطنطاوي (رحمه الله)

إهداء

إلى الذائدين عن حياض الفصحى..

إلى عشاق العربية .. جمالاً .. وجلالاً .. وخلوداً ..

إليهم أُهدي الفوائد الطنطاوية ..

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين، وبعد:

أقف مع القراء الكرام على أبواب لغتنا الخالدة، وصاحبنا في هذا الكتاب، علمٌ من أعلام الفصاحة والبيان، من الذين قيدوا أوابدها، وحفظوا شواردها، ورووا شواهدها، مع فضيلة الشيخ: علي الطنطاوي - رحمة الله عليه - الذي ودعنا منذ شهر إلى جوار ربه الكريم، وهذه بعض لفتاته وتنبيهاته على فصاحة بعض المفردات، وعامية أخرى مما جرت به الأقلام. وتنبيهاته كانت صادرة من غيرته على العربية، وحبه لها وسعة علمه بقواعدها، وكثرة استخدامه للعامي الفصيح لينبه إلى فصاحته.

وقد جمعت هذه المفردات من حواشي كتبه، وبوبتها على حسب أبجديتها، دون الاعتماد على جذورها، مشيراً - في فهرس الفوائد - إلى مواضعها في كتب الشيخ، فقد يحتاج القارئ إلى معرفة السياق لدلالته على المعنى المراد.

لعلي بهذا العمل قد وفقت لخدمة العربية بجهد المقل، وخدمة أدب هذا العالم الجليل الذي قضى حياته، مناضلاً وأديباً وفقيهاً وداعية إلى الإسلام، ومدافعاً عن الإسلام والعربية والفضيلة.

ولعل هذه المفردات تكون زاداً للمتأدب، وبداية للعناية بفصاحة

اللسان، في زمنٍ اشتد زحف اللهجات العامية عبر وسائل الإعلام، المرئية والمسموعة والمقروءة.

وبالله التوفيق.

إبراهيم مضواح الألمعي
في ٣/ربيع الآخر/ ١٤٢٠هـ

حياة الشيخ علي الطنطاوي

ـ رحمه الله ـ

في سـطور

ـ ولد الشيخ علي الطنطاوي في دمشق في ٢٣ جمادى الأولى ١٣٢٧هـ الموافق ١٢ / يونيو ١٩٠٩م في أسرة ذات علم ودين.

ـ تلقى علوم الشريعة على علماء الشام، ودرس الابتدائية والثانوية بدمشق.

ـ حصل على الإجازة في الحقوق والآداب من جامعة دمشق عام ١٩٣٣م.

ـ درس سنة في كلية دار العلوم بمصر.

ـ عمل مدرساً في التعليم الابتدائي في بداية حياته بسوريا.

ـ عمل مدرساً بالثانوية المركزية ببغداد عام ١٩٣٦م إضافة إلى إلقاء محاضرات بدار المعلمين العليا ببغداد، ثم تولى تدريس العلوم الشرعية بدار العلوم الشرعية التي تحولت فيما بعد إلى كلية الشريعة.

ـ في عام ١٩٣٧م انتقل إلى بيروت حيث تولى التدريس بكلية الشريعة في بيروت.

ـ هاجر إلى المملكة العربية السعودية عام ١٩٦٣م حيث عمل

بالتدريس بكلية اللغة العربية، وبكلية الشريعة بالرياض، ثم انتقل للتدريس بكلية الشريعة بمكة المكرمة، ثم تفرغ للعمل الإعلامي، حتى تقاعد بسبب تقدمه في السن.

- في مجال القضاء كان قاضياً شرعياً في دوما، وقاضي دمشق الممتاز «أي رئيس المحكمة الكبرى» وعمل مستشاراً في محكمة النقض بسوريا مدة عشر سنوات، وفي عهد الوحدة بين مصر وسوريا كان مستشاراً في محكمة النقض في دولة الوحدة «الجمهورية العربية المتحدة».

- أبان شبابه جاهد ضد الاحتلال الفرنسي لبلاده، وقبض عليه وعاش حياة الزنزانة.

- قام بأسفار عدة إلى العديد من الأمصار الإسلامية مما وسع مداركه وزاده علماً وثقافة.

- كتب في كبريات المجلات الأدبية والإسلامية مثل: الزهراء، والفتح، والرسالة، والمسلمون، وحضارة الإسلام، وكانت له زاوية في عدد من الصحف الدمشقية.

- حققت برامجه في التلفزيون السعودي والإذاعة السعودية شهرة واسعة، وأصبح قبلة المشاهدين والمستمعين.

- استقر في المملكة العربية السعودية منذ قدومه إليها، وقام بنشاطات دعوية وإعلامية.

- كتب في أدب الأطفال والأدب المسرحي، وحقق الكثير من كتب التراث، وله إسهامات في مجال القصة، والتأليف المدرسي.

- شارك في العديد من المؤتمرات الإسلامية، وكان له نشاطات بارزة في خدمة الإسلام، والقضية الفلسطينية، وقضايا العالم الإسلامي.

- لعب دوراً عظيما في التوجيه وبيان الأحكام الشرعية، بأسلوب جذاب.

- جمع في فكره بين الثقافتين الإسلامية والعربية من جانب، والثقافة المعاصرة من جانب آخر.

- جاءت آراؤه الشرعية متسمة بالاعتدال، وبعيدة عن الإفراط أو التفريط.

- أسهم في أعمال تربوية وتعليمية منها: إصلاح التعليم الشرعي في سوريا، وكان له دور عظيم في صياغة قانون الأحوال الشخصية في سوريا، كما وضع قانون الإفتاء، وساهم في تشكيل المجلس الأعلى للإفتاء في سوريا.

- أُنتخب عضواً في المجمع العلمي العراقي ببغداد.

- وللشيخ علي الطنطاوي - رحمه الله - عشرات من الكتب، وعشرات من الرسائل، والأشرطة.

- أعدت عن أدبه رسالة دكتوراة للباحث: (عبدالله فاروق السلفي) بعنوان: (علي الطنطاوي... مساهمته في تطوير النثر العربي الحديث) جامعة عليكرة سنة ١٩٩٥م.

- أعدت عنه رسالة ماجستير بعنوان "بعض الآراء التربوية للشيخ علي الطنطاوي" تقدم بها الباحث (عبد الله جبريل أبو القاسم) عام ١٤١٩هـ

- أعدت عنه رسالة ماجستير بعنوان "ذكريات الشيخ علي الطنطاوي دراسة فنية " تقدم بها الباحث (أحمد آل مريع الألمعي) عام ١٤٢٠هـ

- صدر عنه كتاب "هكذا ربانا جدي علي الطنطاوي" من إعداد حفيدته "عابدة العظم " عن دار المنارة - جدة.

- فاز بجائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام لعام ١٩٩٠م.

- توفي - رحمه الله تعالى - يوم الجمعة ٥/ ٣/ ١٤٢٠هـ - الموافق ١٨/ يونيو/ ١٩٩٩م.

* * *

الفوائد اللغوية

باب الهمزة

١ ـ انفزر: من العامي الفصيح.

٢ ـ الصواب تستقري بالياء لا تستقرئ بالهمزة.

٣ ـ الإزميل: المطرقة من العامي الفصيح.

٤ ـ الأثلة: الأصل، ونحت أثلته: قال في حسبه.

٥ ـ أطت: صوَّتت، وفي حديث أم زرع: «فجعلني في أهل صهيل وأطيط» أي خيل وإبل.

٦ ـ «في ليلة من جمادى ذات أندية» أندية: جمع ندى على الشذوذ لأنه (في القياس) جمع لما كان ممدوداً مثل كساء وأكسية.

٧ ـ أنا ابن جلا وطلاَّع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني.

جلا اسم من أسماء العرب، وابن جلا كناية عن الواضح الأمر.

وطلاَّع: صفة لـ(أنا). والثنايا جمع ثنية في الجبل، يريد أنه يطلع في الغارات من ثنية الجبل على أهلها. وقوله: متى أضع العمامة، كناية عن الحرب.

٨ ـ أعوجى: أي جواد كريم من نسل الأعوج المشهور.

٩ ـ أبلد دخل البلد، كأنجد وأبحر وأصحر، ومثلها أصبح وأمسى وأظهر.

---

(١) في لسان العرب «الفزر، بالفتح: الفسخ في الثوب، وفزر الثوب فزراً شقه».

(٣) الإزميل: [شفرة الحذَّاءِ]. لسان العرب وزاد في المعجم الوسيط [والمطرقة، وآله من حديد أحد طرفيها حاد ينقر بها الحجر والخشب].

(٥) الحديث في البخاري في كتاب النكاح برقم (٥١٨٩)، ورواه مسلم في كتاب فضائل الصحابة برقم (٤٤٨١).

(٧) هذا البيت لسُحيم بن وثيل بن عمرو الرياحي ـ شاعر مخضرم.

١٠ ـ ألماس: اللام فيه أصلية على الأصح.

١١ ـ أزفِلَة: أي جماعة.

١٢ ـ أقرن: القَرن التقاء الحاجبين.

١٣ ـ الأقواء: جمع قواء وهو القفر الخالي.

١٤ ـ الإرقال: السير السريع.

١٥ ـ الأسود و الأحمر: كناية عن العرب والعجم (كما كانت تقول العرب).

• ١٦ ـ الاستعمار: هو في الحقيقة (إستخراب) هم المخربون المدمرون، لا المستعمرون كما يسمون التنصير و التكفير بالتبشير.

• ١٧ ـ الأميرال: أصلها عربي (أمير الماء) وهو لقب قائد الأسطول عند الأندلسيين و المغاربة.

١٨ ـ أمّات كتب العلم: قالوا: الأمهات للناس، والأمّات للأشياء.

١٩ ـ اكتن: من العامي الفصيح.

٢٠ ـ أصفح: أتصفح.

٢١ ـ الأبيناء: جمع بين.

٢٢ ـ كلمة (إزيّك) المصرية وكلمة (زي) أصلها (سيّ) وهو المثيل والشبه، ومنه قولهم: (لا سيما فلان).

٢٣ ـ أخنع: أقل وأوضع، وهى من عامية الشام الفصيحة.

---

(١٤) [أرقلت الدابة والناقة إرقالاً: أسرعت] لسان العرب.

(١٩) [اكتن واستكن: استتر] لسان العرب.

٢٤ ـ الإرتاج: الإغلاق ومنه رتاج الباب.

٢٥ ـ أمس: إذا أتت [دون تعريف] تكون مبنية على الكسر، فإذا عُرفت بـ [أل] أُعربت.

٢٦ ـ الإسلام له معنى عام ومعنى خاص ومعنى أخص، فالمسلم بالمعنى العام: كل من اتبع رسولاً وقت رسالته، والمسلم بالمعنى الخاص: من اتبع رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، وبالمعنى الأخص: ما ورد في حديث [جبريل] الذي شرح معنى الإيمان والإسلام والإحسان.

٢٧ ـ أبله: صفة ولا تجيء اسم تفضيل والقياس أن يقول [أشد بلاهة].

٢٨ ـ الأتوار: جمع تور، وهو إناء الشرب.

٢٩ ـ اسطامبول: سماها محمد الفاتح [إسلام بول] أي بلد الإسلام.

٣٠ ـ الأجْراء: جمع جرو.

٣١ ـ وأيم الله، قسم و أصله: [أيمن] الله وهي جمع يمين.

٣٢ ـ هل كلمة [آلو] أصلها [ألا] العربية التي يفتتح بها الكلام؟.

٣٣ ـ الأبالة [ويقول لها العوام بالة] الحزمة الكبيرة أو الصغيرة، ومنه قولهم [جاء ضغثاً على أباله] بمعنى قول العامة [زاد الطين بلة].

٣٤ ـ يقال: [استقرى يستقري استقراءً].

---

(٢٨) هكذا أيضا في لسان العرب.

(٣٢) [هالو (Hello): هتاف للترحيب أو لفت النظر أو للإجابة على التليفون] المورد [١٩٩٣م] منير البعلبكي.

(٣٣) ذكره الميداني في مجمع الأمثال برقم [٢٢٠٢] صفحة [٥٢٣] مجلد [١] وضبطه [ضِغثٌ عَلَى إبَّالَةٍ].

٣٥ ـ الأوركسترا: هي الجوقة، وكلمة جوقة فصيحة.

٣٦ ـ الإخوانيات: إصطلاح قديم.

باب الباء

١ ـ بس: فصيحة معربة من قديم.

٢ ـ البطارية: ذاخرة.

٣ ـ البذلة: فصيحة .

٤ ـ يقال بادئ الرأي: بادئ بدء: إذا كان ذلك أول مرة.

٥ ـ البسيط في اللغة الواسع.

٦ ـ بدا لك: أي غيرت رأيك.

٧ ـ البجر: (بالفتح و الضم) الداهية والأمر العظيم.

٨ ـ بكهْ: أي فضلاً عن.

٩ ـ البلوعة والبالوعة: من العامي الفصيح.

١٠ ـ البنطال: تعريب بنطلون.

١١ ـ القياس أن تقول في النسبة إلى البديهة [بدهي] لكن علماءنا استعملوا من القديم [بديهي] و [طبيعي] كما يستعملها جمهور الناس اليوم، وأنا أستعمل العامي الفصيح تنبيهاً على فصاحته.

---

(٣٥) جاء في لسان العرب [الجوقة: الجماعة من الناس].

(١) «بَسْ وبِسْ يبس، بفتح الباء وكسرها، وأكثر ما يقال بالفتح، وهو صوت الزجر للسُّوق، وهو من كلام أهل اليمن» لسان العرب.

(٣) البذلة والمبذلة من الثياب: ما يلبس ويمتهن ولايصان «لسان العرب».

(٧) هكذا في لسان العرب.

(٩) جاء في لسان العرب [البالوعة والبلوعة، لغتان: بئر تحفر في وسط الدار ويُضَيَّق رأسها يجري فيها المطر، وفي الصحاح: ثقب في وسط الدار، والجمع البلاليع، وبالوعة لغة أهل البصرة].

١٢ ـ في قولك: بادي الرأي، وبادئ الرأي ـ أي: من النظرة الأولى ومن أول وهلة.

١٣ ـ البئر البوار: البئر الفارغة المهجورة.

١٤ ـ بَسْ: معربة من قديم و لا بأس باستعمالها.

١٥ ـ شيء براني، من العامي الفصيح. وفي الخبر [من أصلح جوّانيه أصلح الله برّانيه].

١٦• ـ البرطيل: الرشوة، وبرطلته رشوة فتبرطل، فهي من العامي الفصيح.

١٧• ـ باكستان: أي [ديار الأطهار].

١٨ ـ يقال هو من بابة فلان: إذا كان من أشكاله و نظرائه.

١٩ ـ من هذه البابة أي من هذا القبيل.

٢٠ ـ البزور: من العامي الفصيح كالبذور.

٢١• ـ البِسُّ: القطُّ [عربية].

٢٢ ـ برم شاربيه: كلمة عربية فصيحة.

٢٣• ـ بلاش [العامية] أصلها بلا شيء.

٢٤ ـ بوصلة: الكلمة طليانية، وقد ثبت أن العرب عرفوا البوصلة.

٢٥ ـ البثق: أي الخرق.

• ٢٦ ـ بلغ السيل الزبى: الزبى جمع زبية وهي الحفرة تحفر في الجبل لصيد الوحوش.

---

(١٥) اشارة إلى حديث سلمان [إن لكل امرئ جوانياً وبرانياً، فمن أصلح جوانيه أصلح الله برانيه] ذكره في المعجم الوسيط ولم أجده في الكتب التسعة.

(١٦) هكذا في لسان العرب، ونسبه أيضا للقاموس.

(٢٠) [البُزُور: الحبوب الصغار، مثل بزور البقول وما أشبههما، وقيل المبزور: الرجل الكثير الولد] لسان العرب.

(٢٢) [بَرَمَ الحبل بَرماً: فتله من طرفين] المعجم الوسيط.

(٢٦) [بلغ السيلُ الزبي] مجمع الأمثال للميداني مجلد [١] صفحة [١٣٢] الرقم [٤٣٦].

٢٧ ـ بلغ الحزام الطبيين: أي أن حزام الدابة زاح عن بطنها فتعرض راكبها للسقوط.

٢٨ ـ برءاء: جمع بريء.

٢٩ ـ كلمة براني وجواني فصيحة وردت في الحديث الصحيح.

٣٠ ـ البسيط في اللغة هو الواسع المبسوط.

٣١ ـ البحرة في اللغة مجمع الخيام ولعل منه اسم (بحرة) بين مكة وجدة.

باب التاء

١ ـ «تمتع من شميم عرارنجد».

الشميم: كالشم، والعرار: نبت في البادية طيب الرائحة.

٢ ـ التجمير: إبقاء الجنود في الجبهة مدة طويلة.

٣ ـ التقدميَّة: صوابها اليَقْدَميه أو التقْدِمِية.

٤ ـ التبان: ثوب المصارع ونحوه، أو هو شيء كالمايوه !.

٥ ـ التأويل: من آل الأمر إلى كذا أي: صار. وأوله إليه: [على وزن فعّل] أي: صيره. ولفظ [التأويل] جاء في القرآن بمعنيين: تأويل لفظي أي بيان ما ينتهي إليه معنى اللفظ: (ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا).

---

(٢٧) [بلغ الحزام الطبيين] ذكره الفيروزآبادي في القاموس المحيط ج [٤] صفحة [٥١٤] باب الواو والياء فصل الطاء.

(٢٩) إشارة إلى حديث سلمان: «إن لكل امرئٍ جوانياً وبرانياً، فمن أصلح جوانيه أصلح الله برانيه»، ذكره في المعجم الوسيط. ولم أجده في الكتب التسعة.

(١) هذا شطر بيت لـ (الصمة القشيري) يقول فيه:.

تمتع من شميم عرار نجدٍ فما بعد العشية من عرارِ

(٥) الآية الأولى في سورة الكهف الآية [٨٢] و الآية الثانية في سورة الأعراف الآية [٥٣].

وتأويل علمي: أي بيان ما تنتهي إليه الحال ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾. ومن هنا فرق المتأخرون بين التأويل والتفسير فالتأويل ما بينا والتفسير كشف المعنى من [فسر] مثل [سفر] انكشف.

٦ ـ يتمعلم. الفصيح: يتعالم.

٧ ـ يتفضل: يتبذل.

٨ ـ (التلفزيون): سميته (الرائي) بمعنى المرئي كقوله تعالى ﴿فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ أي مرضية، على طريقة المجاز العقلي.

٩ ـ تقييم: غلط ولو جادلوا تبريره، والصواب: تقويم.

١٠ ـ كلمة التكنولوجيا: سرت على الألسنة، وهي مؤلفة من كلمتين يونانيتين معناها التقريبي علم الإتقان، وأنا أرى أن نقول [تقانة] على وزن نجارة وحدادة وطيانة شبه قياس.

١١ ـ تترا: أي متواترة، اسم يظنها كثير من الناس فعلا من الأفعال، في مثل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ وما هي بفعل.

باب الثاء

١ ـ الثغام: نبت واحدته ثُغامة وهو أبيض كالثلج يشبه به الشيب.

٢ ـ ثوب يمان: نسبة إلى اليمن.

---

(٩) قال الأستاذ محمد الحسيني: [الموجه قوّمَ المدرس أو قيّمه، كل هذا صحيح بعد أن وافق المجمع على استعمال الفعل قيّم مثل قوّم] صون اللسان صفحة [١٤٤].
وقال الأستاذ محمد العدناني: [ويُخطّئون من يقول: قيموا الدار، أي جعلوا لها قيمة معلومة. باعتبار أن الصواب قوّموا الدار تقويماً لأن الفعل واوِيٌّ] معجم الأخطاء الشائعة صفحة [٢١٢].

(١١) الآية [٤٤] من سورة[المؤمنون].

باب الجيم

١ ـ الجيل في اللغة الأمّة من الناس، فالعرب جيل والترك جيل. واستعمالها بمعنى البطن من الأمّة مُوَلَّد.

٢ ـ سمعت كثيرًا من إخواننا يستعملون كلمة «جنتلمان» بدعوى أنه ليس في العربية ما يقابلها، مع أن كلمة «مهذب» هي نفسها وقد استعمل هذا الحرف بهذا المعنى «تقريبا» منذ الجاهلية ؛ قال النابغة:

ولستَ بمستبقٍ أخاً لا تلمه على شعث وأي الرجال المهذبُ

٣ ـ الجريب: مكيال ومقداره يختلف باختلاف البلاد ويستعمل أيضاً على أنه مساحة. فيقال للأرض: مساحتها كذا جريباً. وللقمح والشعير مكياله: كذا جريباً.

٤ ـ جَدَى: أي جدوى.

٥ ـ جزَع: قطع واجتاز.

٦ ـ جوقة: كلمة عربية.

٧ ـ الجلّة: روث البقر الجاف.

٨ ـ الجيب: فتحة القميص عند العنق وكلنا نستعمله فيما يفهم الناس.

٩ ـ الجرثومة: في اللغة الأصل، وجراثيم الأمراض أصولها، وإطلاقها على (الميكروبات) صحيح من باب التجوز.

١٠ ـ جَمْع: هي مزدلفة، وتسمي [المشعر الحرام].

١١ ـ جمارة النخلة: باطن جذعها وهو يؤكل اليوم غضاً في العراق.

١٢ ـ الجِرم بالكسر: الجسم و الجُرم: بالضم الذنب.

---

(٢) جنتلمان (Gentle man) كلمة انجليزية تعني (مهذب). وقد وفق الشيخ في الترجمة.

(٦) [الجوقة: الجماعة من الناس] لسان العرب.

(١٢) المراد كسر الجيم وضمه.

١٣ ـ الجيب فتحة القميص عند العنق، ولكن لا بأس باستعماله على الوجه المعروف.

١٤ ـ كلمة جو جمعها [جواء] لا [أجواء].

١٥ ـ جدع: أصل الكلمة [جذع] وهي فصيحة «يا ليتني فيها جذع أخب فيها وأضع».

باب الحاء

١ ـ الحوار (الطباشير) من العامي الفصيح.

٢ ـ الحوار: (الطباشير) لا بأس بعربيتها لأن التحوير هو التبييض.

٣ ـ الذي أراه أن اسم الحوار عربي فصيح لأن التحوير التبييض، كما أن اسم اللوح عربي فصيح، و العامي الفصيح خير من الغريب المهجور.

٤ ـ الحريرة: دقيق يطبخ بلبن ودسم.

٥ ـ الحصيني في لغة أهل الشام الثعلب.

٦ ـ حاشية الشيء: طرفه.

٧ ـ الحائط: البستان.

٨ ـ الحرة: أرض بركانية كلها صخور.

٩ ـ الحرة أو اللابة: أرض حجارتها سود بركانية.

١٠ ـ شعر الحداثة: أي الحدث الأكبر الذي لا يتطهر منه صاحبه إلا بالغسل.

١١ ـ الحداثة: شعر الحداثة الذي يشبه (الحدث) -الأكبر ولكن لا

---

(١٤) [الجَوُّ: الفضاء بين السماء والأرض والجمع جِوَاءٌ، وأجْواءٌ] القاموس المحيط.

(١٥) «يا ليتني فيها جذع أخب فيها وأضع». (بيت منسوب لدريد بن الصمة).

(١، ٢، ٣) [التحوير التبييض] لسان العرب.

(٥) [الثعلب يكنى أبا الحصين، الجوهري: وأبو الحصين كنية الثعلب] لسان العرب.

(١٠، ١١) هذا ليس تعريف للحداثة ولكنه من باب التهكم بهذا المسمى، انظر كتاب=

يطهره شئ، ولا الغسل سبعاً إحداهن بتراب المقبرة الذي يتمنون أن يدفنوا فيها (الشعر).

١٢ ـ حمي على وزن (أبي) أي والد زوجتي.

١٣ ـ حيوات: جمع حياة.

١٤ ـ الحصكفي: نسبة إلى حصن كيفا في العراق و أظنه هو المعروف اليوم (بتل كيف).

١٥ ـ حال: جمع حالة.

١٦ ـ الحوين: تصغير حيوان وهذا ما يسمى عندهم تصغير الترخيم أي بعد طرح حروف الزوائد.

١٧ ـ الحَيْن: الهلاك.

١٨ ـ الحاقن بالبول: والحاقب بالغائط.

١٩ ـ الحاكيات: أي الفوتوغرافات.

٢٠ ـ حِلل: جمع حِلة بالكسر وهي المحلة.

٢١ ـ نحن نسمِّي المسقوف من المسجد حَرماً، أما الحرم بمعناه الشرعي فلا يطلق إلا على حَرَمَيْ مكة و المدينة.

٢٢ ـ حير الوحوش: حديقة الحيوان، وأصل الحير البستان.

٢٣ ـ الحسينية: عند الشيعة المسجد.

٢٤ ـ تحنط: أي استعد للموت [وأصلها من وضع الحنوط وهو الطيب الذي يطيب به الميت].

٢٥ ـ حموك من الأسماء الخمسة فأنت تقول حمي كما تقول أبي.

= [الحداثة في ميزان الإسلام] للدكتور عوض القرني، تقديم سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز.

باب الخاء

١ ـ الخيلة: الخيلاء والكبر.

٢ ـ تُخَشْخِش: من العامي الفصيح.

٣ ـ الخبيص: حلوى تُعمل من التمر والسمن أو ما يشبه هذا.

٤ ـ الخلقان: الثياب العتيقة.

٥ ـ الخنذيذ: الفرس الطويل الصلب.

٦ ـ الخُرْثي: المتاع الذي لا فائدة فيه.

٧ ـ خبص: أي خلط، كلاهما من العامي الفصيح.

٨ ـ قال في القاموس: خششت في المكان (دخلت) !.

٩ ـ يخبط: من العامي الفصيح.

١٠ ـ لفظ الخادم يُطلق على الذكر والأنثى.

١١ ـ الخور: كلمة عربية.

١٢ ـ الخريت: هو الخبير بالطرق.

١٣ ـ الخريطة: في اللغة قطعة من القماش مثل الكيس تُضم جوانبها على ما يوضع فيها.

باب الدال

١ ـ درج مؤنثة لأنها جمع درجة، مثل سلك، جمع سلكة وحال جمع حاله.

٢ ـ دير به: أي أصابه الدوار (داخ).

---

(٢) الخشخشة: [حركة لها صوت كصوت السلاح] لسان العرب.

(٩) قال في لسان العرب: [خبط يخبط خبطاً: ضربه ضرباً شديداً].

(١١) [الخَوْرُ، مثل الغور: المنخفض المطمئن من الأرض بين النشزين] لسان العرب.

٣ ـ الدوي: شدَّة المرض.

٤ ـ (قال في اللسان): الداجل المموّه الكذَّاب، وبه سُمّي الدجال لأنه يدجل الحق بالباطل، وقيل لأنه يغطى الأرض بكثرة جموعه، وقيل لأنه يغطي على الناس بكفره... الخ. (وقال في التاج: وقيل من دجل الرجل: إذا قطع نواحي الأرض سيراً). (الطنطاوي).

٥ ـ (دائرة المعارف)، ياليتهم سموها (مُعْلَماً) على وزن (مُعْجَم).

٦ ـ ديموس: باليونانية الشعب ومنه اشتق اسم الديمقراطية.

٧ ـ الدعس: من العامي الفصيح.

٨ ـ الدَّدُ: اللهو واللعب.

٩ ـ الدأداء: الفضاء وما اتسع من التلاع والأودية.

١٠ ـ الدقرارة: واحدة الدقارير، وهى الأباطيل وعادات السوء.

١١ ـ الدعس الوطىء الشديد وهو من العامي الفصيح، وبعض الصحفيين عندما «يتفاصحون...» فيكتبون دهست السيارة بالهاء بدل العين وذلك خطأ.

١٢ ـ الدانق: أصغر عمله أي أنه قبل الهللة أو الفلس بل هو أصغر.

١٣ ـ الديماس في اللغة: الحمَّام.

١٤ ـ داخل على الله ثم عليك: تعبير عامي لا بأس به.

---

(٦) الديموقراطية: انظر كتاب [كلمات غريبة] منصور إبراهيم الخميس صفحة [١٦٥]. حيث يقول: [ومعنى الكلمة حرفيا حكومة الشعب، وهذه الكلمة بمعناها العام تستوعب كل مذهب سياسي يعتبر ارادة الشعب مصدراً للسلطة].

(٧) [دعسه بالرمح يدعسه دعسا: طعنه] لسان العرب، وفي المعجم الوسيط: [دعس الشيء: داسه دوساً شديداً].

(٨) هكذا أيضا في المعجم الوسيط.

(٩) [التلعة: أرض مرتفعة غليظة يتردد فيها السيل أسفل منها وهي مكرمة من المنابت، والتلعة: مجرى الماء، والجمع تلاع]. لسان العرب.

(١٣) هكذا في لسان العرب.

١٥ ـ الدرابزين: كلمة معربة من القدم.

١٦ ـ كلمة [درابزين] معربة من قديم، ولا تزال مستعملة عند أهل الشام إلى الآن.

١٧ ـ دَبْكة: رقص فردي له أغان خاصة، وأبرع الناس فيه أهل لبنان.

١٨ ـ اسم دجلة بالفرنسية [Tigre] و بالإنكليزية [تايكرس].

١٩ ـ دومة الجندل: هي المعروفة اليوم بـ [الجوف].

٢٠ ـ الدردجة: في اللغة: أن يتوافق اثنان في المودة، ولعل [الدردشة] منها مع تحريف في اللفظ، وتصريف في المعنى.

٢١ ـ لماذا لا نسمي دائرة المعارف [المُعلَم] على وزن [المعجَم].

٢٢ ـ الدرب: في الأصل الممر الضيق.

باب الراء

١ ـ أكثر كتَّاب مصر إلا الأبيناء منهم يؤنثون كلمة الرأس مع أن العرب لا تؤنث الرئس. ولا ترئس الأنثى.

٢ ـ ارتتج: انقفل.

٣ ـ الرمح هو الزج، والقناة السنان: الصعدة: القناة المستقيمة.

٤ ـ الراد: الراديو لأنه يرد الصوت المنتشر في الفضاء.

٥ ـ الرواتب: هي في اللغة: الوظائف، جمع وظيفة.

(١٥، ١٦) درابزين: حاجز على جانبي السلم يستعين به الصاعد، ويحميه من السقوط. [عن المعجم الوسيط].

(١٨) أي النمر.

(٣) يقول المتنبي [كلَّما أنبتَ الزمانُ قناة ركَّبَ المرءُ في القناة سِنانًا].

٦ ـ رأس يرئس: كما حققها العالم اللغوي الشيخ عبدالقادر المغربي.

٧ ـ رضح: هذا هو معنى رضخ لا كما تستعمل اليوم.

• ٨ ـ الرمح الرديني: منسوب إلى ردينه وهى امرأة كانت تثقف الرماح

٩ ـ الريم: القبر.

١٠ ـ من آيات الله في ملكوته أن الرأس لا يكون إلا مذكراً في اللغة وفي الحياة ولكن أكثر الناس غفلوا عن الآيات فأنّثوه فقالوا بأقلامهم في صحفهم: هذه الرأس. وقالوا بأفعالهم في بيوتهم هي الرأس.

١١ ـ الرائي: كلمة وضعتها للتلفزيون، هي [اسم فاعل] بمعنى [اسم مفعول] على المجاز كقوله تعالى: [فهو في عيشة راضية] أي مرضية.

١٢ ـ الرواشين: جمع روشن وهو خص النافذة.

١٣ ـ [يرى نفسه] لا يزال هذا التعبير مستعملاً بمعنى [تكبر] عند عوام أهل الشام.

١٤ ـ الرسن: الزمام من عامي الشام الفصيح.

• ١٥ ـ الراد: [اسم فاعل من رد]، هو [الراديو] لأنه يرد الصوت الذي بعثه المذياع أمواجاً في الفضاء.

---

(٦) جاء في معجم الأخطاء الشائعة لمحمد العدناني: أن الصواب [يرأس]، المادة [٣٧٠] صفحة [٩٨] الطبعة [١٩٩٧م]، ونحو هذا في كتاب [صون اللسان] لمحمد الحسيني، صفحة [٧٧] وإن كنت أركن إلى رأي الطنطاوي، وأطمئن إليه دائماً.

(٧) قال في لسان العرب [رضح رأسه بالحجر يرضحه رضحا: رضه. والرضح مثل الرضخ: هو كسر الحصى أو النوى ثم قال: والخاء لغة ضعيفة].

(٩) في المعجم الوسيط [الرَّيْمُ: القبر]، والرِّيمُ: الظبي الخالص البياض وكذلك في اللسان والقاموس.

(١١) وردت هذه الآية في القرآن الكريم في موضعين:.
الأول: الآية [٢١] من سورة الحاقة.
الثاني: الآية [٧] من سورة القارعة.

١٦ ـ الرواد: جمع رادّ وهو الراديو، سميته راداً لأنه يرد علينا الصوت الذي يخرج علينا من الإذاعة.

١٧ ـ الرجا: واحد الأرجاء.

١٨ ـ الرغاء: صوت الإبل.

١٩ ـ الرحال جمع رحل، وهو للإبل كالسرج للفرس، ومنه اشتق كلمة رحل وارتحل والراحلة.

باب الزاي

١ ـ (زلال) كلمة عباسية مولدة معناها: السفينة الحربية.

٢ ـ الزمنة: المرض المزمن المُقعد.

٣ ـ الزمال: الحمار في عاميّة العراق. و الزاملة الذابة.

٤ ـ الزغاريد: هتاف النساء.

• ٥ ـ طريق [مزفت] و لا تقولوا [مسفلت].

٦ ـ كلمة المزفت: فصيحة وردت في الحديث، أما كلمة [سفلت] فهي مسخ ما له نسب.

٧ ـ زنْبيل: سله.

٨ ـ كلمة [زي] أصلها [سي]، ومنها جاء قولهم [لا سيما] وهي عربية بمعنى [مثل].

---

(٤) [زغردت المرأة: رددت صوتها بلسانها في فمها عند الفرح] المعجم الوسيط.

(٥، ٦) جاء في حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما الذي رواه البخاري في باب الأشربة قال «لما نهى النبي ﷺ عن الأسقية، قيل للنبي ﷺ «ليس كل الناس يجد سقاءً فرخص لهم في الجر غير المُزَفَّت»، [الزِّفت؛ بالكسر: كالقير، وقيل الزفت: القار، وعاء مزفَّت، وجرة مزفتة مطلية بالزفت] لسان العرب.

باب السين

١ ـ السواني: جمع سانية يدور فيها البغل ليستخرج بها الماء من البئر.

٢ ـ سُعْن: (السُعْن): قربة تقطع من نصفها و يُنبذ فيها وقد يستقى بها.

٣ ـ السكين مذكر، وحكي فيه التأنيث.

• ٤ ـ سن المعاش في الاصطلاح المصري، [والتقاعد] أصح عربية، وأقرب مدلولاً.

٥ ـ البسيكولوجيا: مؤلفة من كلمتين يونانيتين: [بسيشة] أي نفس و[لوجس] أي علم، وأصل معناها خطبة أو شرح.

٦ ـ السنة لأيام الجدب ومن ذلك قوله [أسنت القوم] و[أصابتهم السنة] والعام لأيام الخصب.

٧ ـ كلمة السوق مؤنثة و يجوز تذكيرها، والدرج جمع درجة فهي مؤنثة.

٨ ـ سائرها: أي باقيها.

٩ ـ السَّفْر: أي المسافرون مثل الوفد، الركب.

١٠ ـ سنغافورة: أصلها سينغا أو [سينيا] بور، أي ميناء الأسد.

١١ ـ سنين الرجل: لدته أي من كان في مثل سنه.

١٢ ـ السريالية أصلها: [Sur] أي فوق [Realite] أي الواقع.

---

(٥) سايكولوجيا: ومعناه [علم النفس وهو الدراسة العلمية للنفس البشرية من حيث قوانين عملها] انظر: كلمات غريبة صفحة [٢١٢] منصور الخميس.

(٦) انظر الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري، صفحة [٢٢٤].

(١٢) [السريالية: مذهب في الفن والأدب أسسه في باريس عام ١٩٢٤م الشاعر الفرنسي أندريه بريتون، والسريالية تعني ما فوق الواقعية]، الموسوعة العربية العالمية ج [١٢] صفحة [٢٤٢].

١٣ ـ سمَّع به: أشاع عنه قالة السوء.

١٤ ـ السبب: الحبل.

١٥ ـ سروال: العرب تقول سراويل.

١٦ ـ سِيف البحر بكسر السين: شاطئه.

باب الشين

١ ـ الشاطر: هو الذي أعيا أهله من خبثه.

٢ ـ الشهرة لا تكون في الأصل إلا في القبيح.

٣ ـ الشحط: البعد.

٤ ـ يشخرون و ينخرون: من العامي الفصيح.

٥ ـ الشيرج: هو دهن السمسم معرب شيرة، وعامة الشام ومصر تسميه اليوم: السيرج.

٦ ـ الشرعية والشريعة الطريق.

٧ ـ شيرشاه: أي الملك الأسد أو ملك الأسـود.

٨ ـ تشحذه: أي تسنّه وتحده لا تشحده !.

٩ ـ الفصيح هو الشرع لا التشريع و لكنه حرف تمكن من الألسنة والأقلام.

١٠ ـ أصل الشهرة في اللغة الفضيحة وفي الحديث: «من لبس ثوب شهرة ألبسه الله ثوب مذلة».

---

(٤) الشخير: [صوت من الحلق وقيل من الأنف، وقيل من الفم دون الأنف. النخير: صوت الأنف] لسان العرب.

(٨) [شحذ السكين والسيف ونحوهما يشحذ شحذا: أحده بالمسن وغيره مما يخرج حده] لسان العرب.

(١٠) الحديث رواه أبو داود وابن ماجه والإمام أحمد.

١١ ـ الشَّنف: القرُط [الحلَق].

١٢ ـ شام البرق يشيمه: نظر إليه أين يمطر.

١٣ ـ الشُّهرة: بالضم ظهور الشيء في شُنعة.

١٤ ـ الشيوخة: هي الشيخوخة.

١٥ ـ ما لامس الجسد من الثياب فهو الشعار، وما يلبس فوقه لطلب الدفء فهو الدثار.

١٦ ـ وردت كلمة الشباب جمع شاب، والأشهر أن تقول شبان.

١٧ ـ شُدِه: من الأفعال التي تأتي مبنية للمجهول.

١٨ ـ الشكلاطة: بتسكين الكاف والطاء تعريب كلمة [شوكولاتة].

١٩ ـ الشرع الجنائي: ولم يرد في لغة العرب لفظ التشريع.

٢٠ ـ الشمل الجميع: أي المجتمع.

باب الصاد

١ ـ [ليس الشديد بالصرعة] الصرعة: مدمن المصارعة ومحترفها، والمعنى المراد: أن قوة الأعصاب التي يملك بها المرء نفسه عند الغضب، أكبر من قوة المصارع الذي يغلب بها خصمه عند المباراة.

٢ ـ الصَّنجة: ما يوزن بها.

٣ ـ الصاب: المر كالعلقم و الصبر.

٤ ـ الصبابة: البقية، والصبابة: الصبوة والميل.

٥ ـ تطلق كلمة الصاحب على العامل و الوزير و منه: الصاحب بن عباد.

٦ ـ الصفاة والصخرة والمروة والصفوان والمروان: كله بمعنى واحد.

---

(١٦) هكذا في لسان العرب.

(١) هذا جزء من حديث رواه البخاري في كتاب الأدب برقم [٦١١٤].

باب الضاد

١ ـ الضَمِن: الزَمِن وزنا ومعنى، والضمانة / الزمانة.

٢ ـ ضُرباء: أمثال وأشباه.

٣ ـ الضهور: جمع ضهر: وهي ظهر الجبل من عامي لبنان الفصيح.

باب الطاء

١ ـ الطلحة: واحدة من شجر الطلح وهو شجر لا يثمر: والطلح أيضا شجر الموز.

٢ ـ طبيعي، هي الدائرة على أقلام البلغاء من القدم، وإن كان القياس طبعي.

٣ ـ الطبيعة [فعيلة] بمعنى مفعولة، والذي طبعها وأجراها على سنتها هو الله خالق كل شيء.

٤ ـ الطبيعي لا الطبعي كما يقول المتحذلقون، وإن كان القياس كما يقولون.

٥ ـ القياس في النسبة إلى الطبيعة (طبعي) ولكن (طبيعي) مستعملة من أكثر من ألف سنة.

٦ ـ طلح البعير: أي أعيا وتعب.

٧ ـ الطنب: الحبل الذي يُشَد به السرادق أو الوتد.

٨ ـ الطرف الأغر: المشهور أن اسمه[ترافلغار]مع أنها كلمة عربية أصلها طرف الغار.

---

(٨) ميدان الطرف الأغر في لندن سُمي بهذا الاسم تخليداً لمعركة (الطرف الأغر) التي حدثت عام ١٨٠٥م بين بريطانيا وفرنسا في عهد نابليون بونابرت، وانتصر فيها الأسطول البريطاني على الأسطولين الفرنسي والإسباني، عن الموسوعة العربية العالمية ج(١٥) ص ٥٧٥.

باب العين

١ ـ العياط والزياط: من الفصيح. .

٢ ـ العذير: النصير.

٣ ـ عجوز تُرَجِّي أن تكون فتيّةً وقد لحب الجنبان وأحدودب الظهر أي ذهب لحمها، ورجل ملحوب: قليل اللحم.

٤ ـ كلمة عجوز في الأصل للمرأة ولكنها عمَّت في الاستعمال.

٥ ـ العضْرَفُوط: من نوع الحرباء و الجرذون.

٦ ـ العقل والحكمة مشتقان من العقال والحكمة وهما القيد.

٧ ـ (عيّط) في الشام: صاح وفي العربية كذلك «تقريباً» وفي مصر بكى.

٨ ـ العيلة: الفقر.

٩ ـ العفوية: يدعونها في مصر التلقائية.

١٠ ـ عَنَاق: الجدي الصغير.

١١ ـ العَبرين: أي الجانبين.

١٢ ـ عَنَزَة: عصا في رأسها زُجٌ كالرمح الصغير.

١٣ ـ العدى: يُكتب بالياء وإن كان أصله الواو لمكان الكسرة التي في أوله.

١٤ ـ الإعدام بمعنى الموت لم تعرفه العرب وهو مولَّد ظهر على

(١، ٧) العياط: عاطت الناقة والمرأة: لم تحمل سنوات من غير عقم. «القاموس المحيط/ المعجم الوسيط» الزياط: الصياح «لسان العرب».

(٣) ذكره ابن عبد ربه في العقد الفريد ج [٤] صفحة [٤٦] ونسبه إلى أعرابي ولم يذكر اسمه. وكذا في (قول على قول) لحسن الكرمي •ج١ / ص ٢٦١.

(١١) [ويقال: فلان في ذلك العبير أي في ذلك الجانب وعبرت النهر والطريق أعبره عبراً وعبورًا إذا قطعته من هذا العبر إلى ذلك العبر] لسان العرب.

ألسنة المصنفين والمؤلفين، من القرن الثامن و الإعدام في اللغة الفقر، الذي عدم المال والذي أعدمه المال هو الله، لذلك قيل له (المعدَم) بفتح الدال.

١٥ ـ عصريه: أي معاصرة، ومعاصر ومثلها مواطن لم تُسمع عن العرب الأولين.

١٦ ـ العَقَّار: الدواء وجمعه عقاقير.

١٧ ـ العلم بالمعنى الخاص: كقولنا [علم النحو] و [علم الكيمياء]؛ فلعلمائنا فيه تعريفات كثيرة، ولكن أوضح تعريف وأبعده عن التعقيد هو ما عرفه به [سارتون] بقوله: «العلم مجموعة معارف محققة ومنظمة» فبقوله [معارف] خرجت المشاعر والخيالات، وبقوله [محققة] خرجت النظريات والفروض، وبقوله [منظمة] خرجت المعارف المبعثرة المتفرقة.

١٨ ـ كلمة عريان غير ممنوعة من الصرف.

١٩ ـ علم الخلاف أي الفقه المقارن، كما يقولون اليوم. و [الخلاف] بين علماء المذاهب المتعددة، و [الاختلاف] بين علماء المذهب الواحد.

٢٠ ـ العجَم [بفتح الجيم]: النوى و البذر.

٢١ ـ ينظر بعين قائمة: أي مفتوحة ولكنها لا تبصر.

٢٢ ـ العقب: مؤخر القدم.

٢٣ ـ العروس في اللغة للذكر و الأنثى.

٢٤ ـ واحد العقاقير، عقّار بالتشديد.

---

(١٨) (تمنع الصفة من الصرف إذا كانت على وزن فعلان، بشرطين: ألا تدخل التاء المربوطة في مؤنثها مثل [غضبان غضبى وعطشان عطشى] والشرط الثاني أن تكون صفة أصلية) الكامل في النحو صفحة [٢٣٧] أحمد قبّش.

(٢٢) ومن ذلك قول الحصين بن الحمام المرّي:.

فلسنا على الأعقاب تدمى كُلُومُنا ولكن على أقدامنا تقطر الدّما

٢٥ ـ رأيي أن نقول (عبيئة ناسفة) من عبأ، وفعيلة بمعنى مفعولة أي معبوءة مثل طبيعة مطبوعة.

باب الغين

١ ـ غلٌّ قَمِل: مثل يضرب للمرأة السيئة الخلق وقال في لسان العرب مادة (غل): قولهم في المرأة السيئة الخلق [غل قمل] أصله أن العرب إذا أسروا أسيراً غلوه بغل من قد [جلد] وعليه شعر فربما قمِل في عنقه.[خرج منه القمل إذا قب ويبس] فتجتمع عليه محنتان: الغل والقمل.

٢ ـ الغثرة: سفلة الناس.

٣ ـ الغضي: نبت من نبت البادية، شديد اخضراره، حامية نارة.

٤ ـ الغرض في الأصل الهدف أي المرمي.

٥ ـ تغط: من العامي الفصيح.

٦ ـ [غَوْل] لما كان عصر النهضة في أُوروبة تُرجمت الكتب العربية، فلم يجدوا في حروفها [غيناً] فقالوا عن الغول [آلكُول] ثم جعلها الأتراك [الكحول] وفي المعاجم الفرنسية نص على أن أصلها عربية، ولكنهم ظنوه من الكحل.

٧ ـ [غير] لا تُعرف ولا يقال فيها [الغير] لأنها أبلغ الألفاظ في التنكير، وربما أُلحق بها [كل] و [بعض] فمُنع أن يقال [الكل] و[البعض].

---

(٢٦) هذه الفائدة من غير الحواشي، وإنما هي إجابة على سؤال لغوي في كتاب:.
(فتاوى الشيخ على الطنطاوي). أما الفائدة الأخرىٰ من غير الحواشي فهي الفائدة رقم [٢] باب الباء، سمعتها من الشيخ في برنامجه (نور وهداية).

(١) انظر [مجمع الأمثال] لأبي الفضل الميداني ج٢/صفحة [٧١] رقم المثل [٢٦٧٤].

(٢) هكذا في القاموس المحيط.

(٥) [غَطّه في الماء يغطُّه غطاً: غطسه وغمسه] لسان العرب.

٨ ـ الغَوْغَاء: أي العامة.

٩ ـ غسان الذي ينسب إليه الغسانيون والغساسنة ليس رجلا، ولكنه نبع ماء نزلوا عليه وموضعه في جبل الدروز عند قرية سلطان باشا الأطرش.

باب الفاء

١ ـ فزره فانفزر فهو مفزور، من أعرق الكلمات في العامية الشامية والمصرية ومن استقرى وجد عامية الشام أفصح اللهجات العامية.

٢ ـ فلج: ظفر وفاز.

٣ ـ الفرنيه: الكاتو جمعها فراني، والشطيرة والشطائر الساندوتش.

٤ ـ الفول المدمس: من الديماس والديماس الفرن.

٥ ـ الفرع: أعلى الشيء. وفرع القوم: أشرفهم.

٦ ـ (فنان): ما في استعمال هذه الكلمة باس ولو كره المتحذلقون.

٧ ـ الفراني: جمع فرنيَّة وهى (الكاتو).

٨ ـ الفسكل: هو آخر خيول السباق.

٩ ـ الفضل: الزيادة.

١٠ ـ فطس: من العامي الفصيح.

---

(٩) قال في لسان العرب [وغسان: اسم ماء نزل عليه قوم من الأزد فنسبوا إليه].
(١) [الفزر بالفتح: الفسخ في الثوب، وفزر الثوب فزراً شقه] لسان العرب.
(٢) أورد الشيخ هذا المعنى في شرح غريب بيت لمحمد بن بشير الرياشي، يقول فيه:.
كم فتى قصرت في الرزق خطوته ... وألفيته بسهام الرزق قد فلجا
(٦) هذا من حيث أصل المعنى. قال في لسان العرب: [الفن: واحد الفنون، وهي الأنواع، والفن الحال، والفن الضرب من الشيء].
(١٠) قال في لسان العرب [فطس يفطس فطوساً إذا مات].

١١ ـ الفشل في اللغة: الضعف والكسل.

١٢ ـ الفلم: من غير ياء وهي كلمة أجنبية عربها المجمع العلمي في دمشق من قديم.

باب القاف

١ ـ قبرس بالسين: أقريطش / كريات.

٢ ـ القحافة: كل شيء قحفته من إناء أو غيره فأخذته بأجمعه.

٣ ـققّه: مثل قولهم اليوم: كخ و كح وهما فصيحتان.

٤ ـ القتاد شجر كثير الشوك ومنه اسم قتادة، كما نسمي نحن اليوم شوكة (شوكت).

٥ ـ أنا أرى أن نقول (قرن العشرين) بدلاً من قولهم (القرن العشرين).

٦ ـ قرن العشرين: هذا أصح من قولنا (القرن العشرين).

٧ ـ قدم القوم يقدمهم (على وزن نصر) أي تقدمهم.

٨ ـ قدم يقدم (على وزن علم يعلم) أي جاء.

٩ ـ يقال قدم يقدم [على وزن علم] إن جاء. وقدم يقدم [على وزن أكل] إذا تقدم القوم ومشى أمامهم.

١٠ ـ القِطّية: للقط (مصدرها صناعي) على وزن الإنسانية للإنسان.

١١ ـ القوس: مؤنثة وقد تُذكَّر.

١٢ ـ القلحة: صفرة الأسنان.

١٣ ـ القليب: البئر الواسعة.

---

(١٢) جاء في المعجم الوسيط [الفِيلمُ]: شريط تصويري أو تسجيلي جمعه أفلام، نسبة إلى مجمع اللغة.

(٣) قال في لسان العرب [القَقَّة: حدث الصبي].

١٤ ـ جمع القط: قطاط.

١٥ ـ قُنّة الجبل: قمّة الجبل.

١٦ ـ القاع: كلمة فصيحة أما القاعة بهذا المعنى فهي مولّدة ولكنها ليست غريبة تماما عن العربية.

باب الكاف

١ ـ وكائن رأينا: أى كثيراً مارأينا.

٢ ـ كوَّم الكومة وتكومت: من العامي الفصيح.

٣ ـ الكدية: الأرض الغليظة القوية، وأكدى أي بلغ هذه الأرض فلم يمكنه الحفر.

٤ ـ الكهل: من جاوز الرابعة والثلاثين ولم يجاوز الواحدة والخمسين.

٥ ـ الكديد: التراب الناعم.

٦ ـ الكَفر: بالفتح القرية، معرّب.

٧ ـ كزَّ: الكزازة الانقباض واليبس.

٨ ـ الكفاءة: لا معنى لها هنا فسموها شهادة (الكفاية)، إن لم يكن بدٌ من هذا اللفظ.

٩ ـ كيلو: كما أحفظ كلمة إغريقية معناها (١٠٠٠).

١٠ ـ الكيل علي وزن الميل معرب [كيلو متر].

١١ ـ كيل: على وزن ميل. والجمع أكيال [كيلو متر].

١٢ ـ كراكوز: معناها بالتركية العين السوداء، أو صاحب العين السوداء.

---

(٢) [كَوَّمَ الشيء: جمعه وألقى بعضه على بعض] المعجم الوسيط.

باب اللام

١ ـ اللت والعجن من العامي الفصيح.

٢ ـ اللدات: للصبيان . والأتراب: للبنات.

٣ ـ اللِّدات: المتقاربون في السن. اللدات للرجال والأتراب للنساء. لدة من ولد، مثل [عدة] من [وعد].

٤ ـ اللَّجء: مصدر لجأ وهو على وزن منع يمنع منعاً.

٥ ـ اللسان: بمعنى اللغة جمعه ألسن، أما العضو فجمعه ألسنة.

باب الميم

١ ـ المنامة: البيجامة.

٢ ـ المعجن: من العامي الفصيح.

٣ ـ مَخضْ الحليب: من العامي الفصيح.

٤ ـ موهن من الليل: منتصف الليل.

٥ ـ لا محالة: أي لابد (والبدُّ: المناص والمخلص).

٦ ـ الماء الملح: أي المالح.

٧ ـ المعشار، سانتي متر، والمعيشِير(مصغرة) ميليمتر.

٨ ـ المثامنة: المساومة و المقاولة.

٩ ـ المرط: كساء من خز أو صوف جمعه مروط.

١٠ ـ المعافاه: هي أن يعفو الرجل عن الناس ويعفوا عنه فلا يكون يوم القيامة قصاص. وقيل هي من العافية وذلك أن يعافيك الله من الناس ويعافيهم منك.

---

(٢) [المعجن: ما يُعجنُ فيه] المعجم الوسيط.

(٣) مخض الشيء مخضاً: حركه شديداً، ومخض اللبن: أخرج زبده «المعجم الوسيط».

١١ ـ (المشرعين) الصحيح أن تقول (الشارعين).

١٢ ـ مُرَيْئة: تصغير امرأة.

١٣ ـ المصانع: المباني و الآثار.

يبني الرجال وغيره يبني القرى شتان بين مصانع ورجال

وقال لبيد:

وتبقى الديار بعدنا والمصانع

١٤ ـ مُخْصيا: أي مختصاً أو أخصائياً.

١٥ ـ المحنة و الابتلاء والفتنة معناها كلها أو من معانيها الامتحان.

١٦ ـ المعصفر: المصبوغ بالعصفر.

١٧ ـ مَنْذا: هكذا يكتبونها (موصولة).

١٨ ـ الملوَّب: على وزن مكرَّم وهو ما يسميه الناس باللولب.

١٩ ـ مئة السنة: هذا هو التركيب الصحيح.

٢٠ ـ (مغلَّبة) كذلك نقول نحن في الشام وهى فصيحة صحيحة، وفي مصر يقولون غلْبانة.

٢١ ـ المطبق: السجن.

٢٢ ـ مُعْلَم: على وزن مُعْجَم خير عندي من (مَعْلَمَة) التي سموا بها الإنسكلوبيديا.

٢٣ ـ الملايرة: جمع مليونير، المؤلِّفون: أصحاب الآلاف.

٢٤ ـ المناظر: أي النوافذ و الشرفات.

٢٥ ـ مُزاح العلة: أزاح علته أي هيأ له الأسباب ولم يترك له ما يتعلل به. ومزاح العلة: أي خالٍ من الشواغل.

---

(١٦) [العصفر نبات صيفي من الفصيلة المركبة أنبوبية الزهر يستعمل تابلا، ويستخرج منه صبغ أحمر يصبغ به الحرير ونحوه] المعجم الوسيط.

(٢٠) [المُغَلَّب: المغلوب مراراً] لسان العرب.

(٢٢) [إنسكلوبيديا (Encyclobedia) كلمة إنجليزية تعني موسوعة] المورد ١٩٩٣م.

٢٦ ـ [المئة رطل] الفصيح أن يقال: مئة الرطل أو المئة الرطل.

٢٧ ـ مارستان: «بيمارستان» بمعنى مستشفى و عند العامة اليوم «دار المجانين».

٢٨ ـ المباحث: بحث: فتش، و المباحث في الأصل المكان المجهول.

٢٩ ـ كلمة المارد، و كلمة الجبار: من ألفاظ الذم، وإن أولع بها بعض المتأدبين و حسبوها من أوصاف الأبطال.

٣٠ ـ المصوتات: أردنا بها مُكبِرات الصوت.

٣١ ـ [المذاع] للقصة الإذاعية ؛ مثل [المنظر] للرواية المسرحية، أما [المشهد] فيمكن أن يُجعل له كلمة [مسمع]. هذه من السمع و تلك من الشهادة، أي النظر، وهذه كلمات جديدة اقترحها الآن.

٣٢ـ المهرق: الصحيفة.

٣٣ ـ مَهْيَمَ: كلمة استفهام، أي ما حالك، وما شأنك ؟.

٣٤ ـ كلمة مقهى فصيحة و [أقهى]: أي أدام شرب القهوة.

٣٥ ـ الذي اختاره العلماء أن تكتب (منذا) موصولة الحروف.

٣٦ ـ لا أدري لماذا يؤنث بعض الناس كلمة [مستشفى] كما يؤنثون. [الرأس] وكلاهما مذكر.

٣٧ ـ المعشار واحد من مئة [سانتي]، أما الميلي أي الواحد من الألف فهو معيشير [تصغير معشار].

٣٨ ـ مكره أخاك لا بطل: كذا حفظنا المثل والصواب [أخوك].

---

(٣٢) ذكر الشيخ ذلك عند شرحه لقول الشاعر:.

تراه إذا ما جئته متأملاً كسطر عبير خط في وسط مهرق

قال في لسان العرب: [المهرق: الصحيفة البيضاء يُكتب فيها] فارسي معرب.

(٣٨) [مُكرهٌ أخوكَ لا بطلٌ] أورده الميداني في مجمع الأمثال مجلد [٢] صفحة [٣٧٤] الرقم [٤١١٧] بهذا الضبط.

٣٩ ـ المحساب: كلمة وضعتها للكمبيوتر، كما وضعت من قبل كلمة رائي للتلفزيون، وكلمة الرادّ للراديو لأنه يردّ علينا الصوت الخارج من المذياع.

٤٠ ـ المظلة: إن كانت للشمس فهي مظلة أو شمسية وإن كانت لدفع المطر فإن ما يدفع المطر يسميه العرب [ممطر].

٤١ ـ المجهر: على وزن المنبر.

٤٢ ـ المعم المخول: أي الكريم الأعمام والأخوال.

٤٣ ـ المتحد: المتوحد المنفرد.

باب النون

١ ـ (نترت يدها) النتر من العامي الفصيح.

٢ ـ النادل: صبي القهوة، والحلوان: البقشيش وهو من العامي الفصيح.

٣ ـ نعسان من العامي الفصيح، الناعس أفصح منها.

٤ ـ نشفتْ: من العامي الفصيح.

٥ ـ ينوء بها: هذا هو التعبير الصحيح و إن كان عكسه هو الشائع.

٦ ـ ينوء بك: هذا هو التعبير الأصح: قال تعالى: ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ﴾.

---

(٤١) قال في المعجم الوسيط: المجهر: الميكروسكوب والجمع مجاهر.

(٤٢) قال امرئ القيس:.

فأوبرن كالجزع المفصّل بجيد مُعمٍّ في العشيرة مخولِ.

(١) «النتر: الجذب بجفاء، نَتره ينتره نترا» لسان العرب.

(٤) [نشف في اللسان: نشف الماء: يبس ونشفته الأرض نشفاً]. لسان العرب.

(٥، ٦) قال تعالى: «ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة»، سورة القصص ـ الآية [٧٦].

٧ ـ انتكاثك: انتقاضك و تحولك. .

٨ ـ نط في الأرض: ذهب وهي من العامي الفصيح.

٩ ـ النظام هو الخيط الذي تُنظم به حبات الخيط والسبحة والسلك الذي تسلك به.

١٠ ـ النظام: الخيط الذي يمسك حبات العقد أو السبحة.

١١ ـ نهدَ: أي نهض.

١٢ ـ نقص شيئاً منه بمعنى أنقص.

١٣ ـ نحر الظهيرة: شدتها، ونحر النهار أوله.

• ١٤ ـ نيودلهي: اسمها دهلي وقد سماها الإنكليز بلسانهم الأعوج: دلهي.

١٥ ـ النافورة والسطل: من العامي الفصيح.

١٦ ـ النداء المرخم تقول «ياعز» يجوز بفتح الزاي أو بضمها.

١٧ ـ الناضح: البعير الذي يُستسقى عليه.

١٨ ـ نطس: جمع نطاسِي وهو الطبيب الحاذق.

باب الهاء

١ ـ الهاون: من عامي الشام الفصيح.

٢ ـ الهَنَة: الشيء القليل.

---

(٧) ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾ سور الفتح ـ الآية (١٠).

(١٥) [النافورة: صنبور ونحوه يكون في الدور أو في الساحات أو في الحدائق، يندفع منه الماء بالضغط إلى أعلى، تبريداً للمكان أو تجميلاً] المعجم الوسيط.

[السطل: إناءٌ من معدن كالمرجل له علاّقة كنصف دائرة مركبة في عروتين (ج) أسطال وسطول، (معرب شطل بالفارسية)] المعجم الوسيط.

(١) قال في اللسان (الهاوون أي بواوين الأولى مضمومة الذي يدق به) عربي صحيح.

٣ ـ هِميان: نطاق تُجعل فيه النفقة و يُشد على الوسط.

٤ ـ [فها أنا] الفصيح: فهأنذا.

٥ ـ همج: من العامي الفصيح.

٦ ـ هتف بي: أي كلمني بالهاتف.

٧ ـ الهندام: كلمة فصيحة.

باب الواو

١ ـ الوهن والموهن نصف الليل.

٢ ـ وَهْن: أي بعد منتصف الليل.

٣ ـ ويب الناس: ويح الناس.

٤ ـ (وقف) يتعدى بنفسه ولم يُسمع عن العرب (أوقف).

٥ ـ يضح: هي الفعل المضارع من الفعل الماضي:[وضح]. ومثلها، وعظ: يعظ.

٦ ـ وضح، يضح: مثل وعد يعد.

٧ ـ الوزير عند الحادثة . المعين عند المصيبة.

٨ ـ ولك: كلمه شامية محرفة عن ويلك.

٩ ـ وكف يكف: أي نزل منه الماء على وزن [وعد يعد].

١٠ ـ الوظيفة في اللغة هي الراتب.

---

(٥) [الهمج: الرعاع من الناس لا نظام لهم] المعجم الوسيط.

(٧) الهندام: حسن القدّ وتنظيم الملابس [معرب أندام بالفارسية] كذا في لسان العرب والمعجم الوسيط.

(٧) قال تعالى: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾﴾ سورة طه الآية [٢٩] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَـٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ سورة الفرقان الآية [٣٥].

باب الياء

١ ـ يتغنى: أي يستغني و منه (ليس منا من لم يتغن بالقرآن).

٢ ـ اليوم في الأصل النهار.

٣ ـ يمان: نسبة إلى اليمن.

٤ ـ حنا ويوحنا وجان ويوهان وجوهان: كلها بمعنى يحيى.

فوائد متفرقة

١ ـ كتاب (دع القلق وابدأ الحياة)، أخطأ المترجم، وكان ينبغي أن يقول (الهم) لا (القلق).

٢ ـ لا يُجمع في القياس حظ على أحاظِى.

٣ ـ يخلط الناس في الاستعمال بين العام و السّنة، وهما مترادفان ولكن ليس في اللغة كلمتان بمعنى واحد (انظر كتاب الصاحبي وكتاب الفروق اللغوية) ولابد من اختصاص كل لفظ بشيء لاتدل عليه الأخرى، فالسنة في الأصل للشدة والقحط والعام لليسر وللرخاء (اقرأ آيات سورة يوسف) والسنة عند العرب مرادفة الشدة و البلاء، تقول أصيبوا بالسنين، وأصابتهم السنة. والعام للسنة الشمسية والسنة القمرية، ومن تتبع كلام العرب وجد ذلك مستفيضاً.

٤ ـ المائدة الملوكية: القياس ملكي ولكن البلغاء قالوا: (ملوكي) كما قالوا: رسائل إخوانية، وغيرها والجمع إذا أجرى مجرى العلم جازت النسبة

---

(١) الحديث رواه البخاري: في كتاب التوحيد برقم [٧٥٢٧].

(١) المراد كتاب (دع القلق وابدأ الحياة) للكاتب الأمريكي (ديل كارنيجي) والذي ترجمه هو (عبد المنعم محمد الزيادي).

(٣) أورد أبو هلال العسكري في كتابه النفيس [الفروق اللغوية]، نحو هذه الفروق في الباب الخامس والعشرين صفحة [٢٢٤].

إليه كما قالوا: عالم أصولي و رجل شعوبي.

٥ ـ (الكتب الصفراء): يعنون بالكتب الصفراء الكتب الإسلامية التي تحتوى أجل تراث علمي ومنها خلاصة ما أنتجته عقول أربعة عشر قرناً،وذلك أنهم جهلوا هذه العلوم ثم لم يستروا جهلهم بسكوتهم، بل ضموا إليه الوقاحة و الرقاعة والإلحاد.

٦ ـ إذا جاز أن نقول: (يا ترى) فلم لا نقول: (يا تبصر) ؟ فننجو من هذا الابتذال ونأتي بجديد والإعراب في كليهما واحد فقدر لـ(يا) منادى وخاطبه.

٧ ـ قصروا جمع (فعل) على (أفعال) على المعتل مثل (أبيات وأسياف) وقالوا لم يأت منه صحيحاً إلاً كلمات دون العشر كـ (أفراح وأخواتها) وقد استدرك المتأخرون على المتقدمين نحواً من ثلاثين كلمة من الصحيح، فدل ذلك أنه يطرد في الصحيح والمعتل على السواء، وأن مجد تُجمع على أمجاد.

٨ ـ الخمس السنين: كذا يقال، وأفصح منه أن نقول: خمس السنين.

٩ ـ «كل عام وأنتم بخير» إذا لم يكن بدٌّ من هذا التعبير فاحذفوا واو (وأنتم)، قولوا: كلَّ عام أنتم بخير.

١٠ ـ عالم كير: قائد العالم.

أورانك زيب: زهرة الملك.

شاهجان: ملك الدنيا.

جهاجير: قائد الدنيا.

١١ ـ لم لا نقول في ترجمة (سبور) رجل صبور؟.

١٢ ـ من جهالات المقلدين اتخاذهم القرون الوسطى رمزاً للتأخر والانحطاط والجهل وإنها لكذلك ولكن في أوربة، أما عندنا فالقرون الوسطى هي عهد الحضارة الإسلامية.

١٣ ـ تجوز النسبة إلى الجمع إذا جرى مجرى العلم فتقول:

[حقوق دُوَلية]، [قوانين عمالية]، [مسائل عقائدية]. كما قالوا كذلك [عالم أصولي] و[رجل أنصاري] و[مائدة ملوكية] و[رسائل إخوانية].

١٤ ـ تكسر همزة [إن] بعد فعل القول أي [قال، يقول] إذا جئت بنص القول. فإن حكيته فتحتها. فجملة [قال إني ذاهب] بكسر الهمزة، وجملة [قال أنه ذاهب] بفتحها.

١٥ ـ يلجؤون: من الناس من يضع همزة هذه الكلمة على الألف.

[يلجأون] وهو غلط. ومنهم من يضعها على مدة هكذا.

[يلجئون] إذ يرسمون الهمزة على [كرسي] بعد الجيم، والصواب ـ فيما أرى ـ هو ما رسمتها عليه [يلجؤون].

١٦ ـ لا تدخل لام التعريف على الاسم المنفي مثل قولهم [لا شعور] ولكنهم أدخلوها عليها كما فعل المناطقة وأمثالهم حين أدخلوها على [كم] أو [كيف] ثم قالوا الكمية والكيفية كما قالوا [الماهية] من قولك [ما هي] كما قالوا [التلاشي] وقالوا [تلاشى] أي صار لاشيء وكل ذلك مخالف للفصيح.

١٧ ـ الأتراك يقولون للشيخ: المولى فلان، والهنود يقولون: مولانا. والأكراد يقولون: الملاّ، وفي إندونيسيا يقولون: الكياي.

١٨ ـ النقيضان لا يجتمعان ولا ينعدمان، كالوجود والعدم. والضدان لا يجتمعان ولكن قد ينعدمان كالسواد والبياض.

١٩ ـ السنة والمندوب والمستحب: ما يثاب فاعله ولا يعاقب تاركه.

٢٠ ـ وردت في اللغة أفعال كثيرة مبنية للمجهول مثل [عُني بالأمر، واضطر إليه، وجُنّ] وأمثالها.

٢١ ـ اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً، هذا ليس بحديث ولكن يمكن أن يُفسر تفسيراً يوافق ما صح من الحديث، هو أن تستعجل في عمل الخير الذي ينفعك إن مت غداً، أما أمور الدنيا فعالجها على مهل فإن أمامك وقتاً طويلاً تعالجها فيه فلا تستعجل.

٢٢ ـ يقاوي: أي يسابق، ووزن [فاعلته] بهذا المعنى قياسي يقال:

جاريته أي سابقته في الجري، وكاتبته أي سابقته في الكتابة، و راميته أي سابقته في الرمي.

٢٣ ـ تقول العرب: أقر الله عينه عن الضحك و السرور.

فقال المولدون: سخنت عينه يكنون بها عن البكاء.

٢٤ ـ «هذه هي القبَّرة التي أراد لها حُمقها أن تقلد الغراب فنسيت علي جمالها مشيتها» علي جمالها أي جمال المشية، ويجوز أن يُعاد الضمير إلي متأخر في اللفظ إن كان متقدماً في الرتبة.

٢٥ ـ ما بين كل صفين من الأعمدة كانوا يسمونه بلاطة، وتسمى اليوم [معزبة].

٢٦ ـ المدينة الملوكية: النسبة صحيحة مستعملة من القدم و إن كان القياس [ملكية] ومثلها في النسبة إلى الجمع: رجل أنصاري، ورسالة أخوانية، ومسألة أصولية ومثلها قضايا عمالية، ومشكلات طلابية.

٢٧ ـ التبشير و الاستعمار من أسماء الأضداد، وما هما إلا التكفير و الخراب.

٢٨ ـ مثل الأطرش في الزفة: الزفة عربية فصيحة، والطرش والأطروش عربية مولدة.

٢٩ ـ يقال [الثلاثينيات] أي عشر الثلاثين [١٩٣١ ـ ١٩٣٩].

٣٠ ـ كلمة [قرؤوها] كنا نكتب همزتها على الألف، ولكن ما أثبته هنا هو الصواب لأن الكسرة أقوى الحركات فإن كانت الهمزة مكسورة أو كان ما قبلها مكسوراً وضعت على نبرة. فإن لم يكن كسر وكانت هي مضمومة أو ما قبلها مضموماً فعلى واو، وإن كانت مفتوحة فعلى ألف. إلا إن كان ما قبلها ياءً ساكنة مثل [هيئة].

٣١ ـ كما قالوا: البسملة، والحمد له، قالوا الدمعزة: أي أدام الله عزك.

---

(٢٨) [الأطرش: الأصم] المعجم الوسيط [ليلة الزفاف: ليلة العرس، الزفة: المرة، يقال جئتك زفة أو زفتين] المعجم الوسيط.

والطبقلة: أي أطال الله بقاءك، وهي وأمثالها مولدة ليست من الفصيح.

٣٢ ـ مما ذكروا من الفروق بين سنة وعام أن الأولى للسنة القمرية والعام للسنة الشمسية.

٣٣ ـ مرعى ولا كالسعدان، وماء ولا كصداء، من أمثال العرب والمعنى أن هذا نبات يصلح للرعي، و لكنه لايبلغ في الحسن مبلغ.

[السعدان] ويقول الكتّاب اليوم: [رجل ولا كالرجال] يريدون أنه رجل لا تبلغ مقامه الرجال، تعبير يستعمله الكتاب حتى الكبار منهم كالعقاد رحمه الله، وهو بعكس ما يقصدون معناه أنه رجل ولكن لا يبلغ مبلغ الرجال لأنه دونهم لا أنه فوقهم كما يحسبون.

٣٤ ـ من بلغ الجامعة سُمي طالباً ومن كان في الابتدائية أو المتوسطة فهو تلميذ.

٣٥ ـ الأولى أن نقول [عشر الثلاثين] ولكني رأيتهم يقولون.

[الثلاثينات] فقلت: إن لم يكن بد فلتكن (الثلاثينيات والأربعينيات) على النسبة إلى الثلاثين والأربعين، ومشت في الناس.

٣٦ ـ أسمع كل يوم في المسابقات من يقول: المتسابق فلان الفلاني يدعوه المتسابق وإنما الصواب أن يقول (المسابق) فالواحد مقاتل والاثنان متقاتلان، لأن تفاعل صيغة مشاركة، فكيف يكون متسابقاً وما ثم إلا هو؟ أيسابق نفسه؟.

٣٧ ـ رأيت على غلاف مجلة تصدر هنا لها وزن ولها مكان بالحرف

---

(٣٢) انظر حاشية الفائدتين [السادسة في باب السين، صفحة ٥٣] و[الثالثة في باب الفوائد المتفرقة، صفحة ٩١] من هذا الكتاب.

(٣٣) [مرعىً ولا كالسعدان] ـ مجمع الأمثال للميداني مجلد [٢] صفحة [٣٢٥] الرقم [٣٨٣٦] [ماءٌ ولا كصداء] ـ مجمع الأمثال للميداني مجلد [٢] صفحة [٣٢٧] الرقم [٣٨٤٢].

(٣٧) الآية رقم [٦١] من سورة البقرة.

الكبير هذه الجملة: [من مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم العاهل السعودي: استبدل مسمى صاحب الجلالة بخادم الحرمين الشريفين]. فصعب عليّ أن يكون في هذه الجملة الواحدة غلطتان لغويتان ورأيت أن الواجب عليّ أن أنبه إليها.

الأولى: أن الصواب أن تقول: استبدل لقب خادم الحرمين الشريفين بلقب صاحب الجلالة، لأن الباء إنما تدخل على ما تُرك. قال تعالى ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ﴾.

والثانية: أن الاستبدال ليس في المسمى (حفظه الله وأبقاه) ولكن للاسم أو هو على الأصح لِلَّقَب.

٣٨ ـ قول شوقي (كاد المعلم أن يكون رسولاً) الفصيح أن تحذف (أن) هذه.

٣٩ ـ إن رأتني تميل عني كأن لم تـك بـيـنـي وبـيـنـهـا أشـيـاء

يجوز هنا رفع فعل الجواب وجزمه لأن فعل الشرط جاء ماضياً.

٤٠ ـ تذعذع: أي تُميل.

* * *

(٣٩) هذا البيت لأحمد شوقي من قصيدة [خدعوها] الشوقيات ج [١] صفحة [٤٠٣].

فهرس الموضوعات
التي ذكرت فيها الفوائد اللغوية

باب الهمزة

رقم الفائدة	المرجع	الموضوع الذي اشتمل الفائدة	صفحة المرجع
١٥	قصص من الحياة	قصة سمرقند	٧٨
١٦	رجال من التاريخ	سيد رجال التاريخ	٢٣
١٧	رجال من التاريخ	الفقيه الأميرال	١٥٥
١٨	في سبيل الإصلاح	مستقبل الأدب	٣٦
١٩	في سبيل الإصلاح	في القهوة	١٤١
٢٠	في سبيل الإصلاح	إلى علماء مصر	١٨٨
٢١	في سبيل الإصلاح	النشيد السوري	٢٠٩
٢٢	مع الناس	صور من تاريخنا العلمي	١٧١
٢٣	هتاف المجد	من حديث الجهاد	١٩٧
٢٤	فصول إسلامية	خطب الجمعة	١٢٦
٢٥	تعريف بدين الإسلام	الإيمان باليوم الآخر	١٠١
٢٦	تعريف بدين الإسلام	الإيمان بالرسل	١٦٨
٢٧	صيد الخاطر	التسليم للقضاء والرضا بالقدر	٢٥٦
٢٨	صيد الخاطر	مخالطة العلماء للسلاطين وأضرارها	٣١٣
٢٩	دمشق	هذي دمشق	٢٠
٣٠	دمشق	الجلاء عن دمشق	٨٥
٣١	أعلام التاريخ	عبد الرحمن بن عوف	٢٩
٣٢	الذكريات (٢)	الحلقة (٣٤)	١١
٣٣	الذكريات (٢)	الحلقة (٦١)	٢٧٠
٣٤	الذكريات (٣)	الحلقة (٧٢)	٧٣
٣٥	الذكريات (٥)	الحلقة (١٤١)	١٦٧
٣٦	الذكريات (٥)	الحلقة (١٥٢)	٢٨٩

* * *

باب الباء

رقم الفائدة	المرجع	الموضوع الذي اشتمل الفائدة	صفحة المرجع
١	مقالات في كلمات	أطفال	٣٥
٢	برنامج نور وهداية	برنامج نور وهداية	*
٣	مقالات في كلمات	معلمة	١٠٦
٤	من نفحات الحرم	المنزل الأول للبشر	٥١
٥	صور وخواطر	في الحب	٢١٩
٦	أبو بكر الصديق	مقدمة الطبعة الثالثة	٧
٧	أبو بكر الصديق	مرضه واستخلافه ووفاته	٢٣٨
٨	القضاء في الإسلام	القضاء في الإسلام	٩
٩	من حديث النفس	عيدي الذي فقدت	٦٨
١٠	من حديث النفس	في لج البر	٢١٤
١١	تعريف بدين الإسلام	تعريفات	٣٥
١٢	تعريف بدين الإسلام	الإيمان بالقدر	١٣٤
١٣	صيد الخاطر	تذهب اللذة ويبقى العقاب	١٨٤
١٤	قصص من الحياة	الكأس الأولى	٤١
١٥	قصص من الحياة	طبق الأصل	٦٩
١٦	قصص من الحياة	طبق الأصل	٦٩
١٧	دمشق	الجلاء عن دمشق	٩٠
١٨	دمشق	مكتب عنبر	١٤١
١٩	صور من الشرق	سورابايا	١٦١
٢٠	الذكريات (١)	الحلقة (١١)	٨٨
٢١	الذكريات (٢)	الحلقة (٤٣)	٨٢
٢٢	الذكريات (٢)	الحلقة (٥٠)	١٤٦
٢٣	الذكريات (٢)	الحلقة (٦٢)	٢٧٨

رقم الفائدة	المرجع	الموضوع الذي اشتمل الفائدة	صفحة المرجع
٢٤	الذكريات (٣)	الحلقة (٧١)	٦٦
٢٥	الذكريات (٣)	الحلقة (٩٦)	٣٠٢
٢٦	الذكريات (٥)	الحلقة (١٥١)	٢٨١
٢٧	الذكريات (٥)	الحلقة (١٥١)	٢٨١
٢٨	الذكريات (٧)	الحلقة (١٨٠)	٢٣
٢٩	الذكريات (٧)	الحلقة (١٩٢)	١٥٧
٣٠	مقدمات الطنطاوي	تقديم / لمحات في علوم القرآن	١٣٣
٣١	مقدمات الطنطاوي	تقديم / محمد نصيف حياته وآثاره	٢٣٠

باب التاء

رقم الفائدة	المرجع	الموضوع الذي اشتمل الفائدة	صفحة المرجع
١	فكر ومباحث	من شوارد الشواهد	٨٣
٢	أخبار عمر	عمر أمير المؤمنين	٥٥
٣	رجال من التاريخ	قاهر كسرى	٥٥
٤	رجال من التاريخ	من ورثة الأنبياء	١٠٥
٥	تعريف بدين الإسلام	توحيد الألوهية	٧٥
٦	صيد الخاطر	عجز الخلق عن فهم حكمة الخالق	١٩٦
٧	قصص من الحياة	العجوزان	٦٠
٨	الذكريات (١)	الحلقة (٣١)	٢٥١
٩	الذكريات (١)	الحلقة (٣٢)	٢٥٨
١٠	الذكريات (٦)	الحلقة (١٥٦)	٣٢
١١	الذكريات (٧)	الحلقة (١٨٨)	١١٦

* * *

باب الثاء

رقم الفائدة	المرجع	الموضوع الذي اشتمل الفائدة	صفحة المرجع
١	أبو بكر الصديق	نسبه وصفته	٥٥
٢	مقدمات الطنطاوي	مقدمة كتاب / أبو بكر الصديق	٢٤٦

باب الجيم

رقم الفائدة	المرجع	الموضوع الذي اشتمل الفائدة	صفحة المرجع
١	مقالات في كلمات	عتابا	١٧٢
٢	من نفحات الحرم	في تبوك	١٠٢
٣	أخبار عمر	عمر والإدارة العامة	١٣٤
٤	القضاء في الإسلام	القضاء في الإسلام	١١
٥	رجال من التاريخ	قاهر كسرى	٥٤
٦	رجال من التاريخ	الاحتفال بالمولد	٢٧٢
٧	في سبيل الإصلاح	إلى القرية يا شباب	٦٢
٨	في سبيل الإصلاح	يا أيها الأغنياء	١١٨
٩	مع الناس	رسالة	١٦٤
١٠	صيد الخاطر	مقدمة	٢٥
١١	صيد الخاطر	النظافة	١٠١
١٢	صيد الخاطر	حذار من المعاصي	١٨٠
١٣	الذكريات (١)	الحلقة (٧)	٥٧
١٤	الذكريات (١)	الحلقة (١٦)	١٦٣
١٥	الذكريات (١)	الحلقة (٣٤)	٢٧٦

باب الحاء

رقم الفائدة	المرجع	الموضوع الذي اشتمل الفائدة	صفحة المرجع
١	مقالات في كلمات	الشهرة	١٢١

رقم الفائدة	المرجع	الموضوع الذي اشتمل الفائدة	صفحة المرجع
٢	صور وخواطر	مجانين	٥٢
٣	دمشق	مكتب عنبر	١٤٢
٤	من نفحات الحرم	فر من الموت وفي الموت وقع	٨٤
٥	صور وخواطر	ديوان الأصمعي	٢٢٣
٦	أبو بكر الصديق	أبو بكر الصديق	٣٩
٧	أبو بكر الصديق	بناء المسجد النبوي	١١٧
٨	فكر ومباحث	من شوارد الشواهد	٧٩
٩	أخبار عمر	عمر مع الناس	٣٤٤
١٠	غزل الفقهاء•	فكر ومباحث	٧
١١	في سبيل الإصلاح	في منظار الخفيف	٧١
١٢	القضاء في الإسلام	القضاء في الإسلام	١٠
١٣	رجال من التاريخ	مع بعض مشايخي	٤٥٧
١٤	غزل الفقهاء	فكر ومباحث	٢٠
١٥	فصول إسلامية	موقفنا من الحضارة الغربية	٨٨
١٦	فتاوى الطنطاوي	طفل الأنابيب	١٠٢
١٧	صيد الخاطر	الابتعاد عن الفتنة	٤٦
١٨	صيد الخاطر	من حديث النفس	٩٥
١٩	دمشق	الجلاء عن دمشق	٨٠
٢٠	أبو بكر الصديق	مرضه واستخلافه ووفاته	٢٣٣
٢١	الجامع الأموي	في الحرم	٢٧
٢٢	بغداد	فلم بغداد	٢٣
٢٣	أعلام التاريخ	أحمد بن عرفان الشهيد	١٨
٢٤	حكايات من التاريخ	المجرم ومدير الشرطة	٤٧
٢٥	الذكريات (١)	الحلقة (٢٤)	١٩٣

باب الخاء

رقم الفائدة	المرجع	الموضوع الذي اشتمل الفائدة	صفحة المرجع
١	صور وخواطر	بين البهائم والوحوش	١١٢
٢	صور وخواطر	أنا والإذاعة	١٧٣
٣	أخبار عمر	طعامه	١٨٥
٤	قصص من التاريخ	حكاية الهميان	٢٤٨
٥	رجال من التاريخ	شاعر يرثي نفسه	١٦٩
٦	في سبيل الإصلاح	المشكلة الكبرى (٢)	١٨٣
٧	مع الناس	الحب والزواج	٥٥
٨	من حديث النفس	الشفاء	١٠٣
٩	من حديث النفس	في لج البحر	٢٠٩
١٠	فتاوى الطنطاوي	تعليق الطلاق	١٩٣
١١	صور من الشرق	في جاكرتا	٦٩
١٢	الذكريات (١)	الحلقة (١٨)	١٤٦
١٣	الذكريات (٣)	الحلقة (٨٠)	١٤٣

باب الدال

رقم الفائدة	المرجع	الموضوع الذي اشتمل الفائدة	صفحة المرجع
١	من نفحات الحرم	على غار حراء	١٩
٢	من نفحات الحرم	فر من الموت وفي الموت وقع	٨٣
٣	فكر ومباحث	من شوارد الشواهد	٩١
٤	فكر ومباحث	تعبير المنام لابن قتيبة	١٨٩
٥	صور وخواطر	مجانين	٥٢
٦	صور وخواطر	بين البهائم والوحوش	١١٣
٧	صور وخواطر	حكمة القدر	١٢٢

رقم الفائدة	المرجع	الموضوع الذي اشتمل الفائدة	صفحة المرجع
٨	صور وخواطر	في الحب	٢١٢
٩	أخبار عمر	عمر والفتوح	٦٦
١٠	أخبار عمر	شكاوى وتحقيقات	١٥٠
١١	قصص من التاريخ	عشية وضحاها	١٨٨
١٢	قصص من التاريخ	حكاية الهميان	٢٤١
١٣	في سبيل الإصلاح	صديقي رمضان	٢٠٤
١٤	قصص من الحياة	قصة أب	٥٢
١٦	الجامع الأموي	جولة في الأموي	٢١
١٧	دمشق	الجلاء عن دمشق	٨٠
١٨	بغداد	ثورة دجلة	٨٥
١٩	أعلام التاريخ	عبد الرحمن بن عوف	٢٠
٢٠	الذكريات (١)	الحلقة (٣)	٢٥
٢١	الذكريات (٢)	الحلقة (٥٢)	١٦٧
٢٢	الذكريات (٣)	الحلقة (٩٠)	٢٤٥

باب الراء

رقم الفائدة	المرجع	الموضوع الذي اشتمل الفائدة	صفحة المرجع
١	من نفحات الحرم	على غار حراء	٢٠
٢	فكر ومباحث	من شوارد الشواهد	٨٨
٣	فكر ومباحث	من شوارد الشواهد	٩٦
٤	صور وخواطر	رمضان	١٦٥
٥	صور وخواطر	يوم مع الشيطان	١٨٩
٦	قصة حياة عمر	قصة حياة عمر	١٢
٧	قصص من التاريخ	عشية وضحاها	١٨٧
٨	رجال من التاريخ	شاعر يرثي نفسه	١٦٩

رقم الفائدة	المرجع	الموضوع الذي اشتمل الفائدة	صفحة المرجع
٩	رجال من التاريخ	شاعر يرثي نفسه	١٧١
١١	تعريف بدين الإسلام	تعريفات	٣٤
١٢	صيد الخاطر	مقدمة	١٣
١٣	صيد الخاطر	من ظن أنه خير من غيره فقد تكبر	٢٥٠
١٤	قصص من الحياة	شيخ في مرقص	١٦٣
١٥	دمشق	على سفوح جبل الشيخ	١٣٢
١٦	بغداد	من دمشق إلى دير الزور	١١٩
١٧	الذكريات (٢)	الحلقة (٤١)	٦٤
١٨	بغداد	من دمشق إلى دير الزور	١١٦
١٩	الذكريات (٧)	الحلقة (٢٠٧)	٣٠٨

باب الزاي

رقم الفائدة	المرجع	الموضوع الذي اشتمل الفائدة	صفحة المرجع
١	قصص من التاريخ	وديعة الله	٤١
٢	صيد الخاطر	حق البدن	١٣٠
٣	قصص من الحياة	على صفحة دجلة	١٢٥
٤	دمشق	الجلاء عن دمشق	٨٠
٥	صور من الشرق	من عمان إلى بغداد	٢٢
٦	الذكريات (٣)	الحلقة (٧٢)	٧٥
٧	حكايات من التاريخ	المجرم ومدير الشرطة	١٤
٨	الذكريات (٢)	الحلقة (٤٤)	٩٤

باب السين

رقم الفائدة	المرجع	الموضوع الذي اشتمل الفائدة	صفحة المرجع
١	صور وخواطر	في الترام	١٠٤

رقم الفائدة	المرجع	الموضوع الذي اشتمل الفائدة	صفحة المرجع
٢	أخبار عمر	طعامه	٢٨٣
٣	قصص من التاريخ	وديعة الله	٣٨
٤	من حديث النفس	في لج البحر	٢١١
٥	فتاوى الطنطاوي	استحضار الأرواح	٢١
٦	صيد الخاطر	الصبر على التقوى	١٣٧
٧	الجامع الأموي	خاتمة	٨١
٨	بغداد	سُرَّ من رأى	٤٤
٩	بغداد	من دمشق إلى دير الزور	١٢٢
١٠	صور من الشرق	في الملايا	٣٢
١١	الذكريات (١)	الحلقة (١٥)	١٢٠
١٢	الذكريات (١)	الحلقة (١٦)	١٢٣
١٣	الذكريات (٣)	الحلقة (٦٦)	٢٠
١٤	الذكريات (٥)	الحلقة (١٣٤)	٩٤
١٥	الذكريات (٥)	الحلقة (١٤٦)	٢١٨
١٦	الذكريات (٦)	الحلقة (١٦٨)	١٦٧

باب الشين

رقم الفائدة	المرجع	الموضوع الذي اشتمل الفائدة	صفحة المرجع
١	مقالات في كلمات	في جامع التوبة	٤٢
٢	مقالات في كلمات	موازين الرجال	١٩٥
٣	فكر ومباحث	من شوارد الشواهد	٨٧
٤	صور وخواطر	أنا والإذاعة	١٧٦
٥	قصص من التاريخ	وديعة الله	٣٨
٦	رجال من التاريخ	بقية الخلفاء الراشدين	٢٢٧
٧	رجال من التاريخ	بقية الخلفاء الراشدين	٢٢٧

رقم الفائدة	المرجع	الموضوع الذي اشتمل الفائدة	صفحة المرجع
٨	هتاف المجد	تحية البطلين	١٢٤
٩	فصول إسلامية	إلى شباب الأزهر	٢٤٩
١٠	فصول إسلامية	ماذا يراد بالأزهر	٢٥٧
١١	تعريف بدين الإسلام	بين يدي الكتاب	١٣
١٢	صيد الخاطر	الابتعاد عن الفتنة	٤٦
١٣	قصص من الحياة	في جبال الشام	٨٣
١٤	قصص من الحياة	على ثلوج حزرين	١٩٣
١٥	الذكريات (٢)	الحلقة (٦٤)	٣٠٠
١٦	الذكريات (٣)	الحلقة (٦٦)	٢٠
١٧	الذكريات (٤)	الحلقة (١٠٢)	٤٢
١٨	الذكريات (٧)	الحلقة (١٨١)	٣٧
١٩	الذكريات (٨)	الحلقة (٢١١)	١٩
٢٠	الذكريات (٨)	الحلقة (٢٢١)	١٣٨

باب الصاد

رقم الفائدة	المرجع	الموضوع الذي اشتمل الفائدة	صفحة المرجع
١	تعريف بدين الإسلام	الإيمان بالرسل	١٧٦
٢	صيد الخاطر	عبرة العثرة	١٢٨
٣	صيد الخاطر	اتباع القرآن	١٢٨
٤	صيد الخاطر	وجوب التوبة والعمل للآخرة	١٨٣
٥	صيد الخاطر	استعينوا على قضاء حوائجكم ..	٢٣٤
٦	الذكريات (٣)	الحلقة (٦٦)	١٩

باب الضاد

رقم الفائدة	المرجع	الموضوع الذي اشتمل الفائدة	صفحة المرجع
١	فكر ومباحث	من شوارد الشواهد	٨١
٢	أخبار عمر	عمر والأموال العامة	١٠٢

رقم الفائدة	المرجع	الموضوع الذي اشتمل الفائدة	صفحة المرجع
٣	قصص من الحياة	على ثلوج حزرين	١٩٦

باب الطاء

رقم الفائدة	المرجع	الموضوع الذي اشتمل الفائدة	صفحة المرجع
١	من نفحات الحرم	أول ليلة في البادية	٨٦
٢	صور وخواطر	يا بنتي	١٥٧
٣	الجامع الأموي	حياة الأموي	١٥
٤	رجال من التاريخ	أكبر ملوك الأرض	١٢١
٥	فصول إسلامية	موقفنا من الحضارة الغربية	٧٩
٦	صيد الخاطر	من حديث النفس	٩٥
٧	أبو بكر الصديق	أبو بكر الصديق	٣٨
٨	الذكريات (٣)	الحلقة (٦٧)	٢٦

باب العين

رقم الفائدة	المرجع	الموضوع الذي اشتمل الفائدة	صفحة المرجع
١	مقالات في كلمات	حفلة	٢٢٧
٢	فكر ومباحث	من شوارد الشواهد	٨٢
٣	فكر ومباحث	من شوارد الشواهد	٨٤
٤	صور وخواطر	زورق الأحلام	٢٣٥
٥	صور وخواطر	في الترام	١٠٠
٦	صور وخواطر	يوم مع الشيطان	١٩٤
٧	في سبيل الإصلاح	بين الزوجين	١٩٧
٨	صور وخواطر	وقفة على طلل	٢٦٢
٩	أبو بكر الصديق	مقدمة الطبعة الثالثة	٨
١٠	أبو بكر الصديق	مقدمة الطبعة الثالثة	١٦

رقم الفائدة	المرجع	الموضوع الذي اشتمل الفائدة	صفحة المرجع
١١	أبو بكر الصديق	إسلامه وإسلام ناس معه	٧٧
١٢	قصة حياة عمر	قصة حياة عمر	١٢
١٣	قصص من التاريخ	عشية وضحاها	١٨٩
١٤	رجال من التاريخ	سلطانة الهند	٢٥٧
١٥	رجال من التاريخ	الاحتفال بالمولد	٢٦٩
١٦	هتاف المجد	إعلان حرب	١١٩
١٧	تعريف بدين الإسلام	تعريفات	٣٤
١٨	صيد الخاطر	عزلة العلماء	٢١١
١٩	صيد الخاطر	درس للشباب والشيوخ	٢٢١
٢٠	صيد الخاطر	التفكير في عظم الخالق	٣٤١
٢١	دمشق	خرائب الدرويشية في دمشق	٥٣
٢٢	دمشق	العيد في دمشق	٩٨
٢٣	بغداد	صورة	٩٣
٢٤	الذكريات (١)	الحلقة (٣١)	٢٥٠
٢٥	فتاوى الطنطاوي	عبوة أو عبيئة	٢٨١

باب الغين

رقم الفائدة	المرجع	الموضوع الذي اشتمل الفائدة	صفحة المرجع
١	أخبار عمر	كلماته	١٧
٢	أعلام التاريخ	القاضي شُريك	٢٩
٣	رجال من التاريخ	شاعر يرثي نفسه	١٦٨
٤	رجال من التاريخ	السلطان الشهيد	١٨٣
٥	من حديث النفس	في لج البحر	٢١٠
٦	فتاوى الطنطاوي	العطور نجسة أم طاهرة	١٩٩
٧	صيد الخاطر	المعاصي	١٢٦

رقم الفائدة	المرجع	الموضوع الذي اشتمل الفائدة	صفحة المرجع
٨	حكايات من التاريخ	المجرم ومدير الشرطة	٢٠
٩	مقدمات الطنطاوي	مقدمة ديوان (في ظلال الأيام) العطار	٢٥

باب الفاء

رقم الفائدة	المرجع	الموضوع الذي اشتمل الفائدة	صفحة المرجع
١	مقالات في كلمات	موازين الرجال	١٩٤
٢	فكر ومباحث	من شوارد الشواهد	٨٨
٣	صور وخواطر	أعرابي في سينما	٨٢
٤	صور وخواطر	رمضان	١٦٤
٥	أبو بكر الصديق	أبو بكر الصديق	٣٧
٦	قصص من التاريخ	هجرة معلم	١٣٠
٧	رجال من التاريخ	الشيخ طاهر الجزائري	٣٨٣
٨	في سبيل الإصلاح	أسلوب جديد في التعليم	١٥٢
٩	من حديث النفس	كتاب مفتوح	٩٤
١٠	ذكريات (١)	الحلقة (٨)	٦٧
١١	ذكريات (٢)	الحلقة (٤١)	٩٥
١٢	ذكريات (٧)	الحلقة (١٨٠)	٢٣

باب القاف

رقم الفائدة	المرجع	الموضوع الذي اشتمل الفائدة	صفحة المرجع
١	مقالات في كلمات	طريق النصر	١٠٢
٢	أبو بكر الصديق	نسبه وصفته	٥٣
٣	أخبار عمر	أقواله وكلماته	٤٤٩
٤	رجال من التاريخ	أعظم قواد التاريخ القديم	٤٨
٥	الذكريات (٣)	الحلقة (٨٥)	٢٠٠
٦	رجال من التاريخ	مأساة عالم	٦٢
٧	رجال من التاريخ	الفقيه الأميرال	١٥٧
٨	رجال من التاريخ	حجة الإسلام	٢١٧

رقم الفائدة	المرجع	الموضوع الذي اشتمل الفائدة	صفحة المرجع
٩	الذكريات (٤)	الحلقة (١٢٣)	٢٧٣
١٠	في سبيل الإصلاح	داء الشباب	١٠١
١١	من حديث النفس	بيوتنا هدمناها بأيدينا	١٨٦
١٢	صيد الخاطر	النظافة	١٠١
١٣	صيد الخاطر	حذار من المعاصي	١٨٠
١٤	الذكريات (٢)	الحلقة (٤٧)	١٢١
١٥	الذكريات (٣)	الحلقة (٧٤)	٩٢
١٦	الذكريات (٤)	الحلقة (١٢١)	٢٥٧

باب الكاف

رقم الفائدة	المرجع	الموضوع الذي اشتمل الفائدة	صفحة المرجع
١	فكر ومباحث	من شوارد الشواهد	٨٨
٢	صور وخواطر	مرثية غراي	١٠٦
٣	أبو بكر الصديق	أبو بكر الصديق	٣٧
٤	أبو بكر الصديق	أبو بكر الصديق	٣٧
٥	أخبار عمر	إسلامه	١٨
٦	أخبار عمر	شكاوى وتحقيقات	١٥٧
٧	دمشق	دمشق	٩
٨	من حديث النفس	شهادة ليسانس للبيع	٤٦
٩	الرزق مقسوم	الرزق مقسوم	١١
١٠	قصص من الحياة	في جبال الشام	٧٨
١١	دمشق	منشئ حي المهاجرين	٧٥
١٢	الذكريات (١)	الحلقة (١٩)	١٥١

باب اللام

رقم الفائدة	المرجع	الموضوع الذي اشتمل الفائدة	صفحة المرجع
١	مقالات في كلمات	الهاتف الآلي	١١٧
٢	أعلام التاريخ	القاضي شريح	١١

رقم الفائدة	المرجع	الموضوع الذي اشتمل الفائدة	صفحة المرجع
٣	تعريف بدين الإسلام	الإيمان بالرسل	١٧٤
٤	صيد الخاطر	في الدعاء	٨٦
٥	الذكريات (١)	الحلقة (٤)	٣٤

باب الميم

رقم الفائدة	المرجع	الموضوع الذي اشتمل الفائدة	صفحة المرجع
١	مقالات في كلمات	معلمة	١٠٢
٢	مقالات في كلمات	العبقريات الضائعة	١٧٤
٣	من نفحات الحرم	على غار حراء	١٨
٤	من نفحات الحرم	فر من الموت وفي الموت وقع	٨٢
٥	فكر ومباحث	من شوارد الشواهد	٧٩
٦	صور وخواطر	يا بنتي	١٥٨
٧	صور وخواطر	رقم مكسور	٢٥٥
٨	أبو بكر الصديق	بناء المسجد النبوي	١١٧
٩	أبو بكر الصديق	حديث الإفك	١٣٠
١٠	أبو بكر الصديق	وصاياه	٣٠١
١١	قصة حياة عمر	قصة حياة عمر	٣٨
١٢	قصص من التاريخ	قصة سمرقند	٨٠
١٣	قصص من التاريخ	هيلانة ولويس	٨٧
١٤	رجال من التاريخ	الإمام الأعظم	١١٣
١٥	رجال من التاريخ	أمير المؤمنين في الحديث	١٤٥
١٦	رجال من التاريخ	القاضي المتأنق	٢٠٥
١٧	رجال من التاريخ	شيخ من دمشق	٢٤٧
١٨	رجال من التاريخ	الشيخ أمجد الزهاوي	٤٨٥
١٩	مع الناس	رسالة	١٦٦
٢٠	هتاف المجد	من حديث الجهاد	١٩٤
٢١	فصول إسلامية	بمناسبة ليلة القدر	١٥١
٢٢	من حديث النفس	أول مقالة نشرتها وأول درس ألقيته	١٤٨

رقم الفائدة	المرجع	الموضوع الذي اشتمل الفائدة	صفحة المرجع
٢٣	من حديث النفس	على عتبة الأربعين	١٨٢
٢٤	صيد الخاطر	مقدمة	١١
٢٥	صيد الخاطر	في أثر الموعظة	٤٣
٢٦	صيد الخاطر	على طالب العلم ألا يجهد نفسه	١٦٧
٢٧	صيد الخاطر	مع كل فرحة في الدنيا ترحة	٤٠٩
٢٨	قصص من الحياة	طبق الأصل	٦٨
٢٩	قصص من الحياة	شيخ في مرقص	١٦٤
٣٠	دمشق	الجلاء عن دمشق	٨٠
٣١	دمشق	العيد في دمشق	٩٩
٣٢	بغداد	من دمشق إلى بغداد	٣٢
٣٣	أعلام التاريخ	عبد الرحمن بن عوف	١٤
٣٤	الذكريات (١)	الحلقة (٤)	٣٦
٣٥	الذكريات (١)	الحلقة (٣١)	٢٤٩
٣٦	الذكريات (٢)	الحلقة (٤٤)	٨٩
٣٧	الذكريات (٢)	الحلقة (٦١)	٢٦٩
٣٨	الذكريات (٤)	الحلقة (١٠٩)	١١٨
٣٩	الذكريات (٥)	الحلقة (١٣٥)	١٠٥
٤٠	الذكريات (٦)	الحلقة (١٦٢)	١٠٠
٤١	الذكريات (٧)	الحلقة (١٩٢)	١٥٣
٤٢	الذكريات (٨)	الحلقة (٢١٩)	١٠٣
٤٣	دمشق	مكتب عنبر	١٥١

باب النون

رقم الفائدة	المرجع	الموضوع الذي اشتمل الفائدة	صفحة المرجع
١	مقالات في كلمات	هكذا فاصنعوا لهن	٨٤
٢	مقالات في كلمات	موازين الرجال	١٩٥
٣	من نفحات الحرم	على غار حراء	١٩
٤	من نفحات الحرم	على غار حراء	٢٠

رقم الفائدة	المرجع	الموضوع الذي اشتمل الفائدة	صفحة المرجع
٥	من نفحات الحرم	فر من الموت وفي الموت وقع	٨١
٦	صور وخواطر	يا بنتي	١٥٠
٧	فكر ومباحث	من شوارد الشواهد	٨٥
٨	صور وخواطر	شهيد العيد	٦٧
٩	تعريف بدين الإسلام	الإيمان بالقدر	١٢٧
١٠	الذكريات (٣)	الحلقة (٨١)	١٤٩
١١	رجال من التاريخ	بين يدي الطبعة السابعة	١٠
١٢	تعريف بدين الإسلام	تعريفات	٣٦
١٣	أبو بكر الصديق	هجرته إلى المدينة	٩٤
١٤	أعلام التاريخ	أحمد بن عرفان	١٩
١٥	الذكريات (١)	الحلقة (٢٣)	١٨٤
١٦	الذكريات (١)	الحلقة (٣١)	٢٤٩
١٧	أخبار عمر	مؤدب ومربي	٣٣٣
١٨	الذكريات (٨)	الحلقة (٢١٢)	٢٩

باب الهاء

رقم الفائدة	المرجع	الموضوع الذي اشتمل الفائدة	صفحة المرجع
١	من نفحات الحرم	في تبوك	١٠٥
٢	أخبار عمر	صحبته	٣٩
٣	قصص من التاريخ	حكاية الهميان	٢٤٢
٤	صيد الخاطر	اتق الله ولا تغتر بالسلامة	١٦٩
٥	قصص من الحياة	طبق الأصل	٧٠
٦	الذكريات (٧)	الحلقة (١٨٠)	٩
٧	الذكريات (٧)	الحلقة (١٨٧)	٩٦

باب الواو

رقم الفائدة	المرجع	الموضوع الذي اشتمل الفائدة	صفحة المرجع
١	مقالات في كلمات	طفلان	١٣٩

رقم الفائدة	المرجع	الموضوع الذي اشتمل الفائدة	صفحة المرجع
٢	الذكريات (١)	الحلقة (٢٨)	٢٢٩
٣	فكر ومباحث	من شوارد الشواهد	٩٠
٤	في سبيل الإصلاح	تاجر حرب	٥
٥	تعريف بدين الإسلام	توحيد الألوهية	٧٥
٦	الذكريات (١)	الحلقة (٨)	٧١
٧	صيد الخاطر	الفلسفة والرهبانية	٢٠٦
٨	قصص من التاريخ	اليتيمان	١٠
٩	الذكريات (٢)	الحلقة (٤٦)	١١٠
١٠	الذكريات (٢)	الحلقة (٤٧)	١٢١

باب الياء

رقم الفائدة	المرجع	الموضوع الذي اشتمل الفائدة	صفحة المرجع
١	صور وخواطر	بين البهائم والوحوش	١١٢
٢	صور وخواطر	زورق الأحلام	٢٣٥
٣	أبو بكر الصديق	مقدمة الطبعة الثالثة	١١
٤	الذكريات (٨)	الحلقة (٢١٠)	١٢

الفوائد المتفرقة

رقم الفائدة	المرجع	الموضوع الذي اشتمل الفائدة	صفحة المرجع
١	مقالات في كلمات	فلاح فلوريدا	٢٣١
٢	فكر ومباحث	من شوارد الشواهد	٢٨
٣	فكر ومباحث	من شوارد الشواهد	٩١
٤	صور وخواطر	في الحب	٢٢٠
٥	أبو بكر الصديق	مقدمة الطبعة الأولى	٢٤
٦	قصص من التاريخ	هند والمغيرة	١٢٤
٧	رجال من التاريخ	شيخ من دمشق	٢٤٧
٨	في سبيل الإصلاح	مقدمة الطبعة الثانية	٧
٩	مع الناس	حديث العيد	١٩١

رقم الفائدة	المرجع	الموضوع الذي اشتمل الفائدة	صفحة المرجع
١٠	فصول إسلامية	طرق الدعوة إلى الإسلام	٢٣
١١	فصول إسلامية	إلى شباب الأزهر	٢٤٧
١٢	فصول إسلامية	ماذا يراد بالأزهر	٢٥٥
١٣	تعريف بدين الإسلام	دين الإسلام	٢٥
١٤	تعريف بدين الإسلام	الإيمان بالله	٥٦
١٥	تعريف بدين الإسلام	الإيمان باليوم الآخر	٢٢٤
١٦	فتاوى الطنطاوي	تفسير المنامات	١٢
١٧	فتاوى الطنطاوي	رسم المصحف	٣٢
١٨	فتاوى الطنطاوي	القومية الإسلامية	٧٣
١٩	فتاوى الطنطاوي	الوصية الواجبة من التركة	٢٦٨
٢٠	فتاوى الطنطاوي	عبوة أو عبيئة	٢٨١
٢١	فتاوى الطنطاوي	الزهد في الدنيا	٢٩٨
٢٢	صيد الخاطر	الصبر على التقوى	١٣٨
٢٣	صيد الخاطر	العاشق في عذاب	٢١٥
٢٤	دمشق	هذي دمشق	٢٠
٢٥	الجامع الأموي	الأموي في آخر القرن (١٦)	٥١
٢٦	بغداد	سُرَّ من رأى	٤٠
٢٧	الذكريات (١)	الحلقة (١١)	٨٧
٢٨	الذكريات (١)	الحلقة (٢٠)	١٦٣
٢٩	الذكريات (١)	الحلقة (٢٥)	٢٠٣
٣٠	الذكريات (٢)	الحلقة (٣٨)	٣٥
٣١	الذكريات (٢)	الحلقة (٣٨)	٣٩
٣٢	الذكريات (٢)	الحلقة (٤٤)	٩٤
٣٣	الذكريات (٣)	الحلقة (٧٤)	٩٢
٣٤	الذكريات (٣)	الحلقة (٧٦)	١٠٩
٣٥	الذكريات (٣)	الحلقة (٦٣)	٢٦٩
٣٦	الذكريات (٨)	الحلقة (٢٢٥)	١٧٠
٣٧	الذكريات (٨)	الحلقة (٢٢٥)	١٧٠

رقم الفائدة	المرجع	الموضوع الذي اشتمل الفائدة	صفحة المرجع
٣٨	الذكريات (٨)	الحلقة (٢٣٥)	١٧١
٣٩	الذكريات (٨)	الحلقة (٢٣٩)	٣٠٤
٤٠	من حديث النفس	الشفاء	١٠٣

* * *

مصادر الفوائد اللغوية

١ ـ أبو بكر الصديق.
علي الطنطاوي ط (٣) دار المنارة ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م جدة
٢ ـ أخبار عمر.
علي الطنطاوي ط (٨) المكتب الإسلامي ـ ١٩٨٣م بيروت
٣ ـ رجال من التاريخ.
علي الطنطاوي ط (٨) دار المنارة ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م جدة
٤ ـ تعريف عام بدين الإسلام.
علي الطنطاوي ط (١) دار المنارة ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م جدة
٥ ـ فصول إسلامية.
علي الطنطاوي ط (٤) دار المنارة ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م جدة
٦ ـ هتاف المجد.
علي الطنطاوي ط (٢) دار المنارة ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م جدة
٧ ـ قصص من التاريخ.
علي الطنطاوي ط (٥) دار المنارة ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م جدة
٨ ـ قصص من الحياة.
علي الطنطاوي ط (٤) دار المنارة ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م جدة
٩ ـ في سبيل الإصلاح.
علي الطنطاوي ط (٣) دار المنارة ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م جدة
١٠ ـ من حديث النفس.
علي الطنطاوي ط (٤) دار المنارة ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م جدة

١١ ـ فكر ومباحث.
علي الطنطاوي ط (٢) دار المنارة ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م جدة
١٢ ـ مع الناس.
علي الطنطاوي ط (٢) دار المنارة ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م جدة
١٣ ـ صور وخواطر.
علي الطنطاوي ط (٢) دار المنارة ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م جدة
١٤ ـ مقالات في كلمات.
علي الطنطاوي ط (١) دار الفكر ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م دمشق
١٥ ـ فتاوى الشيخ علي الطنطاوي.
جمع وترتيب. مجاهد ديرانية ط (٤) دار المنارة ١٤١١هـ جدة
١٦ ـ دمشق صور من جمالها وعبر من نضالها.
علي الطنطاوي ط (٢) دار الفكر ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م
دمشق إعادة (دار المنارة) ١٩٩٧م.
١٧ ـ بغداد مشاهدات وأحداث.
علي الطنطاوي ط (٢) دار المنارة ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م جدة
١٨ ـ من نفحات الحرم.
علي الطنطاوي ط (٣) دار المنارة ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م جدة
١٩ ـ الجامع الأموي في دمشق وصف وتأريخ.
علي الطنطاوي ط (١) دار المنارة ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م جدة
٢٠ ـ صور من الشرق.
علي الطنطاوي ط (١) دار المنارة ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م جدة
٢١ ـ ذكريات علي الطنطاوي.
علي الطنطاوي ط (٢) دار المنارة ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م جدة
٢٢ ـ القضاء في الإسلام.
علي الطنطاوي ط (١) دار المنارة ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م جدة
٢٣ ـ مقدمات الشيخ علي الطنطاوي.
جمع وترتيب مجد مكي ط (١)دار المنارة ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م جدة
٢٤ ـ سلسلة (أعلام التاريخ).
علي الطنطاوي ط (٢) دار الفكر ١٤٩٩هـ ـ ١٩٧٩م دمشق إعادة (١٩٩٧م).

٢٥ ـ قصة حياة عمر.

علي الطنطاوي ط (١) دار المنارة ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م جدة

٢٦ ـ سلسلة (حكايات من التاريخ).

علي الطنطاوي ط (٣) دار الفكر ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م دمشق إعادة (١٩٩٧م).

٢٧ ـ تعريف موجز بدين الإسلام.

علي الطنطاوي ط (٢) دار المنارة ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م جدة

٢٨ ـ صيد الخاطر للإمام ابن الجوزي.

تحقيق (علي الطنطاوي وناجي الطنطاوي) ط (٥) دار المنارة ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م جدة

٢٩ ـ من شوارد الشواهد.

علي الطنطاوي ط (١) دار المنارة ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م جدة.

* * *

مصادر التعليقات على الفوائد

١ ـ صحيح البخاري / الإمام البخاري / دار القلم ـ بيروت / ١٩٨٧م.
٢ ـ صحيح مسلم/ مسلم بن الحجاج القشيري/ دار إحياء التراث العربي / ١٩٥٤م.
٣ ـ سنن أبي داوود / أبو داود سليمان بن الأشعث / المكتبة العصرية.
٤ ـ سنن ابن ماجة / الحافظ أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني / دار إحياء التراث العربي.
٥ ـ مسند الإمام أحمد / الإمام أحمد بن حنبل / دار المعارف ـ مصر / ١٩٤٩م.
٦ ـ وفيات الأعيان / لابن خلكان ـ تحقيق: د. إحسان عباس / دار الثقافة ـ بيروت ١٩٧٧م.
٧ ـ لسان العرب / ابن منظور / دار صادر ـ بيروت / ١٩٩٠م.
٨ ـ القاموس المحيط / الفيروز آبادي / ط (١) دار احياء التراث / ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م.
٩ ـ المعجم الوسيط / مجمع اللغة العربية / المكتب الإسلامي ـ تركيا ـ استنبول.
١٠ ـ المعجم الوجيز / مجمع اللغة العربية / ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.
١١ ـ الكامل في النحو والصرف والإعراب / أحمد قبِّش / ط (٢) دار الجيل ـ بيروت / ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م.
١٢ ـ مجمع الأمثال / أبو الفضل الميداني / ط (١) دار الكتب العلمية ـ بيروت / ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.
١٣ ـ الواقعية الإسلامية في الأدب والنقد / د. أحمد بسّام الساعي / ط (١) دار المنارة ـ جدة / ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

١٤ ـ معجم الأغلاط اللغوية المعاصرة / محمد العدناني / ط (١) مكتب لبنان ـ بيروت / ١٩٨٤م.
١٥ ـ معجم الأخطاء الشائعة / محمد العدناني. طبعة جديدة / مكتب لبنان ناشرون ـ بيروت / ١٩٩٧م.
١٦ ـ الأخطاء الشائعة وأثرها في تطور اللغة العربية / ماجد الصايغ / ط (١) دار الفكر اللبناني ـ بيروت ١٩٩٠م.
١٧ ـ الفروق اللغوية / أبو هلال العسكري، تحقيق: حسام الدين القدسي / دار الكتب العلمية ـ بيروت.
١٨ ـ صون اللسان عن الزلل في لغة القرآن / محمد الحسيني يوسف / دار المَريخ ـ الرياض / ١٩٩٢م.
١٩ ـ كلمات غريبة / منصور ابراهيم الخميس / ط (١) مكتبة العبيكان ـ الرياض / ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م.
٢٠ ـ معجم لآلئ الشعر / د. إميل يعقوب / ط (١) المجموعة / ١٩٩٦م.
٢١ ـ شرح ديوان امرئ القيس / شرح حجر عاصي / ط (١) دار الفكر العربي ـ بيروت /. ١٩٩٤م.
٢٢ ـ العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي ط (٣) دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٩٨٧م.
٢٣ ـ علماء ومفكرون عرفتهم (الجزء ٣) محمد المجذوب / دار الاعتصام ـ لقاهرة.
٢٤ ـ الموسوعة العربية العالمية ط (١) ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.
٢٥ ـ المورد / منير البعلبكي / دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٩٣م.
٢٦ ـ قاموس (Porter ـ And ـ Wortabet) / مكتبة لبنان ـ ١٩٨٤م.

من آثار
فضيلة الشيخ علي الطنطاوي
- رحمه الله تعالى -

١ ـ رسائل الإصلاح	١٣٤٨هـ
٢ ـ بشار بن برد	١٣٤٨هـ
٣ ـ رسائل سيف الإسلام	١٣٤٩هـ
٤ ـ الهيثميات	١٣٤٩هـ
٥ ـ في التحليل الأدبي	١٣٥٣هـ
٦ ـ عمر بن الخطاب	١٣٥٢هـ
٧ ـ كتاب المحفوظات	١٣٥٥هـ
٨ ـ في بلاد العرب	١٩٣٩م
٩ ـ من التاريخ الإسلامي	١٩٣٩م
١٠ ـ أبو بكر الصديق	١٩٨٦م
١١ ـ قصص من التاريخ	١٩٨٣م
١٢ ـ رجال من التاريخ	١٩٨٦م
١٣ ـ صور وخواطر	١٩٨٢م
١٤ ـ قصص من الحياة	١٩٨٠م
١٥ ـ في سبيل الإصلاح	١٩٥٩م
١٦ ـ دمشق	١٩٥٩م
١٧ ـ أخبار عمر	١٩٨٣م

١٨ ـ مقالات في كلمات ١٩٥٩م
١٩ ـ من نفحات الحرم ١٩٨٠م
٢٠ ـ هتاف المجد ١٩٦٠م
٢١ ـ من حديث النفس ١٩٨١م
٢٢ ـ الجامع الأموي ١٩٦٠م
٢٣ ـ في أندونيسيا ١٩٦٠م
٢٤ ـ فصول إسلامية ١٩٦٠م
٢٥ ـ صيد الخاطر لابن الجوزي ١٩٧٨م
(تحقيق وتعليق)
٢٦ ـ فكر ومباحث ١٩٦٠م
٢٧ ـ مع الناس ١٩٦٠م
٢٨ ـ بغداد ١٩٦٠م
٢٩ ـ سلسلة حكايات من التاريخ ١٩٦٠م
ـ وزارة بعنقود عنب ـ التاجر والخراساني
ـ ابن الوزير ـ التاجر والقائد
ـ قصة الأخوين ـ المجرم ومدير الشرطة
ـ جابر عثرات الكرام
٣٠ ـ سلسلة أعلام التاريخ ١٩٧٩
ـ عبدالرحمٰن بن عوف ـ عبدالله بن المبارك
ـ القاضي شريك ـ الإمام النووي
ـ أحمد بن عرفان الشهيد
٣١ ـ فتاوى علي الطنطاوي ١٩٨٦م
٣٢ ـ تعريف عام بدين الإسلام ١٩٧٤م
٣٣ ـ ذكريات علي الطنطاوي ج١ ١٩٨٥م
٣٤ ـ ذكريات علي الطنطاوي ج٢ ١٩٨٥م
٣٥ ـ ذكريات علي الطنطاوي ج٣ ١٩٨٦م
٣٦ ـ ذكريات علي الطنطاوي ج٤ ١٩٨٦م
٣٧ ـ ذكريات علي الطنطاوي ج٥ ١٩٨٧م
٣٨ ـ ذكريات علي الطنطاوي ج٦ ١٩٨٨م

٣٩ ـ ذكريات علي الطنطاوي ج٧ ١٩٨٩م
٤٠ ـ ذكريات علي الطنطاوي ج٨ ١٩٨٩م
٤١ ـ قصة حياة عمر ١٩٩٣م

مقالات طبعت في كتيبات:

١ ـ المثل الأعلى للشباب	دار المنارة ١٩٨٨م
٢ ـ يا بنتي ويا ابني	دار المنارة ١٩٨٧م
٣ ـ من غزل الفقهاء	دار المنارة ١٩٨٨م
٤ ـ تعريف موجز بدين الإسلام	دار المنارة ١٩٩٢م
٥ ـ الرزق مقسوم	دار المنارة ١٩٩٦م
٦ ـ موقفنا من الحضارة الغربية	دار المنارة ١٩٩٠م
٧ ـ ارحموا الشباب	دار المنارة ١٩٩٥م
٨ ـ القضاء في الإسلام	دار المنارة ١٩٨٨م
٩ ـ من شوارد الشواهد	دار المنارة ١٩٨٨م
١٠ ـ حلم في نجد	دار الأصالة ١٩٨٣م
١١ ـ قصتنا مع اليهود	دار المنارة ١٩٩٠م
١٢ ـ طرق الدعوة إلى الإسلام	دار المنارة ١٩٩٠م
١٣ ـ صلاة ركعتين	دار المنارة ١٩٩٠م
١٤ ـ طريق الجنة وطريق النار	مكتبة المنارة ١٩٨٨م
١٥ ـ قصة كاملة لم يؤلفها بشر	دار المنارة ١٩٩٨م
١٦ ـ الباب الذي لا يُغلق في وجه سائل	دار المنارة ١٩٩٧م

** وله مئات من البحوث والمقالات في عشرات من الصحف والمجلات.

مما أُلِّف عنه:

- (مقدمات الشيخ علي الطنطاوي) كتاب صدر عن دار المنارة، في جدة، عام ١٤١٨هـ، جمع فيه الأستاذ/ مجد مكي مقدمات قدمها الشيخ لبعض الكتب، له ولغيره، يوقع في مجلد ضم (٤١٤ صفحة).
- كتاب لحفيدته عابدة العظم بعنوان (هكذا ربانا جدي علي الطنطاوي).
- رسالة ماجستير للباحث/ عبدالله بن جبريل بعنوان (بعض الآراء التربوية للشيخ

علي الطنطاوي) من جامعة أم القرى.

- رسالة ماجستير للباحث/ أحمد آل مريع بعنوان (ذكريات الطنطاوي دراسة فنية) من جامعة أم القرى.
- رسالة دكتوراه للباحث/ عبدالله فاروق بعنوان (علي الطنطاوي.. مساهمته في تطوير النثر العربي الحديث) جامعة عليكرة عام ١٩٩٥م.
- «من مدرسة البيان العربي: الأديب السوري علي الطنطاوي» للدكتور عبدالحميد شعبان، مجلة كلية اللغة العربية بالمنصورة، العدد (١١) ـ ١٩٩١م.

فهرس موضوعات
مقاطع مختارة من روائع الطنطاوي

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

فهرس موضوعات
الفوائد الطنطاوية

الموضوع	الصفحة